

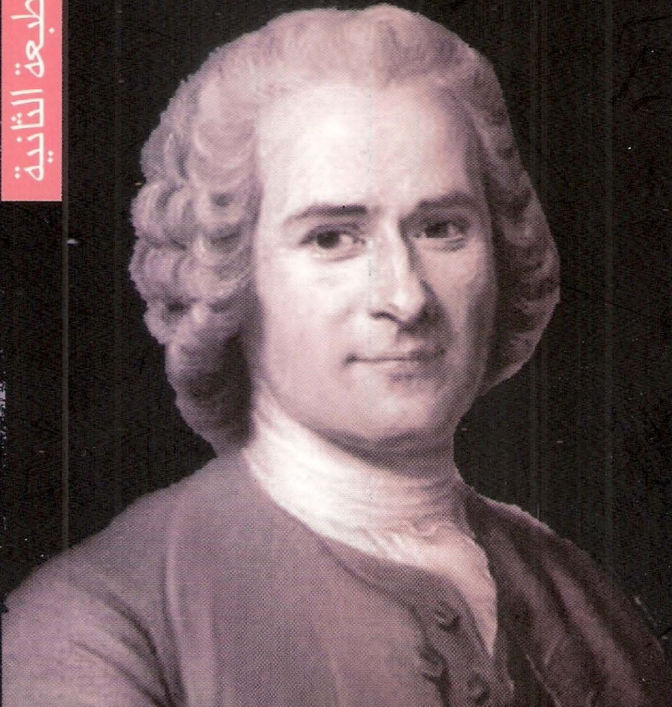
جان چاك روسو

ميراث الترجمة

أحلام يقظة  
جوال منفرود

ترجمة وتعليق: ثريا توفيق  
مراجعة: صالح جودت

الطبعة الثانية





**أحلام يقظة جوال منفرد**

## المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ٢ / ٩٤٥

- أحلام يقظة جوال منفرد

- جان چاك روسو

- ثريا توفيق

- صالح جودت

- ٢٠٠٩

## هذه ترجمة

Les Rêveries du Promeneur

Par: Jean - Jacques Rousseau

---

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

# أحلام يقظة جوال منفرد

تأليف: جان چاك روسو

ترجمة: ثريا توفيق

مراجعة: صالح جودت



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٩ / ١١٦٥٣  
الترقيم الدولي: 1 - 389 - 479 - 977 - 978  
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

---

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

## تمهيد

يشير «جورج سارتون» (١) George Sarton الى انه « مما أفسد فهم العلم القديم كثيرا من الاحيان ظاهرتان من الاهمال الذي لا يمكن التسامح فيه: أما الظاهرة الأولى: فتتعلق باهمال العلم الشرقي فمن سذاجة الأطفال ان نفترض ان العلم بدأ في بلاد الاغريق ، فان « المعجزة اليونانية » سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرها من الأقاليم ، والعلم اليوناني كان احياء أكثر منه اختراعا . والظاهرة الثانية: اهمال الاطوار الجغرافي الذي نشأ فيه العلم ، لا الشرقي فحسب ، بل اليوناني ذاته كذلك وكفانا سوءا اننا أخفينا الاصول الشرقية التي لم يكن التقديم الهليني مستطاعا بدونها » .

والواقع أن « سارتون » لم يحد عن جادة الصواب ذلك لان مشعل الحضارة في الشرق الادنى القديم كان يرفعه ساعدان : بلاد ما بين النهرين من يمين ومصر من يسار ثم معبر في الوسط . هو سورية ازدوجت فيه الحضارتان وامتزجتا فأشعتا على العالم القديم دهرا طويلا حتى أذن الله أن تنتقل الشعلة الى يد اليونان الذين نقلوها بدورهم الى أوروبا . .

وقصة العلم - اذن - قصة واحدة طويلة لانستطيع أن ندرك فصولها الاخيرة ما لم نتفهم تماما المراحل التي مرت بها منذ البداية فنستوعبها ونتابع تطورها . وهي ليست قاصرة على قطر من الاقطار أو بلد من البلدان بل هي مشاع للانسانية قاطبة تنتقل بين شعوبها بوساطة الحروب حيناً وعن طريق الهجرات والارتحال أو التجارة أحيانا أخرى ومن ثم كان «نقل العلوم على هذا الوجه وترجمتها من لغة الى لغة الوسيلة المشتركة دائما الناجحة أبدا » (٢). وقد شهد تاريخنا الثقافي ثلاث موجات من الترجمة

(١) راجع « تاريخ العلم » الجزء الاول - التمهيد ص ٢٠ و ٢١ ترجمة الاستاذ محمد خلف الله أحمد وآخرين .

(٢) تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ص ٥ : الدكتور جمال الدين الشيال .

الى العربية اولها في العصر العباسي . . وثانيتهما في القرن الماضي وآخرها وهي التي نخوض غمارها اليوم .

اما الأولى ( في العصر العباسي ) فقد جاءت على دفعتين متلاحقتين ، اولهما : قبل عصر المأمون وكانت تتضمن جهودات فردية ، وثانيتهما : من عصر المأمون وخلفائه وقد تمت الترجمة خلال هذه المرحلة تحت رعاية الدولة عن اليونانية والسريانية والفارسية ، وكان ما نقل عن الاخيرتين مترجمة أصلا عن اليونانية والسنسكريتية ( الهندية ) - كان معظم ماتمت ترجمته علم وفلسفة ، ولم يظفر الادب الا بقسط ضئيل لعل أبرز ما فيه كتاب «كلياته ودمنة» الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية (وهذه بدورها عن السنسكريتية ) ولعل السر في أن حركة الترجمة لم تبدأ قبل العصر العباسي - بصورة واضحة على الأقل - انه حين بدأ الاسلام ينتشر في أنحاء العالم المعروف في القرن السابع الميلادي بدأ العرب يتزاجون مع الشعوب جميعا جنسا ولغة وحضارة ولم تحدد معالم العصر الذهبي للحضارة الاسلامية الا في عنفوان الدولة العباسية حين أقبل العلماء على الترجمة عن اللغات الاجنبية(١) وعند هذه المرحلة بدأت معالم الحضارة الاسلامية تتضح وبدأت شخصيتها تبرز فنشأت علوم اسلامية نتيجة لذلك أضافت للعلم المعروف في هذه المرحلة الشيء الكثير وثبتت من دعائم ما كان موجودا منه فعلا أو عدلت فيه طبقا لمقتضيات الظروف . . وعلى أثر ذلك أخذ العلم الاسلامي - بفضل بروز المسلمين على العالم - يمد أشعته في كل الآفاق حتى نهلت منه أوروبا فكان مبعث نهضتها . . وأما وسيلة ذلك مرة أخرى فكانت الترجمة عن العربية ذلك لان مؤلفات المسلمين في مختلف العلوم ترجمت في هذه المرحلة الى اللاتينية بخاصة ( وهي لغة العلم في أوروبا اذ ذاك ) ، بل ودرست كتب العرب في جامعات أوروبا واعترف بها كمراجع علمية لها قدرها . . هذا الى أن بعض علماء العرب كانوا يقومون بالتدريس فعلا في بعض هذه الجامعات وبخاصة في ايطاليا - وبرزت الاندلس بعلمائها قبيل هذه المرحلة وخلالها فظهر بها الكثيرون من العلماء والمترجمين والناقلين الذين ترجموا من العربية الى مختلف اللغات الاوربية وبخاصة اللاتينية كذلك .

وأما مصر فقد كان لها شأن آخر . . ذلك أنها كانت تمر - وبخاصة في أعقاب الفتح العثماني - بمرحلة تدعو الى الأسى فضعفت الحركة العلمية - أو خمدت - ويرجع ذلك الى أن القوة العثمانية « حالت بلا شك

١١٦ جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٤٧ - ١٦٢ .



دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الاجنبية عموما وبالحضارة الاوربية خصوصا ، (١) لا عن قصد بل لان الدولة العثمانية تولت أمر أمم كانت على نوع من الاعياء لم يكن الحكم العثماني قادرا على أن يزيله عنها ، فالعثمانيون كانوا قوما يأخذون ولا يعطون . . وكان تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح مما أضعف الصلة بين مصر وأوربا في هذه المرحلة اذ لم يعد يتردد عليها الا قلة من التجار همهم الاكبر كسب المال . . وأما نقل العلوم فقد توقف نهائيا . . وقد دعا هذا كله الى أن يسود الجهل جميع نواحي الحياة فلم يبق سوى الازهر يقوم على رعاية الدين وما يتصل به من علوم . . وهي ضئيلة قليلة بالغة التأخر مختلفة عن نظائرها في أوروبا . . بل أخذت تسيطر الخرافات على العقول حتى أصبح الايمان بالمعجزات يقوم عند الشعب - بل وعند العلماء مقام الدين . .

وجاءت الحملة الفرنسية الى مصر وضاعت الدولة العثمانية بهذا الأمر وانزعج المماليك فقاوموا مقاومة المستيئس . . ولكنهم غلبوا على أمرهم . . ثم تدخلت انجلترا حين عز عليها أن تترك مصر للفرنسيين لقمة سائفة . . وأما الشعب فقد تحرك كذلك فثار على الحكام الجدد ممن لا يراعون حرمة الدين ويمعنون في ارتكاب المساوي والشور . . وقاوم الفرنسيون مدى ثلاث سنوات ثم اضطروا للانسحاب . ولكن هذه السنوات الثلاث كانت بالغة الأثر في حياة مصر :

صحبت الحملة مجموعة من العلماء توافرت على دراسة مصر وكانت ثمرة هذه الدراسة كتابها المشهور Description de l'Egypte واستطاعوا أن يجذبوا اليهم بعض شيوخ الازهر ويطلعوهم على جانب من علومهم وبحوثهم وأدواتهم وآلاتهم ثم عقدت بعض أوامر الصداقة بين بعضهم وبين بعض المستشرقين من علماء الحملة ومن أشهرهم الشيخ العطار الذي كان « من أكبر علماء مصر الممتازين والذي لم يكن تضلعه في العلوم الدينية كتضلعه في الدراسات الادبية » (٢) والذي قال عنه على باشا مبارك (٣) « واتصل بناس من الفرنسية وكان يستفيد منهم الفنسون المستعملة في بلادهم ويفيدهم اللغة العربية » وهو صاحب الفضل على تلميذه رفاعة الطهطاوي

(١) دكتور جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ص ١٣ نقلا عن مقدمة كتاب « الشرق الاسلامي في العصر الحديث » للدكتور حسين مؤنس وهي المقدمة التي كتبها الاستاذ محمد شفيق غربال .

(٢) Lane: The Manners and Customs of the Modern Egyptians, P. 27

(٣) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٢٨ .

زعيم النهضة العلمية الحديثة . وهو الذى قدمه لمحمد على ليكون امام البعثة المصرية الى فرنسا ثم هو الذى أشار عليه أن يسجل مشاهداته فى هذه البعثة التى أخرجها رفاة فيما بعد فى كتابه « تخلص الابريز فى تليخيص باريز » .

كانت الحملة الفرنسية اذن - برغم قصر أمدها - نقطة تحول فى الحياة المصرية وكانت تحمل معها مطبعة هى « المطبعة العربية » أو « مطبعة جيش الشرق » أو « مطبعة الجيش البحرى » - كما كانت تسمى وهى فى طريقها الى مصر - وبدأت عملها والحملة تشق طريقها الى مصر بطبع منشور نابليون المشهور . . بالعربية . . وسميت هذه المطبعة فيما بعد بالمطبعة الاهلية وكان مقرها الاول دار عثمان بك الأشقر بالازبكية ثم نقلت الى الجزيرة فالقاعة وأخذها الفرنسيون معهم عند ارتحالهم وحلت محلها فى عهد محمد على مطبعة عربية أخرى فى بولاق .

كانت الترجمة فى خلال الحملة أمرا ضروريا لضرورة التفاهم بين رجالها وبين المسئولين من قادة الشعب ورجال الديوان . وكان المترجمون من المالمطين أو المغاربة أو السوريين كما تعلم بعض شبان الاقباط الفرنسية وصحبوا الحملة فى عودتها ومن بينهم الياس بقطر صاحب القاموس الفرنسى العربى (١) .

وكان من رجال الحملة متخصصون فى الترجمة وكانت مكتبة المجمع عامرة بألاف الكتب ومن بينها كثير من الكتب الاسلامية مترجمة بلغتهم وقد طبعت بمطبعة الحملة مجموعة من الكتيبات القليلة المترجمة هى « وصايا لقمان الحكيم » وقد طبعت بالعربية ومعها ترجمة بالفرنسية ثم « محضر محاكمة سليمان الحلبي » وكذا « أجرومية اللغة العامية » ورسالة فى مرض الجدري لكبير أطباء الحملة وترجمة الأب « رفائيل زاخور » وقد طبعت كذلك بالفرنسية والعربية .

وابتداء من عام ١٨٠٥ بدأت مصر تمر بمرحلة كانت ثمرة اليقظة الجديدة - وتمثل الموجة الثانية - فأنشئت المدارس ودعى المتخصصون لنشر العلم الاوروبى كما أنشئت المدارس الفنية وبدى فى ترجمة الكتب المدرسية من الايطالية والفرنسية . ثم أنشئت مدرسة الألسن وعين رفاة الطهطاوى أول ناظر لها وكان أول أهدافها القيام بأعمال الترجمة وتدريب مترجمين ليعملوا فى ادارة الحكومة ثم أوفدت البعثات الى فرنسا بخاصة

(١) الشيال : المرجع السابق ص ٦٢ .

ليعود منها المبعوثون ويتوافروا على ترجمة خيرة الانتاج العلمى هناك الى العربية ٠٠ وفي عهد عباس الاول حدثت نكسة فأغلقت مدارس الطب والهندسة واللغات كما ألقى مكتب الترجمة ٠٠ وبعيد موته تابعه خلفه سعيد في فكرته من ناحية « أن الشعب الجاهل يسهل حكمه » فألقى كذلك وزارة المعارف ومدرسة الهندسة ثم مدرسة الطب بعد ذلك بقليل لفترة ما ٠٠٠ ولم يكن ليشجع حركة الترجمة ٠٠٠ ودفعته الظروف بعد ذلك الى اعادة تعيين رفاة الطهطاوى مديرا لقسم الترجمة بوزارة المعارف ثم لم تعد مدرسة الألسن مستقلة فأدمجت مع مدرسة الادارة التى عرفت فيما بعد باسم مدرسة الحقوق ٠٠ وكانت اللغة الفرنسية فى هذه المرحلة هى اللغة الاوربية التى تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية والخاصة وكانت ترجمة الكتب العلمية مهمة عاجلة فأنشئ مكتب للترجمة ووضع قاموس للمصطلحات الفنية بالعربية والفرنسية والانجليزية ٠٠ وأنشئ مكتب للترجمة بوزارة الحربية مستهدفا ترجمة القوانين العسكرية الفرنسية كما تمت ترجمة مجموعة كبيرة من كتب الطب ٠٠ ولعبت مدارس الارساليات الدينية الاجنبية دورا هاما فى حركة الترجمة فى مصر وكان خريجوها يعملون فى الشركات والبنوك والادارات الحكومية ٠٠

وقد بلغ عدد الاجانب المقيمين فى مصر عام ١٨٧٩ مائة ألف مما دعا الى انشاء مكتب للاوربيين عين به عدد من المترجمين المصريين ٠٠ وأسهمت المحاكم المختلطة فى حركة الترجمة مما دعا الى ترجمة القانون المدنى والتجارى وقوانين الاجراءات والعقوبات ٠٠ وترجم رفاة الطهطاوى - قطب زحى هذه المرحلة - كتابا فى الجغرافيا وآخر فى الرحلات وثالثا فى القانون التجارى الفرنسى وغيرها ٠ وترجم غيره كتباً فى الرياضة والشئون العسكرية أو مختلف العلوم كالكيمياء والطبيعة والحيوان والتاريخ ثم الروايات والمسرحيات ٠٠ وترجمت قصص لافونتين La Fontaine الى الشعر العربى كما ترجمت رواية بول وفرجينى لسان بيير Paul et Virginie de Bernardin de Saint-Pierre وروايات لمولير Molière وروايات راسين Racine ولو أن ذلك كان تعريبا أكثر منه ترجمة دقيقة ٠

ويلاحظ أنه بعد عام ١٨٨٠ سارت حركة الترجمة بخطى واسعة فتناولت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والادبية والعلمية ٠

وقبل الاحتلال الانجليزى كان التعليم فى المدارس بالعربية وكانت مدرسة الألسن مفتوحة الابواب لمن يريد اتقان اللغات الاجنبية ٠٠ وفى ظل الاحتلال أغلقت مدرسة الألسن وتوقف ارسال البعثات الى الخارج وتحول التعليم الى تعليم باللغتين الانجليزية أو الفرنسية وقل الاهتمام

بالعربية ثم نجح الإنجليز فى الغاء اللغة الفرنسية كلفة رسمية للتعليم فى المدارس الابتدائية ٠٠ وان ظلت كذلك فى مدارس الارساليات الدينية لاجنبية .

وظل الأمر كذلك حتى انكشفت الغمة قليلا فعادت اللغة العربية الى مكانها من التعليم كما ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالى مجموعة من الأدباء دأبت على النقل من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية فترجمت مئات الكتب فى مختلف العلوم والفنون والآداب مما تتطلبه حالة الدراسة بالمدارس أولا ، ومما تحتاجه الثقافة الشعبية ثانيا . وبرز فى هذا المضمار جماعة ممن أتيح لهم حظ السفر الى الخارج فعادوا يقدمون للبلاد ثمرات دراساتهم .

وكان انشاء الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ خطوة جديدة فى هذا المضمار فدأب أساتذتها على محاولة القاء دروسهم باللغة العربية برغم ما لقوا فى سبيل ذلك من عنت حتى أصبحت الكليات النظرية تقوم الدراسة فيها أساسا بلغة البلاد .

وبقيام الثورة دخلت البلاد فى مرحلة جديدة من هذا التطور الفكرى والثقافى فكان من بين ما استحدثته فى هذا المضمار مشروع « الألف كتاب » الذى يستهدف نقل أمهات الكتب الى العربية وتشجيع الترجمة على أوسع نطاق واعادة فتح مدرسة الألسن لتعليم اللغات الاجنبية ثم التوسع فى ايفاد البعثات الى الخارج، وأخيرا تكوين لجان من أساتذة الجامعات لترجمة أمهات الكتب فى مختلف العلوم والفنون توطئة لتعميم التعليم فى الكليات العملية باللغة العربية ٠٠٠ وشجعت البلاد أخيرا حركة الترجمة اذ أنها أمر ضرورى ولان العالم وحدة متكاملة وأن علينا أن نطلب « العلم ولو فى الصين » وأن الشعوب التى تطمح الى المجد يجب أن تكون على اتصال وثيق بمختلف ألوان الحضارات وأن هذا لا يكون ميسورا الا بمطالعة ما ينشر باللغات الاخرى وهكذا نجد المطابع لا تفتأ تقدم ألوانا من الثقافات والمعرفة تيسرها أحيانا للعامة من ذوى الثقافات المتوسطة فى كتيبات رخيصة غزيرة المادة ميسرة الاسلوب وأحيانا أخرى للخاصة فى مجلدات ضخمة تنشر نواحي العلم الحديث حتى يفيد منها المجتمع بمختلف طبقاته .

ولكن اذا كانت ترجمة العلوم فى العهد الحاضر لم تكد تخطو خطوة الا على أيدي أساتذة الجامعة الذين أرادوا أن يقدموا لطلابهم موادهم العلمية مطبوعة فى كتب ، والا عن طريق وزارة الثقافة التى من أهدافها الكثيرة الكبيرة نقل أمهات المصادر العلمية كلها فى خمس سنوات ٠٠ فان ترجمة

الآداب لم يكن، هذا شأنها دائما اذ نهض بجزء كبير منها هواة ٠٠ وهو أمر طبيعي ٠٠ فلا ينقل الادب الا محبوبه ٠٠ ومع ذلك فالفارق واضح بين ترجمة أدبية يقدمها محب لها شغوف بهسا وبين ترجمة أدبية تجيء عن تكليف فتخرج باردة ، أو فاترة على الاقل ، ومن ثم اختلفت الموازين في ترجمة كتب الادب بخاصة اختلافا بينا ٠٠٠

والترجمة من لغة أوربية الى أخرى أيسر من غير شك من الترجمة من لغة أوربية الى لغة شرقية ذلك لان أصول اللغات تتقارب في الاولى وتتباین في الثانية فالترجمة من الفرنسية الى الاسبانية أو الايطالية مثلا أيسر من الترجمة من الفرنسية الى الانجليزية أو الالمانية وكلاهما أيسر من الترجمة الى العربية ٠٠ ذلك لان الفرنسية والاسبانية والايطالية يمكن ارجاعها الى أصول لاتينية حتى أن مفرداتها تكاد في أحيان كثيرة تكون واحدة بل وكذلك التركيبات والصياغة ٠٠ والانجليزية تجمع بين الاصول اللاتينية والجرمانية ٠ وأما مجموعة اللغات الغربية فبعيدة كل البعد عن مجموعة اللغات الشرقية من ناحية الالفاظ ومن ناحية التراكيب معا ٠

واللغة العربية لغة عرفت بأنها غنية بمفرداتها غنى يستلقت النظر وهذه صعوبة جديدة لان تحديد اللفظ المناسب الدقيق في هذه الحالة من العسر بكان كبير في أحيان كثيرة ومن الاستحالة في أحيان أخرى ولكن برغم وفرة الالفاظ نلتقى في اللغة العربية بصعوبة بارزة فالنواحي المعنوية الفنية أو العملية تشح فيها الالفاظ حتى لتكاد تستحيل التفرقة بينها ٠ وبرغم ذلك فقد حرصت تماما وبقدر ما وسعني ذلك على المحافظة على روح النص ومعناه بل ومعناه أيضا وهو قصدته في هذه الترجمة فهي ليست ترجمة حرة أقدم بها النص على الصورة الميسرة التي قد يلجأ اليها المترجم أحيانا بل هي ترجمة مقيدة بروح الكاتب ملتزمة بأسلوبه بقدر الامكان ٠

هذا الى أن روسو نفسه يميزه عن غيره من الكتاب أسلوب خاص به ومفردات معينة ٠٠٠ فأسلوبه يتسم بصيغ فعلية يدأب على استعمالها أحيانا حين لا تدعو الضرورة الى ذلك ٠٠ وهو أسلوب تنعكس عليه في مظهر واضح العاطفة والحساسية المرهفة التي هي من خصائصه ككاتب ٠ كما أنه ينحو ناحية التعبير عن الماديات بالفاظ معنوية أحيانا لا تتفق مع المادية التي يتناولها في تعبيره عنها أو هو يسوق أحيانا صفات بعيدة كل البعد عن المنطق التحليلي للفكرة التي يقدمها وما تستلزمه من ألفاظ محدودة حتى نلتقى ببعض هذه الالفاظ

التي تبدو متعارضة مع بعضها لأول وهلة أو التي تقدم صفات لا يمكن أن تعطى صورة حقيقية - بمعناها اللفظي - لما يراد التعبير عنه . وقد حرصت برغم ترجمتي لهذه الإلفاظ على الصورة التي أوردها الكاتب على أن أنتقى أقربها مما يحقق ما يريد التعبير عنه بقدر الامكان .

وأرجو بذلك أن أكون وفقت لترجمة « أحلام يقظة جوال منفرد » على الوجه الذي يرضى روح الكاتب وأن أكون بذلك قد أضفت الى ( الترجمة العربية ) صفحة من الادب الفرنسى لم تسبق ترجمتها من قبل .

منذ أكثر من مائة وثمانين عاما كتب جان جاك روسو  
 Jean-Jacques Rousseau الجولة العاشرة من  
 « أحلام يقظة جوال منفرد » ولم يقدر له أن يكملها .  
 كان ذلك في الثاني عشر من ابريل من عام ١٧٧٨ .  
 في يوم « عيد الفصح المزهر » ٠٠٠ أى قبل وفاته بما  
 يقل عن ثلاثة شهور اذ أنه قضى في الثاني من شهر  
 يولييو من العام نفسه .

هذه الجولات اذن هي مؤلفه الاخير وآخر ماسجل من  
 خواطر وخلجات سجلها ابتداء من ربيع عام ١٧٧٦ .  
 كتب الاربعة الاولى منها في عامي ١٧٧٦ و ١٧٧٧ (١).  
 وكتب الاربعة التالية في عام ١٧٧٧  
 وكتب الجولتين الاخيرتين فيصا بين يناير ١٧٧٨ حتى  
 الثاني عشر من ابريل من العام نفسه .

(١) اختلف من تناولوا التعليق على حياة روسو في التحديد  
 الزمنى لكتابه هذه الجولات ولكنى ارى أن ما أورده M. Monglond  
 في كتابه Vies Prémantiques P. 30 برغم محاولة L. Courtois  
 Chronologie de Rousseau تصحيح بعض هذه التواريخ  
 يتفق وما أورده Henri Roddier في كتابه عن جان جاك روسو  
 ( وهو آخر ماظهر في هذا الصدد ) على الاقل من ناحية تاريخ البدء  
 في كتابة هذه الجولات وتاريخ الانتهاء منها .

وترجمة هذه الجولات والتعليق عليها من ناحية الظروف التي أحاطت بكتابتها ومن ناحية موضوعها ومغزاها ومن ناحية أهميتها كعمل أدبي هو ما أعرض له في هذا البحث .

لما كانت « أحلام يقظة جوال منفرد » *Les Rêveries du Promeneur* آخر ما كتب روسو في حياته تتصل اتصالا وثيقا بهذه الحياة وتبين عن مواحي نفسية الكاتب الكبير بما فيها من قوة وضعف ، من بساطة وتناقض ، هي خلاصة خمسة وستين عاما قضاها بين مد وجزر يتأرجح بين السعادة والشقاء ، يتنوق حلاوة الاستقرار حينما ويتشرد ضاربا في الأرض أحيانا كثيرة ، تسلط عليه أضواء الشهرة والمجد مرة وسياط الاضطهاد والاذلال مرات ، فقد وجدت لزاما على ، اذ أقدم للقارئ العربي هذا المؤلف مترجما الى اللغة العربية ، أن أستعرض معه مراحل صاحبها المختلفة بحلوها ومرها ، بما تخللها من أحداث شكلت ذاته وتركت انطباعاتها غائرة في نفسه عميقة الاثر وبما أنتج خلالها من كتابات هي وليدة تلك الانطباعات وتلك النفس .

### حياة روسو وأثرها في إنتاجه الأدبي

#### نشأته وطفولته :

أما طفولته فمريرة قاسية : منحته أمه الحياة ثم لقيت ربها بعد ذلك بثمانية أيام حتى أن روسو كان يقول فيما بعد « كان مولدى أولى تعاساتي » فكفله أبوه اسحق روسو Issac Rousseau وكان صانع ساعات فكان يرى في طفله صورة زوجه التي فقدها يذرف الدموع سخية كلما قبله وكلما ذكرها . ولما بلغ روسو السادسة أخذ أبوه يعوده القراءة فكانا يقرآن الروايات والقصص يصرقان الليل لجله في ذلك حتى شروق الشمس فينهض الأب خجلا من نفسه ويعتذر لابنه في استحياء بأنه « أشد منه طفولة » . كان لتلك القراءات غير المنتظمة ومن بينها قراءة بعض مؤلفات موليير *Solitaire* وتاريخ الأمبراطورية والكنيسة وحياة مشاهير الرجال لبلوتارك (1) *Plutarque* كان لها أثرها في اذكاء خيال روسو الطفل وبخاصة كتاب « بلوتارك » الذي تأثر به أيما تأثير وأورد ذكره في مستهل « الجولة الرابعة » اذ يقول « من بين الكتب القليلة التي لا تزال أقرأها

---

(1) بلوتارك مؤرخ يوناني قديم كتب عن حياة مشاهير الرجال وترجمت كتبه الى اللغة الفرنسية .



أحيانا كتاب « بلوتارك » الذى يشدنى اليه ويستغرقتنى أكثر من غيره لقد كان أول ما طالعت فى طفولتى وسيكون آخرها فى شيخوختى . وهكذا كان قلب روسو وعقله يتفتحان على عالم عظيم يجده فى ثنايا تلك الكتب العظيمة فى حين الصغار من سنه يمرحون ويلعبون . وكانت له عمة أيضا تحنو عليه تعنى به وتغنى له وكانت « ذات صوت عذب رخم » فكان لأنغامها الرقيقة الحنون وأثرها فى ارهاف حسه بل انه يقول : ان ذلك كان مبعث ولعه بالموسيقى فيما بعد . وهكذا شب روسو وقد تهيأت له عوامل تذكى خياله وتوقد حساسيته : قراءات وأنغام وحنان ، فظل طيلة حياته يبحث دون طائل بين الناس عن المثالية والفضائل العظيمة التى طالعتة فى « بلوتارك » ويفتقد حنانا دافئا تفتحت حواسه وقلبه عليه . .

ولكن كان الأب على شىء من الاستهتار بالمسئولية وعلى شىء من النزق فارتكب مخالفة جسيمة أن يسجن على أثرها فاضطر الى الهرب من جنيف Genève بعد أن عهد بالطفل الى خاله برنار Bernard وهكذا حرم الطفل المسكين أباه وأمه . ولكن ذلك الحاله ما لبث أن ضاق بروسو فعهد به وبابن له كان يناسب روسوسنا الى معلم يدعى لامبرسييه Lambercier وهو قسيس بروتستانتى يقيم بالريف فى قرية بوسى Bossey

قضى روسو فى كنف ذلك القس عامين يعدهما أسعد سنوات طفولته تعلم فيهما كيف يصلى لله ويمجده الى جانب مبادئ الدين التى ميزته فيما بعد عن فلاسفة القرن الثامن عشر الملحدون . . وفيهما أيضا استيقظ فى نفسه المرهفة حب الطبيعة الحلوة المنعزلة ذلك الحب الذى جعل منه « أكبر مصور للطبيعة عرفته فرنسا حتى نهاية القرن الثامن عشر » (١) فكتب فيها أجمل صفحاته وأخلدها لاسيما فى أحلام اليقظة Les Rêveries

وكان للقس أخت تخطت سن الثلاثين كانت تعنى بتهديبه وتعمد الى الضرب أحيانا ولكن روسو كان يجد فى عقابها على هذا النحو لذة فتعلق بها تعلقا لا يدرك هو نفسه له تفسير كما كتب فى الاعترافات Les Confessions بعد خمسين عاما من ذلك . أفكان يبحث فى شخصها عن الأمان وحنانها ولذة عقابها وقد حرم ذلك كله ؟ أم هى حواسه تفتحت واستيقظت قبل الأوان ؟

Louis Ducros : J. J. Rousseau , Avant-propos.

(١)

وعلى أية حال فان ذلك النوع الخيالى من الحب ، ذلك النوع غير المحدد منه ، هو الذى تخلل حياة روسو وكان له أثره فى علاقته مع النساء وفى كتاباته على السواء .

لكن لم يطل مقامه هناك بعد أن اتهم بكسر مشط للآنسة « لامبرسييه Melle Lambercier وكان ذلك نذيرا بتسركه للذار اذ أصر على الإنكار فاعتبر ذلك كذبا من ناحيته واضطر الى العودة الى خاله وكان ذلك مبدأ نحس طويل . . . ظل فترة دون عمل ولم يكن هناك من يهتم به ويرعاه . ثم أرسله خاله الى أحد الكتبة العموميين لكنه لم يفلح ، ثم وجهه الى حرفة النقش على المعادن ولكن معلمه كان قسيسا غليظ القلب بثت معاملته الفظة للطفل فى نفسه بعض الرذائل كالغش والكذب والسرقة ، كان يعاند ويغالى فيها كلما زادت تلك المعاملة سوءا . . . وفى ذلك الوقت أيضا أخذ يتجه من جديد نحو الكتب : الطيب منها والخبيث على السواء وينفق فى ذلك ما يحصل عليه من معلمه من نقود زهيدة كما كان يخرج للتنزه مع رفاق له خارج المدينة كان يعود منها متأخرا فيشبعه معلمه لظما ولكما . ولكنه لم يصبر على الضيم والمهانة وأخذ يتحين أول بادرة للخلاص . . . فما أن عاد يوما من الغابة ليجد أبواب المدينة وقد أوصدها الحراس حتى أقسم ألا يعود ، وقضى الليل خارج الاسوار . . . وفى الصباح قرر الفرار الى غير رجعة . . . وفى تلك اللحظة انتهت مرحلة من عدم الاستقرار . . . طابعها التشرذم والحرمان . . . حرم فيها الابوين وحياة الأسرة . . . وذاق من متاعب الفاقة والنحس ما ينوء به رجال أشداء . . . وهو لا يزال فتى طرى العود فى عامه السادس عشر . . .

ها هو ذا روسو وحيد فى بيءاء الحياة . . . أما خاله برنار Bernard فقد ارتاح لخلاصه منه وأما أبوه فقد شرع فى البحث عنه لكنه كف بعد قليل كرجل لا يهتم من الدنيا الا أمر نفسه .

أفمن الغريب بعهد أن قاسى الفتى ما قاسى أن يرتكب فيما بعهد ما ارتكب من هفوات حيننا ومن أخطاء جسيمة أحيانا . . . أو ليس ظلما أن نحاسبه عليها كما نحاسب من تهيأت له سبل الحياة وسارت به سهلة ميسورة فانحرف ؟ أيكون ذلك عدلا منا ازاء من ترك لنفسه فى تلك السن الباكرة بلا هاد ولا مرشد أمين يتيما فقيرا شريدا خاوى الوفاض الا من قلب ذكى وحس مرهف ؟

## شبابه :

ساقته قهماه عبر الريف الى قس يدعى دوبونفير De Pontverre فتلقاه مرحبا وأكرم وفادته ثم حدثه عن «الكاثوليكية» ودعاه الى اعتناقها مبينا مزاياها ومساوى البروتستانتية ، دين أهل جنيف ثم بعث به الى سيدة محسنة كانت قد تحولت هي الأخرى الى الديانة الكاثوليكية وأخذت على عاتقها « انقاذ بعض الارواح المخطئة »

تلك كانت مدام دو فواران Mme De warens التي خصها روسو بـ « الجولة العاشرة » من « أحلام اليقظة Les Rêveries والتي اعتبر روسو الإقامة في كنفها وبخاصة في « الشارميت Les Charmettes » أسعد فترة في حياته ، بل أيامه التي عاشها حقا .

ويعتبر ذلك اليوم الثاني عشر من ابريل من عام ١٧٢٨ . كما يذكر روسو في تلك الجولة « يوم عيد الفصح المزهري » نقطة البداية .. بداية كل شيء .. بداية الشباب وفورته .. بداية الآمال .. بداية الآلام .. أرى بداية تعلم الحياة ومعرفتها ..

ذهب إليها كما أوصاه دوبونفير De Pontverre متوقعا أن يلقي عجزوا متعصبة لكنه ذهل اذ أبصرت عيناه سيدة في الثامنة والعشرين ذات حسن وضاء وعينين زرقاوين جميلتين ولون باهر وعنق ساحر .. ذات ابتسامة ملائكية وفم صغير وشعر نادر نوع جماله .. وعندئذ اعتقد في يقين ان « دينا يدعو اليه مثل أولئك الرسل لا بد مؤد الى الجنة .. »

أما هو كما يسجل في « الاعترافات » فيما بعد فكان يومئذ في « منتصف السادسة عشر من عمرى ومن غير أن أكون شابا جميلا كنت منتظم القامة جميل القدم دقيق الساق حى الوجه صغير الفم فاحم لون الشعر صغير العينين غائرها ولكنهما كانتا شديدتى البريق تقدفان كل ما فى دمي من حرارة »

علق روسو بالسيدة منذ النظرة الأولى وارتاح اليها ورغب من صميم نفسه لو انه أقام لديها لكنها لم تتركه سوى أيام نصحته بعدها بالتوجه الى تورين بايطاليا Turin الى دير يجد فيه الملاذ .. فقصد الى هناك مزودا بنصح السيدة وبمبلغ يسير من المال .. ما لبث أن نفذ بعد قليل فدخل الدير ليفقد ثقته بالوعاظ ورجال الدين لما لقيه من غرائب تنفر منها النفوس فكرههم كرها نضحت به كتبه وخاصة « الاعترافات » Les Confessions « وأحلام اليقظة Les Rêveries » واعتبر الدير

سجناً لا بد من الإفلات منه وفعلاً انطلق منه ولم تتجاوز إقامته فيه شهراً واحداً بعد أن كفر بتعاليمه وبمن فيه .

خرج من الدير باحثاً عن مأوى وعن مورد يعيش منه . . فتدرج في ألوان من العمل منها الخدمة في المنازل ومنها خدمة سيدة إيطالية جميلة تدعى مدام بازيل Mme Basile سرعان ما أعجب بها وأحبها فلما أحسست منه ذلك صرفته ، وبعدئذ انتقل الى دار سيدة تدعى مدام دو فرسليس Madame De Vercellis وهناك أخفى شريطاً ألقى تهمة اخفائه على خادم تدعى ماريون Marion ، وهذه إحدى الحوادث التي ظلت تؤرقه طيلة حياته حتى ليذكرها في الصفحة الأولى من « الجولة الرابعة » اذ يسميها « الأكنوبة الشنعاء التي ارتكبتها في شبابي الباكر والتي ظلت ذكرها تكدر صفوى طوال حياتي . . » وكان من نتائجها أن طرد هو وتلك الخادم من تلك الدار . .

ومن بعدها التحق بخدمة الكونت دو جوفون Co mtre De Gouffon في مدينة تورين Turin مالبث أن غدا صديقاً لابنه وكاتب سره وساعده ذلك على اتقان اللغة الإيطالية وعلى اكتساب معلومات كثيرة نافعة . . وكان موضع الرعاية في تلك الدار فعادت اليه ثقته بنفسه حتى أنه أضحى يدرك أنه لم يخلق ليعخدم في المنازل . . فترك عمله به عائداً أدراجه الى آنسى Annecy بسويسرة فاستقلته مدام دو فواران في ود مرحلة فقرر قراره عندها تدعوه صغيرى ويدعوها « أمى Maman » يلاطفها ويحبها بل ويقدمها ولا غرو فقد أصبحت له أما وحبيبة على السواء . . وعوضته حناناً في أمه فقدته وحباً ملاً عليه فراغ شبابه وحسه .

عاش روسو مع « أمه » يتعلم الموسيقى وينهل المعرفة من الكتب من جديد . . ويراه قس هو قريب لمدام دو فواران فيبقى بأنه لا يصلح الا أن يكون « قساً في قرية » فترسله الى معهد ديني في البلدة ليخرج منه بعد قليل دون فائدة تذكر ثم تعهد به الى رئيس موسيقيي كاتدرائية البلدة ويدعى مسيو لومتر M. Lemaitre ولم يستفد منه كذلك وكأنما لم يقدر لروسو أن يتلقى العلم على معلم طوال حياته . . وحدث أن اختلف لومتر Lemaitre مع رجال الكاتدرائية فاضطر الى السفر . . الى باريس وصحبه روسو في سفره يعينه على نقل متاعه لكنه تخلى عن أستاذه في منتصف الطريق على أثر نوبة عصبية كانت تعاود الموسيقى نتيجة لأذمانه السكر . . ويعد روسو حادثة تركه له جريمته الثانية بعد حادثة سرقة الشريط ، أنبه ضميره طويلاً عليها . . وهكذا كان روسو

متضاربا في تصرفاته يأتي الخطأ ليعذبه بعد ذلك نفس ذلك الخطأ . . وهو يفسر ذلك بقوله : « يجتمع في شيئين متضادان أو يكادان ، لا أستطيع أن أعقل اجتماعهما : فاجساس شديد وعواطف قوية وشهوات متحركة تقابلها أفكار بطيئة التبين لا تظهر الا بعد زمن فكانما في قلب رجل وعقل رجل آخر » . ويعود بعد ذلك الى آنسى Annecy فلا يجد «مدام دوفواران» فيأخذ في التجول وسط الطبيعة مستغرقا في أحلام لا تنتهي . . ويتعرف بفتيات وبنساء لم يكن لهن أثر قوى في حياته .

ويهم روسو في الحياة طارقا أبوابها ، فقيرا خالي الجيب، فيعمل مترجما لقسيس ايطالي ثم سكرتيرا لأحد الشبان المشتغلين بالوظائف العسكرية ثم ناقلا للموسيقى . وأخيرا يعلم بمقام مدام دوفواران تشامبرى Chambéry فيعود اليها ملتقيا في الطريق بفلاحين بلغ بهم البؤس أقصاه ، أثقلتهم الضرائب وظلمهم نظام اجتماعي فاسد فتأثرت نفسه وقدر لهذا التأثير أن يجد متنفسا في كتاباته فيما بعد . .

عاد رسو « أمه » ليجد عندها كاود آنيت Claude Anet خادما وخليلا . . ومع ذلك فقد أقام عندها سنوات ، يموت أثناءها كلود آنيت ويصبح هو الصديق والمدربر لشئونها بعد أن وهبته نفسها ، « درعا له عما قد توقعه فيه سنه عندئذ في هاوية الشهوات » على نحو ما قال .

كان روسو في تلك الفترة سعيدا قرير العين . . وكانت حياته بالريف داعية لاستسلامه للطبيعة والاحلام وحب النباتات الى جانب سعيه في ميدان الموسيقى والعناية بدراستها . . ولعل الصفحات التي كتبها عنها هي من أبداع ماسطر خياله وقلبه معا فهي « جنته التي عاشها على الأرض » وكذلك في « الاعترافات » : هنا تجيء اللحظات السعيدة الهادئة التي تجعلني أقول انني حييت . . ايه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها . . الإ عودي فيعود معك الهناء . انسابي في ذاكرتي ان استطعت أكثر بطئا مما كنت في سرعة مرك . ما عساي أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ولأقول وأعيد الأشياء نفسها ولا يمل قارىء من اعادتها كما لا أمل أنا من استعادة ذكراها .

واستقر رأيهما بعد ذلك على الاعتزال في الريف فأقاما في الشارميت les Charmettes في ربوع الطبيعة التي أحبها ينهل من محاسنها فتغذى خياله واحساسه ، يجنى الزهور ويرتاد الغابات والوديان كما يقرأ في الفلك والنجوم والطب والفلسفة .

لكن انغمسه في تلك السعادة لم يمنع عنه زائرا بغيا . . وهو

المرض ٠٠ وهو لما يزل في الخامسة والعشرين انتابته بعض العلل الحقيقية وبعض الآخر توهم أنه مصاب به ، كمرض القلب ، فسافر للعلاج ٠٠ وتقابل في الطريق بـمدمام « دولارناج » Madame De Larnage وهي سيدة فاتنة عظمت عليه فأصاب عطفها القلب فهام بها حبا وقال فيها « لولا مدام دولارناج لمت من غير أن أعرف الملمات » مما أنساه مرض القلب فكر راجعا بعد أن نسي حبه أو تناساه ، وهكذا حال الفنانين لا يثبت لهم حال ولا يقر لهم قرار ٠٠ عاد ليرى مدام دوفواران وقد استبدلته برفيق آخر وتقابل به ببيروود وجفاء لكنه بقي حتى لقي من الأغضاء عنه والامتعاض ما نفذ معه صبره فسافر مزودا بتوصية منها الى ليون Lyon بفرنسا حيث عمل مربيا ثم استقال ليعود الى السيدة ليحدها وقد تدهورت حالتها المالية وتراكت عليها الديون . ففكر في مشروع جديد يعبر فيه عن السلم الموسيقى بالأرقام لعله بذلك ينال مالا يعين به «أمه» ثم سافر الى باريس حتى يعرضه على الأكاديمية هناك .

### روسو في باريس :

كان في التاسعة والعشرين عندما قدم باريس مزودا بخطابات توصية الى جماعة من كبرائها ولم يكن يملك سوى خمسة عشر جنيتها واقتراحه بشأن رقم الموسيقى ورواية مسرحية سماها نارسييس Narcisse ٠٠٠ فشل مشروع الموسيقى بعد أن فحصته لجنة من أكاديمية الفنون ٠٠ لم يدر عليه مالا ولكنه جعله يتعرف الى عدد من رجال الادب المشهورين مثل ماريفو Marivaux وديدرو Diderot وفونتنيل Fontenelle ثم عرف طريقه الى نساء المجتمع لعله ينجح عن طريقهن كما أوصاه البعض فتعرف على مدام دوبين Mme Dupin التي كتب باسمها رواية موسيقية أسماها عرائس الشعر الرقيقات Les Muses Galantes ثم شق طريقه بوساطة صديقاتها الى العمل بالبندقية في سكرتيرية القنصلية هناك ولكن لم يرق له العمل فعاد الى باريس ليلتقي في نزل بامرأة جديدة هي « تريز لوفاسير Thérèse Levasseur » التي شاء سوء طالعها أن تعاشه وترزق منه بأطفال ، في بعض الآراء ٠٠ كانت تمتهن تنظيف الملابس وغسلها وكانت أمها تاجرة صغيرة في أورليان Orléans وكانت لها بساطة أهل الريف وسذاجتهم ٠٠ ومن عجب أن جان جاك روسو وجد فيها من تكمله وهي التي قال عنها « ولست أخجل حين اعترف أنها لم تحسن أبدا القراءة وان كانت تكتب كتابة مقبولة ٠٠ ولما أقمت في شارع ( ٠٠ ) كان مقابل نوافذى ساعة كبيرة جهدت أكثر من شهر لأعلمها

فيها معرفة الوقت وهي الآن لا تكاد تعرفه .. وما استطاعت يوما أن تفهم نظام الاثنى عشر شهرا السنوية .. وهي لا تعرف رقما واحدا برغم الجهود التي أنفقت لفهامها الأرقام .. فلا تعرف عن النقد ولا ثمن شيء ما .. والكلمة التي تنطق بها هي في أغلب الأمر عكس ما تريد أن تقوله على أنها برغم مبلغها هذا من القباء بل ومن البلادة ، اذا شاء القارئ، فلها نصائح ثمينة في أخرج الاوقات .. »

تلك هي المخلوقة التي شاء القدر أن يضعها في طريق روسو لتعاشره ما بقي من حياته وليعزى اليها أنها هي التي ساقته الى ما بلغه من اضطراب نفسى وذهنى وأنه لولاها لما بلغت حاله تلك من السوء ما بلغت .. وكانت أمها تستغل علاقتها بروسو فلا تكاد تحس بالمال بين يديه حتى تغير على البيت مع أخوتها وبناتها وأبائها وحفدتها لتستنفد رزقه الضئيل .. وقد رزقت تريمز بخمسة من الابناء ألقى بهم في ملجأ اللقطاء ، واعتذر روسو عن جريمته بمعاذير شتى منها . أنه كان يخشى أن ينشأوا في كنف أم هي تريمز ، وبين عائلة هي عائلتها فتساء تربيتهم وذلك لعجزه عن القيام على تربيتهم بنفسه ، كما دافع عن نفسه في « الجولة التاسعة » من « أحلام اليقظة » ، اذ يسرد مثلا ما فعله محمد مع سعيد ولكننا لا نعرف من هو سعيد هذا ولم يرد في السيرة النبوية ما ينسب بآن محمدا صلى الله عليه وسلم حرص شخصا يدعى سعيدا على اتيان ما يخالف الشريعة والأخلاق .. لكن محمدا ظلمه الكتاب المتعصبون فكتبوا عنه مفترين ويبدو أن روسو الذي استقى كل معلوماته عن طريق القراءة السريعة بلا تمحيص ولا سعى وراء حقيقة .. يبدو أنه ساق المثل ، قادتته اليه أباطيل واقتراءات ، محمد الرسول منها براء .

ومهما كان من أمر روسو ومن دفاعه عن نفسه في « الجولة التاسعة » وفي غير « أحلام اليقظة » كذلك فإن ذكره أمر أطفاله واهماله الشنيع لهم وهو على شفا الموت يستعد لملاقاة ربه كان بلا ريب صادرا عن أسف عميق وندم واحساس بالجرم أليم ..

ولكن المؤرخين والنقاد لم يعفوه رغم ذلك .. بل ذهب البعض الى القول بأنه كان كاذبا لأنه كان مريضا باحتباس في المثانة ومن ثم فان مرضه أعقمه فهو لم يتورط في هذه الجريمة ولم يرزق بأطفال .. وانما ألجأه للكذب شدة ميله للنساء اللواتي ان عرفن عنه العقم انفضضن من حوله .. وقال آخرون انه لم يشر في « الاشتراقات » ولا في « أحلام اليقظة » الى أنه رأى أبناءه . وانما قال ان أم تريمز هي التي كانت تخبره بحمل ابنتها

وتأخذ على عاتقها ايداع الطفل في « ملجأ اللقطاء » ٠٠ ويعزز هذا القول أن واحدة ممن اتصلن بتريز لم تشر مرة الى حملها وانما كن يعلمن بأبناء روسو منه نفسه وليس من طريق آخر ٠٠ والرأى الثالث هو أن تريز حملت فعلا ولكن ليس من روسو ومن ثم فحريمته أقل نكرا ٠٠ ومهما يكن من أمر فان روسو نفسه يكاد يكون لقيطا ٠٠ لم يعرف أمه ٠٠ ولم يستظل بعطف أبيه فهو يتيم مشرد في طفولته ٠٠ لم يحس بعاطفة أبويه ٠٠ فلئن صح أنه كان أبا فليس بعجيب أن يودع أبناءه « ملجأ اللقطاء » لأنه نفسه لم يتنوق طعام « البيت » ٠٠ كما أنه يشير الى أنه كان يلقي شبانا في مطعم الأوبرا فيفخر الواحد منهم بأنه « أكثر من غيره الهاما في تعبير « ملجأ اللقطاء » ٠٠ وكان هؤلاء الشبان موضع الاعجاب . فقلت فى نفسى : ما دامت تلك عادة البلاد فقى وسع الانسان اتباعها ما دام يعيش فيها ٠٠ وكذلك اخترت هذه الطريقة وصممت على تنفيذها بلا اكترات ومن غير أن يعرفونى هم » .

ولكن من عجب أن حياة روسو انتظمت نوعا ما فى قرب تريز فاستسلم للعمل المجدى ٠٠ وأنتج أعماله الأدبية جميعا .

تعرف روسو بعد ذلك الى مدام دابنای Mme D'Epinaى وكانت موسيقية قادرة . . وسهل له ذلك التعرف بدمام دودتو Mme D'Houdetot

كانت صلات روسو بهذه الطبقة الجديدة أمرا ذا أثر ملحوظ فى حياته ٠٠ كان الأدب الدينى قوام أمهات الكتب فى ذلك العصر وكانت الاشادة بالكثلكة هدفه وكان الملك رمزا للتدين وكان هم الشعراء والكتاب امتداحه والزلفى له ٠٠ ولكن لم يكد يمضى عصر الملك لويس الرابع عشر حتى دب الفساد فى البلاد بعد أن أزهقها الترف وداخل الكنيسة الضعف ٠٠ وجاء القرن الثامن عشر فى أعقاب هذه المرحلة معاديا للدين قاتلا لكل العقائد السابقة نائرا ضدسلطة الفرد . . غير أن البناء الاجتماعى لم ينله الانهيار فظلت « الصالونات » كما هى بل اتسعت دائرتها بعد أن انفض عن البلاط من كانوا يقفون عند بواباته ٠٠ وذهب روسو البروتستانتى الأصل الكاثوليكي القلب المتوقد الخيال الميال للوحدة العاشق للطبيعة البكر العاجز عن الظهور فى المجتمعات المصاب بالآفات والعلل وصل ليجد من حسن الاستقبال ما أذهب عن نفسه بعضا مما كان بها من اليأس وفتح أمامه متنفسا من الأمل فى الحياة ٠٠ وكانت صلته « بديدرو Diderot قد توطدت فاتفق معه على نشر صحيفة هى « الساخر Le persifleur » لم يظهر منها سوى العدد الأول اذ سجن ديدرو بعدها على أثر كتابه فى



« الآثار الفلسفية » وكان روسو يتردد عليه سيراً على الأقدام .. لأنه لم يكن يملك أجر العربة .. وهو يطالع دائماً فى كتاب ..

وبينما كان ذات يوم ذاهباً لزيارة صديقه .. فتح جريدة « مريكير دو فرانس » Mercure De France وهو مستند الى شجرة يستريح وإذا بنظره يقع على سؤال جاء بالصحيفة طرحه مجمع ديجون L'Académie de Dijon ومؤداه هل ساعدت العلوم والفنون على تطهير العادات Discours sur les Science et les Arts وانفعل روسو أشد الانفعال وعول على نشر رأيه وعضده فى ذلك ديدرو .. فأدلى رسو بدلوه ونال الجائزة فى يوليو عام ١٧٥٠ .

ويقول روسو بعدئذ فى اعترافاته « ولكن ذلك كان سبب ضياعى طوال حياتى وكان سبب تعاستى » .. وذلك لأنه قضى حياته بعد ذلك يبحث عن الحرية والفضيلة والحق .

كان ذلك أول فوز لروسو فى حياته .. وأول خطوة له نحو المجد .. ذلك المجد الذى وافاه - كالتقدير - على غير موعد - ودون أن يدبر له .. بعد أن بلغ الثامنة والثلاثين .

كان رد روسو يتضمن الطعن فى المجتمع المدنى والمناذاة بالرجوع الى الحالة الطبيعية واعتبار العلوم والفنون مصائب وأهوالاً انصبت على رأس الانسانية، بل انها تقتل فراغ الرجال وتعودهم البطالة وهى المسئولة وحدها عن الانخراط والفساد . والواقع أن هنذاً أمر طبيعى بالنسبة لروسو ، فالعلوم والفنون اثر من آثار المجتمع الذى لم يلق روسو فيه تجاحاً ، والفنون مصدر ثراء لبعض الناس وهو لم يلق منها سوى النحس والتعاسة . وقد نقد كثير من المفكرين مقاله ومنهم فولتير سنة ١٧٥١ فأجابه روسو على نقده .

وحتى يكون روسو منطقياً مع نفسه أدخل تعديلاً على طريقة عيشه وملبسه .. فعمد الى البساطة وتخلي عن كل زينة .. وانصرف الى التقشف .. وهو يشير الى ذلك فى « أحلام اليقظة » فى « الجولة الثالثة » : « هجرت الحياة الدنيا بمفاتها وزهدت كل زخرف فلم يعد لى سيف ولا ساعة ولا جوارب بيضاء ولا حلئ ذهبية ولا زينة شعر بل شعر مستعار بسيط جداً ورداء سميك من الصوف .. بل - وخيراً من هذا كله - نزعتم من قلبى كل اشتهاى لجمع المال وكل مطمع فى كل ماله قيمة ثم هجرت الوظيفة التى كنت أشغلها اذ ذاك والتى لم أكن خليقاً بها البتة وانصرفت الى نسخ الموسيقى نظيراً أجر معين للصفحة الواحدة وهو عمل كنت شديد الميل اليه دائماً »

ثم ألف بعد ذلك أوبرا عراف القسرية *Le Devin du Village* مثلت أمام الملك ورضى عنها فطلب مقابلة روسو لكنه أبى مؤثرا. حرثته ومبادئه .. وهى لمحة أخرى من لمحات تلك الطباع الأبية العزيزة الزاهدة .. ثم مثلت رواية « ناوليسيس Narcisse ففشلت كل الفشل .

وفيما هو يتأرجح بين الفشل والنجاح أعلن مجمع ديجون *ersifleur de Dijon* عام 1754 سؤالا لمسابقة موضوعها « أسباب عدم المساواة بين الناس » *Discours sur l'inégalité parmi les hommes* - فكتب روسو وكانت كتابته هذه المرة أقوى وأبلغ : ومع ذلك فلم ينل عنها الجائزة .. صاح روسو صيحة مدوية فى وجه الملكية الفردية .. ودعا الفقراء الى التمرد على النظام الاقطاعى .. قال: « ان الحرية لا تكون مع عدم المساواة فمن عدم المساواة تنشأ الثروة والثروة تولد الترف والفراغ والترف أصل وجود الفنون ، والفراغ أصل وجود العلوم . واذا كان التخلف الحضازى يدرأ هذا الظلم فلنعدد اليه راضين .. » - وكانت تلك جراحة نادرة وشجاعة تستحق الاعجاب من جانب روسو .. وهذا المقال يعالج مشكلة سياسية واجتماعية معاصرة .. مشكلة الانسان فى السعادة والشقاء .. فجاء عملا أدبيا رائعا اهتزت له أفكار القرن الثامن عشر .. وجاءت الثورة الفرنسية لتقدسه فقد كان مبشرا ونذيرا وداعيا الى الأسس التى قامت عليها .. وسراجا منيرا .

وفكر بعدئذ فى أن يزور وطنه جنيف *Genève* ومهد صباه .. فسافر تصحبه « تيريز » وعرج فى طريقه على « مدام دوفواران » وكانت تتجزع حينئذ كأس الفاقة والشقاء .. فترك لها بعض ما معه من نقود .. ثم دخل جنيف محتفى به مستقبلا أجمل استقبال .. خرج منها يتيما .. شريدا .. كسير الخاطر .. ليعود ترمقه العيون فى اكبار . بعد أن غدا عبقريا طبقت شهرته الآفاق .

لبث روسو بجنيف أربعة أشهر يتمتع العين بالماء والخضرة .. ثم غادرها الى باريس فى خريف عام 1754 راضيا عن مقامه فيها .. وشتان بين مغادرته إياها هذه وبين المرة الأولى .. تركها وفى قلبه حنين الى العزلة الهادئة .. الى الجمال الحق .. الى الطبيعة البديعة مرتع صصياه وملهمة يراعه لذلك ما أن عرضت عليه مدام دابنای *Madame D'Epina y* المقام فى الأرميتاج *L'Ermitage* على مقربة من قصرها ومن غابة موغرنسى *Mont Morency* حتى قبل متلهفا سعيدا .. فترك باريس مرة أخرى فى ابريل عام 1756 ولم يقدر له دخولها بعدئذ الا فى أواخر أيامه .

## الكهولة :

وإذا كانت الأعوام التي قضاها روسو في « الشارميت » مرحلة دراسة وتحصيل فإن السنين التي قضاها في مونرنسي ستكون مرحلة تعبير وإنتاج غزير . عاش في صومعته راضيا قرير العين بنسخ الموسيقى لأنها مورد رزقه ويهرع إلى الغابة فتحنو عليه الطبيعة . . الأم . . التي تعطى ولا تأخذ . . الطبيعة التي تجرى دائما وأبدا على لسان عاشقها روسو . . الطبيعة التي تهدى المؤمن . . وتلهم الفنان . . وكذلك ألهته روايته الطويلة الخالدة « هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse » ، وقد بلغ الخامسة والأربعين ، ولا عجب فقد عاش روسو معاش يقلب شباب وعواطف متقدة . . كانت الطبيعة بسحرها وخيالاتها ملهمته . . ولكن كانت هناك أيضا مدام دودتو Mme d'Houdetot زوج أخ مدام دابنای وصديقة سان لامبير الشاعر Saint-Lambert صديق روسو الحميم . . تعلق بها تعلقا بلغ حد الهيام . . تعلقا عذريا ظاهرا . . ولكنه أوغر صدر مدام دابنای غيرة وحقدا . . فسعت للوقيعة . . وكانت صديقة « الجريم » Grimim وديدرو Diderot فتألم عليه الجميع واضطهدوه . . وانتهى به الأمر إلى الخروج من صومعته بعد أن طردته منه مضيفته في خطاب شديد اللهجة . . خاصة بعد أن رفض روسو السفر معها إلى سويسرا لزيارة الطبيب ترونشان Tronchin واستشارته . فشهرت به وناصرها في ذلك جريم وديدرو فأصبح روسو يعتقد اعتقادا راسخا في اضطهاد أصحابه جميعا له ورغبتهم في إلحاق الشر به .

خرج روسو اذن من صومعته على أسوأ حال بعد أن كان يحلم بالإقامة فيها ، يتخيل في عزلته ، وينصرف إلى التأليف . وكاننا أفاق مذعورا من حلمه فيرى فيمن حوله عصبية تتأمر على راحته وسمعته مستهدفة القضاء على صحته وحياته . . خرج منها وقد كفر مرة أخرى بالناس وبأصدقائه وبخاصة جريم وديدرو . . وأضحى شعوره بالاضطهاد يلزمه وينغص عليه حياته بل ويتفاقم كلما زادت الصدمات والمصائب مرة واحدة . . وما أكثرها في حياة روسو المسكين ، ومع ذلك فإن تلك الفترة كما قلنا كانت فترة إنتاج أدبي غزير كتب فيها قسما من هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse وآخر من العقد الاجتماعي Le Contrat Social

وأما هلويز الجديدة فهي في ذاتها « حلم بقطة » طويل . . رائع . . قوامه الحب العذري والطبيعة ، رسم روسو فيها الإحاسيس والمشاعر بدقة وحرارة فائقتين . فهي اعتراف وحلم وتعبير عن حياته الداخلية كما أن

فيها فلسفة لحب الله على طريقة روسو . . وكان روسو وفيما لوطنه فجعل  
جوها بحيرة جنيف فهي من أجمل بحيرات العالم في نظره فعرف روسو  
الناس بسويسرا وربوعها وكان من أثر كتابته تلك أن وقد السواح  
من كل صوب على سويسرا ينهلون من مفاتهاها ويجتلون الطبيعة التي  
مجدها روسو فيها . . ومن أجلها أيضا استحق روسو لقب الرائد الأول  
للعصر الرومانتيكي .

وكانت علاقة روسو بفولتير Voltaire حتى ذلك العهد طيبة ولكنها  
ساعت بسبب ما كتبه الفيلسوف دالمبير D'Alembert بايعاز من فولتير في  
الانسيكلويديا عن وجوب بناء مسرح جنيف اذ تصور روسو أن فولتير يريد  
اتعاس وطنه جنيف وافساده فكتب رسالة الى دالمبير Lettre à D'Alembert  
معددا مساوئ المسرح مدلا على عدم حاجة جنيف اليه منددا بمسرحيات  
موليير Molière ، وهو أعظم كوميدى في القرن السابع عشر ، فهي  
مدرسة للذائل والعادات السيئة اذ لا تعتمد الا على المكر والحيلة . .  
ولكن فولتير غضب من تلك الرسالة فكانت القطيعة بينه وبين روسو . . تلك  
القطيعة التي ظلت قائمة حتى الموت .

وهكذا كان اعداء روسو وحساده يتزايدون كل يوم . وفي تلك الاثناء  
كان روسو قد انتهى من كتابه «هلويز الجديدة» في شتاء ١٧٩٨ وبعث  
به الى الناشر في امستردام فعرض عليه هذا وظيفة محرر في جريدة  
العلماء فرفض بقوله « لقد كنت أعلم أن امتيازي في الكتابة راجع الى حرارة  
في النفس تحسن ما أعالجه من المواضيع وانه حب العظيم والحق والجميل  
هو الذي يحرك عبقريتي . . لكنهم ظنوا أنني أستطيع الكتابة بالحرفة كما  
يكتب سواى من الادباء . . والحق أنني ما كتبت الا تحت دافع شهوة  
الكتابة والفكرة » .

وفي ربيع ١٧٥٩ سكن في القصر الصغير الملحق بقصر الدوقة  
دو لوكسمبرج Duchesse de Luxembourg في طرف الغابة بناء على الحاجها  
وساعدته الإقامة هناك على الاتصال بالمارشال زوجها وبجميع اصحابهم  
وأصدقائهم من الكبراء وأكسبه هذا الاتصال هناء داخليا كان منبته المتواضع  
يكبره في عينه .

وأما ثالث انتاجه في تلك الفترة فهو كتاب Emile انتهى  
منه وأودعه المطبعة ثم سقط مريضا في خريف عام ١٧٦١ وكان شديد  
القلق على مصير ذلك الكتاب يخشى أن يتلفه أعداؤه وكانما كان يستطلع  
الغيب .

وصدر بعد ذلك كتابه «العقد الاجتماعي» Le Contrat Social وكان قد بدأ كتابته منذ خمسة عشر عاما ٠٠ وإذا كانت هنوز الجديدة هي حلم الفرد في الحب والسعادة فان العقد الاجتماعي كان حلم المواطنين جميعا في العدالة والسعادة ٠٠ يقول فيه : « ان ثمة عقدا بين أعضاء المجتمع هو للعقد الاجتماعي ، وقد ولد الانسان حرا وهو مع ذلك يرسف في القيود في كل مكان ، فلا بد للشعوب من رفض الاذلال ، فليس لرجل من سلطان على آخر بالقوة فالقوة ليست حقا، واذا استغنى الانسان عن حريته فانه بذلك يستغنى عن صفته كاتسان فيضيع حقوقه وواجباته ، والسلطة التي تنبعث عن حب الشعوب هي أعظم سلطة » .

ويعرج روسو على الدين فيقف في وجه النظريات المسيحية جمعا يناسب الكنيسة العداء قائلا : ان الناس كانوا سعداء متساوين قبل حلول الاديان ٠٠ وأما الديانة الحقبة فهي التي بين الخالق والمخلوق وعنها يخدم الاخير الاخلاق ويخدم الوطن ٠٠

كان روسو جريئا ثوريا في كتابته وهو وان كان في ذهنه اذ ذاك أن يكتب من أجل جنيف وحكومة جنيف إلا أنها صادفت فترة في فرنسا طابعها الاستبداد والمظالم وكانت حرية الكتابة معدومة، لذلك اهتزت جنبات القرن الثامن عشر وارتعدت حين نهض ذلك الكاتب الجريء مطالبا بالحرية متعرضا للحكم وللكنيسة وكان ذلك الكتاب ضمن ما مهد لثورة فرنسا عام ١٧٨٩ من أمور ٠ قال فيه ميرابو (١) Mirabeau « لقد علم روسو المبادئ النظيفة في الحرية » .

أما كتاب « اميل » Emile أو « أنجيل المعلمين » كما سماه الشاعر الالمانى الكبير « جوته » Goethe فهو حلم الكاتب في تربية سليمة مثالية للطفولة ٠٠ ويعتبره بعض النقاد تكفيرا عن الجريمة التي ارتكبها روسو في حق أطفاله ٠٠ وسخر منه آخرون مستنكرين من روسو أن يعلم ويهذب ويكتب في التربية وهو الذى لم يحظ من كل ذلك بشيء وهو الذى أهمل أطفاله فأودعهم في قسوة « ملجأ اللقطاء » .

وأيا كان الجواب فان الانسان كثيرا ما يستفيد من الاخطاء التي ارتكبها في حياته والا فما فائدة العقل والضمير اذن ؟ والكتاب في خمسة أجزاء يتتبع فيها الطفل من ساعة ولادته حتى زواجه ٠٠ ويعنى في شتى المراحل من حياته بوضع أسس طبيعية يهتدى بها المربون ٠٠ ولعله بقوله

في مستهل الكتاب الاول منه « ان كل شيء يخرج خيرا من يدى مبدع الاشياء ولكنه يفسر ويشوه بين يدى الانسان » لعله بقوله هذا يلخص طريقته تلك في التربية . . تلك الطريقة التي تعتمد على العودة الى الطبيعة والبساطة والفضيلة . .

ولم يكن روسو أول من كتب في التربية فقد سبقه من قبل مونتاني Montaigne وفنلون Fenelon الذي كتب في تربية الفتيات ، ذلك في القرن السابع عشر وأما الجديد هنا في كتاب روسو الأمر الذى ألب عليه الحكام ورجال الدين وكان كما يقال « القشة التي قصمت ظهر البعير » فهو ما كتبه فيه عن الناحية الدينية في تربية الطفل اذ ألحق بالكتاب جزءا هو « اشهار عقيدة كاهن من سفوا » تناول فيه معجزات الرسل بأسلوب مشكك ، وكذلك « مسألة الاديان الثلاثة » ومسئولية البشر جميعا في الأخذ بواحد منها دون الآخر . .

طبع الكتاب في هولنده في شهر يونيه ١٧٦٢ وظن الكاتب بذلك أنه بلغ هدفه . . ولكن نائبا بالبرلمان صرح بأن الكتاب خطر وأنه لا فائدة من احراق الكتب وانما يجب أن يحرق مؤلفوها . . قلم يكثرث روسوفى مبدأ الأمراد ظن أنه في حماية الدوق دو لو كسمبرج Duc De Luxembourg ولكن صديقا معجبا هو البرنس دو كونتى P rince de Conti حذره بعد ذلك بأن من الجائز اصدار قرار بالقبض عليه ومحاكمته .

وقعلا أوقظ من نومه في ليلة ٩ من يونيو ليتمكن من الهرب اذ كان القرار قد صدر في اليوم نفسه وأصدرت حكومة جنيف أمرا مماثلا في ١٨ من يونيو ١٧٦٢ وصادرت السربون La Sorbonne الكتاب وطعن فيه رئيس كهنة باريس وطعنه قرار من البابا وقضى عليه بأمر صادر من حكومة هولنده . . كل ذلك بحجة « نشر آراء تخالف العقيدة المحترمة في المملكة » وساعد عليه وضع اسمه على الكتاب الذى نشر تلك الافكار فيه ولو أنه لم يضع اسمه عليه لما مسه أحد بسوء ولا تعرض له القانون .

### هربه :

ركب روسو حتى الحدود وتغافل عنه الجنود الذين بعث بهم للقبض عليه ومر بباريس ونزل من عربته بعد أن عبر الحدود ثم قبل تربة بلاده سويسرة بعد غيبة عشرين عاما في فرنسا دخلها شريدا يسعى وراء العيش وخرج منها طريدا بعد أن بلغ قمة الشهرة وأجيز عليها . . . وحسب أنه عاد الى وطن الحرية ولكن وطن الحرية نبذه بل وأصدد أمره بحرق

« اميل » لانه ضد الدين وكذلك اتلاف « العقد الاجتماعي » لانه ضد الحكم  
 . . فلم يكن الوطن أبر به من فرنسا . . وطلب اليه الرحيل عن البلاد  
 . فسافر الى جبال انجورا Jura وكتب يناقش الكتلثة وينقد البروتستانتية  
 ومن بين كتبه ما سماه « رسائل من الجبل » Lettres de la Montagne كان  
 ذلك في موتيه ترافير Motiers-Traversers بعد طلب الحماية من فردريك  
 الثانى Frédéric II وكان الفضل فى ذلك يرجع الى صديق لروسو  
 يعرف باسم ميلور مارشال Milord Maréchal وكان من أشد المعجبين  
 بروسو وأكثرهم تفاعيا فى عونه . . وافق فردريك الثانى على ايواء روسو  
 كلاجيء اضهدته حكومة لويس الخامس عشر Louis XV ولو أنه لم يكن  
 يتفق معه فى أفكاره بل على العكس كان الملك من المعجبين بفولتير Voltaire  
 تقيض روسو فى كل شئ . . وأراد ملك بروسيا أن يتعهد روسو بعدم  
 العودة الى الكتابة . . لكن هذا أبى فى أنفة وعزة نفس ، إنما وعد فقط  
 باخترا م « القوانين والملك والنبلاء وكل ما تمليه عليه واجبات الضيافة »  
 ولكن قدر روسو كان له بالمرصاد فعلى أثر مشادة له مع الراهب  
 مونمولين Montmollin هجم الفلاحون المتعصبون على بيته فرجموه بالحجارة  
 فهرب الى جزيرة « سان بيير Saint-Pierre » فى قلب البحيرة من أراضي  
 سويسرة وذلك سنة ١٧٦٥ . . وكان المقام فى هذه الجزيرة ملهما للجولة  
 الخامسة من « أحلام يتفئة جوان منغزن » فقد قال فى مستهلها : « لم تكن  
 هناك من بين الديار التى أقيمت فيها - وكانت لى من بينها ديار بديعة -  
 واحدة أسعدتنى حقا وخلفت فى نفسى تلك الحسرات المرهفة سوى جزيرة  
 سان بيير « Saint-Pierre » انه لم يسمح لى قط بأن أقضى سوى شهرين  
 فى تلك الجزيرة وكنت أستطيع أن أقضى بها عامين بل قرنين بل والى  
 الأبد دون أن ينال منى السأم لحظة واحدة . . »

حقا فان روسو المسكين الذى كتب عليه التشرد والملاحقة وعدم  
 الاستقرار ، صدر ضده من مجلس شيوخ جمهورية برن Berne  
 مرسوم طرده من تلك الجزيرة الساحرة التى ود لو ترك فيها بقية العمر  
 . . كان ذلك فى شهر أكتوبر عام ١٧٦٥ . . ولم يقدر له أن يرى ثانية  
 وطنه الجاحد منذ ذلك التاريخ . .

توجه روسو بعد ذلك الى ستراسبورج Strassbourg ووصل باريس  
 فى ١٦ من ديسمبر من العام نفسه ليملك فيها أياما قليلة ضاق فيها  
 بفضول الباريسيين الذين كانوا يحضرون ليشاهدوا الطريد المشهور  
 فغادرها فى أوائل يناير عام ١٧٦٦ الى انجلترا حيث استضافه الفيلسوف  
 الانجليزى دافيد هيوم David Hume ولحقت به تريز وكتبه . . أعجبه

المقام فى بادئ الامر فلبث فيه ثلاثة عشر شهرا يستعشب وينسخ الموسيقى ٠٠ ويكتب ذكرياته ٠٠ وهى سجل حياته « الاعترافات » Les Confession يصور فيها مآسى حياته الكثيرة وأفراحها القليلة ويكشف عن نفسه لا يخفى عيبا ولا ضعفا بل يسردها جميعا فى جراءة وشجاعة مذهلتين ٠

ولكن روسو ما لبث - بما جبلت عليه طبيعته من عدم استقرار - أن مل طبيعة إنجلترا ٠٠ تدفع بالكآبة الى نفسه بسماؤها يحجبها الضباب ٠٠ وبردها وأشجارها العارية ٠٠ اللهم الا بعض زهور البنفسج ٠٠ كما ذكر ذلك لصديق له فى شهر مايو ٠٠

كما أنه ما لبث أن اختصم مع هيوم Hume صديقه ومضيفه ولا عجب ، فقد ظل دائما فى خصام مع الفلاسفة ، ثم غادر إنجلترا عائدا الى فرنسا وانتحل اسما مستعارا ، وظل شريدا مدى ثلاث سنوات تارة ضيفا على أصدقائه وتارة فى عزلة ٠٠ وعقد فى تلك الأثناء على تيريز أمام شاهدين مصححا علاقته بها ٠٠ فكافأ تلك التى تشردت بتشرده ٠٠ وقاسمته الحياة والمصير مريرا قاسيا ٠٠ ويعود ذلك الزواج أول زواج مدنى فى فرنسا ، وكان ذلك بعد خمسة وعشرين عاما من تعرفه بها ٠٠

### العودة الى باريس :

وبعد أن هذه الترحال ٠٠ عاد الى باريس عام ١٧٧٠ ليقطن فى شارع بلاتريير Platrière الذى حمل اسمه منذ ذلك الحين ٠٠

بلغ روسو ذروة التعاسة ٠٠ ولا عجب فقد توالى الضربات على أم رأسه بلا هوادة ولا رحمة ٠٠ فغدا يظن العالم غاصا بأعدائه ، يحكون له المؤامرات ويدبرون الخطط للقضاء عليه ٠٠ وأحس بالظلم الفادح عليه وبرغبته فى الدفاع عن نفسه فما أن انتهى من كتابه « الاعترافات » حتى أخذ ينتقل من بيت الى بيت ومن صالون الى صالون ٠٠ يقرأها على مجموعات قليلة من الناس لعله يكذب ما يشاع عنه وليستدر عطف من يستمعون اليه ٠٠ ولكنه لم يلق آذانا صاغية بل حرمت عليه القراءة فقد كان صريحا جريئا فى « اعترافاته » فذكر ضمن ما ذكر أسماء الناس وبخاصة السيدات اللواتى كانت له معهن حادثات ٠٠ فخاب أمله وزاد عذابه ٠٠ واعتزل الناس فى يأس ٠٠ ينسخ الموسيقى ٠٠ ويهتم بالنبات ٠٠

ولكنه مع ذلك لم يكف عن التفكير فى الحال التى انتهى اليها ٠٠



وفى الناس وكيف ان « الاعترافات » التى قال فى أولها « .. لقد صورت  
نفسى على حقيقتها : فى ضعتها وزرايتها .. وفى صلاحها وحصافة عقلها  
وسموها .. تبعا للحال التى كنت فيها ، لقد كشفت عن أعماق أغوار نفسى  
كما كنت أنت تراها أيها الخالد السرمدى .. فاجمع حولي الحشد الذى  
لا خسر له من أبناء جنسى ودعهم يصغون الى اعترافى فيرثون لخستى  
ويخجلون لمثالى .. ثم ادع كلا منهم الى أن يكشف بدوره - وبعين الصراحة  
- أسرار فؤاده عند قوائم عرشك وليقل ان جرؤ « لقد كنت خيرا من ذلك  
الرجل » كيف أن هذه الاعترافات لم تكف لاقناع الناس بصلاحه وبأنه  
المظلوم المفترى عليه .. لذلك فكر فى طريقة أخرى .. عليها تكون أصوب  
وأنجع . . فأنشأ حوارا Les Dialogues أو « روسو يحاكم  
جان جاك » Rousseau Juge de Jean-Jacques وهو حوار وهمى يجرى بين  
رجلين هما جان جاك وفرنسى هو عدو لجان جاك دون أن يقابله مرة واحدة  
أو يقرأ سطرًا واحدا مما كتب .. أما روسو نفسه فيجهد فى أن يتبين  
الحقيقة وألا يكون متحيزًا .. وإنما كان جل همه - كما أسلفنا - أن يبرر  
مسلكه وأن يقدو انسانا خيرا صالحا فى أعين معاصريه .

كان يعتر بهذه المحاورات وكان كذلك لا يثق بأصدقائه ويتشكك  
فيهم حتى بأقربهم اليه فكتب منها نسخا عديدة من المخطوط ثم عن له أن  
يودعه مذبج كنيسة النوتردام Notre Dame فى ٢٤ من فبراير ١٧٧٦ ..  
ليرفعه الى العناية الالهية ويؤكد أنه ظلم فى كل شيء قال فيه « يا حامى  
المظلومين يا اله العدالة والحق تقبل هذه الوديعه التى يضعها على مذبحك  
غريب تعس، وحيد من غير سند ولا نصير على الارض، معذب مضطهد .. »  
وما أن تقدم ليضع المخطوط حتى ارتد على أعقابيه وقد انتابته لوثه هى  
أقرب ما تكون الى الجنون .. اذ اصطدم بالحاجز وقد أوصد . فظن أن  
ذلك من عمل الله .. غير راض عن فعلته .. فخرج هائما على وجهه فى  
الطرق طيلة النهار يقسم أن لن يطأ الكنيسة ثانية ما عاش ..

ثم كتب مقالة يوزعها على من يصادفهم فى طريقه بعنوان « الى كل  
فرنسى لا يزال يجب العدالة والحق » A tout Français aimant encore la  
justice et la vérité ولكن أضحكه أن المارة رفضوها بحجة أنها موجهة الى  
سواهم ..

وهنا تحدث المعجزة .. فيشاء الله لهذه النفس المعذبة أن تهدأ بعد  
فورة وأن تدعن لمشيئته بعد ثورة هى الى الجنون أقرب .. وروسو عندئذ  
كالجندي ألقى السلاح بعد أن أبلى وناضل ومل الكفاح .. ومن قمة الفزع

والهذيان الى سكينه مطلقه ساقته اليها فكرة طرأت له وهى أن الله  
جلت قدرته انما أراد بعدم ايداع روسومخطوطه فى النوتردام Notre Dame  
أن ينقذه من أيدي أعدائه المتربصين .

### كتابة أحلام اليقظة :

وحينئذ وفى استسلام تشوبه مع ذلك المرارة أخذ روسو يسجل  
« أحلام يقظة جوال منعزل » فيها يجتر الذكرى اجترارا ويعيش فيها وبها  
ويسلم أمره للقوى المنتقم الجبار .

تلك الخطرات هى آخر ما كتب اذ أنه بعد أن ترك مسكنه بشوارع  
بلاثريير Plàtrière لعدم ملاءمته لصحته عام ١٧٧٧ استضافه مسيو  
دو جيراردين M. De Girardin فى ارمنفيل Ermenonville فى منزل بديع له  
بالريف يحيط به الماء والخضرة . . الطبيعة التى أحبها روسو وعاش لها  
. . ولكنه لم يستمتع بمقامه هذا طويلا اذ ما لبث أن قضى فى الثانى من  
يوليه عام ١٧٧٨ غريبا فقيرا . . مريضا ، ودفن بارمنفيل فى جزيرة الحور  
L'île des Peupliers وهى جزيرة ساكنة يلفها الهدوء الذى كان يحبه  
فى حياته . . حيث زار قبره الزائرون ومن بينهم الملوك والعظماء والادباء  
ورجال الدين .

### نقل رفاتة :

حتى كان يوم ١١ من أكتوبر سنة ١٧٩٤ فنقلت رفاتة الى البانثيون  
Panthéon فى احتفال كبير - فدفن أخيرا فى مدافن العظماء ليحج اليه  
الناس من أقاصى المعمورة فيحيون ذكرى ذلك الكاتب العظيم . . رسول  
الانسانية والداعى الى حريتها وخيرها . . مما أحله مقاما عاليا بين من  
أسدوا الخير للبشرية .

### هل الاحلام تتمه لـ « الاعترافات » و « الحوار » ؟

كانت قراءات روسو للروايات من كل نوع ولبلوتارك Plutarque  
بخاصة فى طفولته أثرها فى حذق ذلك العالم المثالى الذى عاش فيه روسو  
طيلة حياته فجعله عاجزا عن تقبل الواقع ىرنو دائما نحو آفاق عالية  
تتجاوزه . ولقد سجل روسو على أول البطاقات (١) التى كان يدون عليها

Henri Doddier : Les Rêveries du Promeneur Solitaire, P. XXI (1)

خوابه « لم تكن حياتي كلها سوى حلم يقظة طويل تقسمه الى فصول  
جولاتي اليومية » .

والواقع أن كتب روسو جميعا كانت أحلاما . . . كان روسو حساسا  
والانسان الحساس لا تترجم انفعالاته الى أعمال ولكنها تولد عنده طائفة  
من الخواطر والتأملات والاحلام وهذه - على ضوء ما يقوله رينيه لوسن  
René Le Senne (1) تولد في الروح طموحا الى الرفة واستنكارا  
للأوضاع مما يجعله دائب البحث عما يبرر شعوره ذلك . وفي الواقع أن  
روسو الذي وصفه « لوسن » بأنه حالم حساس استخدم طموحه في الدفاع  
عن هذا العالم الخيالي المثالي الذي كان يعيش فيه منذ طفولته محاولا اشراك  
معاصريه في هذا الحلم جاءت كتاباته كنتيجة لذلك تستهدف المثالية وتدعو  
اليها واذن فانه يمكن القول بأن أحلامه لا تنقسم الى فصول بل الى كتب كل  
منها ثمرة لسلسلة من الجولات والقراءات . واذا نحن أخذنا مثلا حديثه  
في « عدم المساواة بين الناس » أو حديثه عن « العلوم والفنون ودورها في  
تطهير أو افساد الأخلاق » أو « العقد الاجتماعي » Le Contrat Social أو « اميل »  
Emille نجد أن روسو فيها جميعا ينشد مثالية عالية فهو اذ يحلم بالقضاء  
على الظلم ويحلم بالعودة الى حالة الطبيعة الأولى التي تكفل وحدها اسعاد  
الانسان وتطهير روحه ويحلم بمجتمع سليم يقوم بناؤه على أسس صحيحة  
متينة من الاخاء والمساواة والمحبة ويخلو من تفاوت الطبقات ثم يحلم أخيرا  
في « اميل » بتربية مثالية للطفولة تلك التربية التي حرم منها وأولاده  
منها فكفر عنها بهذا الحلم الطويل لاسعاد الاطفال جميعا .

وأما في « هلويز الجديدة » La Nouvelle Heloise فهو يحلم أيضا ،  
يحلم بالحب العنيف الصادق الذي لم يكن له منه في واقع الحياة نصيب ،  
فإن روسو لم تكن له مع النساء جولات حقة لان طبيعته غير المستقرة وعدم  
قدرته على تنفيذ ما يصبو اليه في حياته بعد أن يكون قريبا منه جعله دائما  
عاجزا عن تحقيق ذلك الحب الذي صورته في « هلويز الجديدة » والذي  
يعتبر حلما من أحلامه الرائعة . . . والانسان الخيالي الحالم يتحمس دائما  
لكل شيء جديد ولعل ذلك كان دافعه الى تحويل تعليم الموسيقى باستعمال  
طريقة رقمية .

### الاحلام تمة للاعترافات والجوار :

كانت الظروف جميعا مهيأة لاسعاد روسو الا ظرفا واحدا . . . فقد  
كان يظن أنه محاط بأعدائه يتابعون في عناد مؤامرتهم ضده . . . ولهذا كتب

Traité de caractérologie : Presses universitaires de France, 1945 (1)  
pp. 269 - 76 et 779 - 88.

« الاعترافات » و « الحوار » و « الاحلام » ليتخلص من تلك الفكرة التي استبدت به ، ذلك لان هجمات أعدائه -بالإضافة الى هجمات بعض أصدقائه القدامى - ولدت الشك في نفسه ولو انه كان يحس في قرارة نفسه بالرغبة في التأكد من ذلك الشك فكان يقول « اننى أخشى أن أكون مذنباً في قرارة نفسى » فى خطاب له الى « دافيد هيوم » Hume سنة ١٧٦٦ .

هذا ولم تجعله كتابة « الاعترافات » يعيش طفولته وشبابه فحسب بل أنها أعطته شيئاً من الثقة بنفسه وبمستقبله انك يصيح فى مستهلها قائلاً « فليكشف كل بدوره عن قلبه عند قوائم عرشك وبفس الصراحة أسرار فؤاده وليقل ان جرؤ لقد كنت خيراً من هذا الرجل » ولقد كان مقتنعاً اذ ذاك بأن هذا الكتاب سوف يقشع الغيوم التي جمعها أعداؤه من حوله وبلغ اعتقاده حدا جعله يفكر فى شيء واحد هو العودة الى باريس تحت رعاية البرنس دوكونتى Prince De Conti آملاً أن يدافع عن نفسه عن طريق اعترافاته . ولما كان قد تعب من حياة كلها عدم استقرار منذ عودته من انجلترا فقد فكر أن يعيش فى بلد بعيد ولكن رأيه استقر أخيراً على الإقامة فى باريس اذ كان يأمل أن ينتصر على أعدائه فيستعيد هيبته نفسه . وفى ربيع ١٧٧٠ عاد الى باريس لينتصر على المؤامرة التي كان يعتبر نفسه ضحية لها . فقام بقراءات خاصة لـ « الاعترافات » وكانت الستة الاولى منها لا تحوى تعريضاً بأحد فمرت بسلام أما الكتب الستة الاخيرة فقد تناولت بعض ذوى المكانة من أمثال مدام دابنای بالتعريض وسعت هذه لدى السلطات المختصة لايقاف تلك القراءات وكان لهذا المنع عواقبه الوخيمة على نفسية روسو فأسلمته الى أزمة طويلة . كتب خلالها الحوار . . بعد أن فقد الأمل فى تعريف الناس بالاعترافات فى حياته . . وهكذا نراه يلجأ الى طريقة أخرى يظهر بها انه ضحية ظلم صسارخ . . فتخييل ذلك الازدواج الذى كان يبرز جانباً من شخصيته فى « الحوار » . . . وهذا العمل الادبى الطويل ليس - كالاعترافات - سرداً متصللاً لتاريخ حياته بل هو يعرض ثلاث محاورات من جان جاك بين رجل فرنسى وروسو تشير الى أن هذا الفرنسى برغم أنه لم ير الكاتب فى حياته ولم يقرأ له فانه يكرهه لا لسبب الا لانه يثق ثقة تامة فى الفلاسفة وافتراءاتهم اما الآخر ولو ان اسمه روسو فانه ليس روسو تماماً بل هو عقل مستقل ميزن لايعرف عن روسو سوى كتبه ويريد مع ذلك أن يدرس روسو نفسه . . وخلصه الأمر أن روسو يحلل نفسه وأن روسو يحاكم جان جاك ويستمر الحوار حتى يبدو جان جاك نقى الصفحة طاهراً فى نهاية الامر . . وفى هذا شفاء لقليله عن تلك الصورة المشوهة التي صوره بها أعداؤه . .

ويتضح من ذلك أن كلا من « الاعترافات Les Confessions » ومن « الحوار Les Dialogues » كانتا تستهدفان تبرير تصرفاته وتوضيح موقفه وكذلك كانت « الاحلام » ومن ثم فإن « أحلام اليقظة Les Rêveries » تعتبر بحق متابعة لهما وتتمه . . انها تبدأ حيث انتهتا . . وهو يشير أكثر من مرة في « الاحلام » الى ذلك كما يشير الى صدق « الاعترافات » أو يحاول تصحيح بعض وقائعها أو يعتذر عن بعض أخطاء جاءت بها معللا اياها بضعف ذاكرته . . لقد جهد روسو في أن يهرب من مخاوف الاضطهاد وقد نجح الى حد كبير فقدت له بعد ذلك سداجة الاطفال وبراءة مباحثهم . . . . كان ميالا بفطرته الى العزلة فطغى هذا الميل على نفسه حتى غدا غير صالح للحياة في المجتمع . . بل ان مخالطة الناس أضحت بالنسبة اليه شيئا كريها يحزمه أحلى المتع وهي التأمل في الطبيعة والانفراد بنفسه .



## تقديم للجولات

« أحلام اليقظة » Les Réveries هي آخر أعمال روسو الأدبية اذ كان لا يزال يكتب مستهل الجولة العاشرة في الثاني عشر من ابريل عام ١٧٧٨ قبل مغادرته باريس للمرة الاخيرة بزمان قليل ٠٠ ويرى بعض النقاد أن الفكرة الاولى في تسجيل « أحلام اليقظة » ترجع الى خريف عام ١٧٧٦ بعد مضي بضعة شهور على الحالة الصحية والنفسية التي استبدت به وغدا فريسة لها حين حاول أن يودع مخطوط الحوار Les Dialogues في كنيسة نوتردام Notre Dame ولكنه لم يفلح اذ حالت الحواجز دون ذلك ٠٠

وكان يعلم ان احلامه في سبيل الافول اذ كان يحس .  
« بالبرودة تسرى فيها » وأنه كان يقترب من النهاية ٠٠

وقد كتب السبعة الاولى منها في خط صغير وان كان مقروءا ٠٠ وشاء كرم صديقه المركيز دوجيراردين De Girardin الذي استضافه في آخر حياته بارمونيفيل Ermenonville حيث مات - أن يجمع في حرص وعناية كافة الأوراق التي خلفها روسو وسهل للناشرين بعد وفاة الكاتب الكبير نشر ثلاث جولات أخرى استخلصها من مسودات مجموعة في كراسه تشبه الاولى تماما . . هذا بالاضافة الى سبع وعشرين ورقة من أوراق اللعب مودعة في مكتبة نيوشاتل Neuchatel

بمؤسرا كان يسجل عليها زوسو أفكاره خلال جولاته وتعد مرجعا  
للأحلام كذلك .

ولقد تدرج روسو خلال أعوام حياته في مختلف الحرف والاعمال . .  
واحتفظ لهذه الأعوام الطويلة بذكريات مريرة قاسية . . ثم أنتج خيرة  
ثماره العقلية . . وكانت له شهرة واسعة لها دوى .

كان ينسخ الموسيقى وكان يكتب وكان يربط الأوراق بشرائط  
جميلة وكان يرتب النباتات بعناية كان يحيا بحواسسه ولكنه الآن فى  
أخريات العمر أصبح يعيش على لون جديد من الحياة لم يمارسه فى عمق  
من قبل وان اعتاده . . بدأ يحس احساسا قويا بالاصوات الرائعة والسماء  
الجميلة والريف البديع والبحيرات الفاتنة والازهار والطور والعيون  
الساحرة والنظرات الحلوة البريئة . . انه لا يزال يذكر زوايا مماثلة من  
ماضيه البعيد . . تنتابه الحسرة أحيانا على فواتها ويشده الألم أحيانا  
أخرى لأنه لم ينهل منها بقدر ما يطيق أو لأنه لم يدركها الا بعد فوات  
الأوان . .

كانت الاستثارة الحسية تسلمه الى نشوة عاطفية . . وكانت الطبيعة  
تبدو له وكأنها هى كائن حى يزخر بالجنان فيرتمى بين أحضانها ليجد  
أجمل العزاء . . كان الخيال فى صغره يلعب الدور الهام من حياته ، أما  
بعد أن تقدمت به السن فلم يعد له سوى أن يستسلم للذكريات .

ولئن تخللت هذه الذكريات بعض مظاهر الشنوذ العقلى فانه كان  
يستشعر فيها الهناء المطلق . . كان يحسه فى هذه اللحظات القصار  
التي يجمعها فيها كما كان يحسها فى أعماق عقله الباطن تتصاعد فجأة  
فى لذة غامضة تستدعيها أمور عدة . .

ولئن قصر خياله أحيانا فانه أدرك كيف يحيى الذكريات أحيانا  
أخرى . . ولئن ضاعت الاحداث فى غمار النسيان بفعل الزمن فان تداعى  
المعاني وبعض صفات معينة وبعض مظاهر الحرارة والضوء كانت كقيلة  
بأعادتها الى ذهنه . . والواقع ان « أحلام يقظة جوال منعزل » هى فى مجموعها  
ذكريات .

أهى ذكريات شيخ لماض بعيد غير كثيرا من نواحي الصورة فيه حتى  
لتتمزج الاسطورة والخيال بالحقيقة ؟

ام هى اعتذار عن بعض أخطائه ومحاولة لتبريرها أو الدفاع عنها ؟



أم هي تفسير لبعض ما مر به ؟ أم هي تسجيل لخواطر وخلجات هي ثمرة تجارب وتفكير رجل قدر له أن يفرض نفسه على الفكر الانساني ؟

لقد كان يلذ لروسو أن يستمد من آلامه متعة وكان يردد أنه يعيش حقا في « أيام الاضطراب والقلق » ان أشد الساعات ألما تحل في النفس أعمق الآثار ومع الزمن تغدو ذكراها وهي تحمل فرحا لاذعا . . وتعاسة مع ذلك » .

- ومن عجب أن ذاكرة روسو تتوقف كذلك طواعية عند أيامه السعيدة وليس في شيخوخته سعادة أكثر من الشهرين اللذين قضاها في جزيرة سانت بيير Saint-Pierre وكذا في الشارميت Les Charmettes

لقد كف روسو بعد كتابة « الحوار » Les Dialogues عن الدفاع عن نفسه أمام مهاجميه وأعدائه فاستسلم لقدره . . ثم مال . . كعادته . . الى العزلة . . الى الهدوء والاعتكاف . . كان يعلم أنه يقضي أيامه الاخيرة مستشعرا دنو أجله . . فظل ينتظر الموت في وقار ، يتجهز له ويعد ، للمرة الأخيرة حسابا يمثل به أمام الله ويستعيد ماضيه بما تخلله من لحظات سعيدة فيعيشها بذلك مرتين .

عاد اذن يمسك القلم ويعاود الكتابة دون أن يكثرث بالناس ودون أن يهتم بما يدبرون بعد أن اعتزلهم الى عالم هو عالمه وحده لأنه من خلقه . . فسطر بذلك صفحات رائعة في موضوع جديد يتفق أولا ومزاجه الطبيعي ويعد أخيرا خيرة انتاجه قاطبة .

بل إن عنوان هذه الصفحات التي أتناولها بالترجمة والتعليق تكشف عن روحه تماما . . ان فيه لوما وعزاء . . لوما يوجهه الى من أكرهه على الانفراد والعزلة . . وعزاء له في تلك الاحلام الحلوة يحلق فيها في حله وتجواله فتعوضه في سخاء عما حرمه منه معاصروه من هناء وراحة .

لقد ضاق المسكين بقسوة الناس فاعتزلهم وباعد ما بينه وبينهم وراح يضرب في الخلاء منفردا بنفسه ، مستمتعا بالطبيعة مدركا للخلق مستغرقا في أحلام طويلة يسترجع بها بعض أحداث ماضيه ، مناقشا اياها في ضوء الهدوء الذي بلغه والسكينة التي تحيط به . . لقد أعادت هذه الذكريات الشيخ الى نفسه فكانت تعبيرا عن حقيقة حياته . . وهي حياة حواسه وقلبه . . أما الاحداث والعالم الخارجي فلم تعد بعد شيئا مذكورا بالنسبة له ، انها لم تعد سوى فرصة للاستمتاع ووسيلة للتفكير . . وهكذا

تحققت له أخيرا الحياة المثالية التي طالما تاق لتحقيقها وهي العالم الذي  
صاغه لنفسه .. خياله ..

**فالأحلام** على هذه الصورة ليست موضوعا واحدا بل هي مجموعة  
من الخواطر والخلجات ترابطت أحيانا وتباعدت أحيانا أخرى شأنها في  
ذلك شأن الخواطر دائما حين تقوم على نبش بعض أحداث الماضي البعيد .  
وهاك الجولات مرتبة كما جاءت في مختلف المراجع أقدمها معلقة على  
فجواتها :

## الجولة الأولى

تعد هذه الجولة مقدمة للكتاب كله . . فيها يبدو روسو راضخا لحكم الأقدار وقد عادت اليه السكينة والهدوء - وهما نسيبان اذا ما قورنا بما كان عليه من اضطراب ويأس . . . سيدافع مرة أخيرة عن نفسه ويبررها أمام مضطهديه ويدرس نفسه . وهو يسجل أحلام يقظته التي تعرض له أثناء جولاته المنفردة . ولكنه يقرر هنا أنه انما يكتب رغبة في الكتابة ورغبة في قراءة ما يكتب فيما بعد فيجد متعة في ذلك ويحيي بذلك مرتين . . لا من أجل أجيال قادمة وفي ذلك تختلف في اعتباره عن الاعترافات Les Confessions وعن الحوار Les Dialogues ولو أن الاحلام Les Rêveries تعتبر ملحقا للأولى . .

« هانذا وحيد في هذه الدنيا لم يعد لي أخ أو قريب أو صديق أو صحبة سوى ذاتي » : بهذه الكلمات التي تفيض حسرة والمأ بدا روسو بناء مؤلفه وهي تكاد تكون عتابا يوجهه إلى الإنسانية التي ألجته إلى الانفراد والعزلة . . انها صرخة نفس معذبة جريحة يتنازعها الألم والكبرياء . . ولكنها الآن

فى سكينه لم تخل تماما من آثار العاصفة ، فان تلك السكينه لم تمنعه من أن يتحسر على مصيره ومن أن يتذكر المحن التى قاستها نفسه المرهقة . . .  
أما وقد انفصل عن الناس رغما عنه فهو يسائل نفسه « من أكون أنا نفسى ؟ » أى أنه عن طريق أعدائه يود التوصل الى معرفة ذاته . . .

ماذا كان ينشد لدى الناس ؟ لقد كان ينشد فى كل منهم آخا واذا لم يوجد هذا الأخ فقريب والا فصديق او على أقل تقدير صاحب . . . وهو اذا فقد كل أمل فى الصلح مع الناس يذعن ويرضخ للأقدار ولكن تتخلل هذا الاذعان ذكريات أليمة تعود به خمسة عشر عاما الى الوراء ، ولما كان روسو يكتب هذه الجولات عام ١٧٧٧ فهو اذن يشير الى عام ١٧٦٢ أى الوقت الذى أحرق فيه كتابه اميل Emile وحكم بالقبض عليه والى ماكان من رجم بيته وهربه بعد ذلك وعدم استقراره . . . وهى مرحلة كلها خوف وقلق وآلام واذلال لا يستطيع أن ينساها هنا . . . هو الذى يزيد أن ينسى الناس وشروهم . . . لقد جعلوا منه سفاكا وقائلا وأهالوا عليه كافة ألوان المهانات والاذلال . . . هو من خلق أشد الناس حبا للناس . . . ولكنهم بذلك استنفدوا كل حيلهم دفعة واحدة ولم يعد لديهم من مزيد . . . لذلك هو مطمئن ما داموا « قد فعلوا كل شىء » بل انه سيهزأ بهم ومن بغضائهم . . . فلا سلطان لهم عليه بعد . . . ولكن من هم مضطهدوه ؟ أولئك الذين جعلوا الحياة فى عينيه سوداء قاتمة . . . وهل كان هناك حقا اضطهاد قبل روسو ؟ فى الواقع انه اذا ما كان للخيال نصيب فى هذا الاعتقاد فان نصيب الحقيقة فيه كبير فلا يجب أن ننسى زيدرو Diderot وتذيراته ، وجريم Grimm ومدام دابنساى Mme d'Épinay التى انساقت له والتى رمت روسو بالجحود والانانية ، وفولتير Voltaire الذى كان ينتهز المناسبات لغمزه والتندر بأرائه والتشهير به . . . والكنيسة فى جنيف Genève ومجلس شيوخ برن Berne والأطباء الذين عرض بهم فى كتاب اميل Emile والسلطات التى حرمت الاستمرار فى قراءة الاعترافات . . . كل ذلك بذر الشك فى نفسه من ناحية كل من يحيطون به حتى أصدقائه . . . وجعله يرى من حوله مؤامرة عريقة محبوكة الاطراف لهدمه والقضاء عليه . . .

وهو يشير فى هذه الجولة الى أنه - فيما مضى - كان يأمل فى الناس ولكن قضى على هذا الأمل منذ شهرين حادث مؤسف غير متوقع . . . مشيرا الى محاولة ايداعه مخطوط الحوار فى الكنيسة . . . وفشله فى ذلك مما

أسلمه للهباج والاضطراب. ثم أخيرا ، وبما يشبه المعجزة ، الى الهدوء والسلام بعد أن أفتع نفسه أن الله تدخل لمنع وقوع مخطوطه فى أيدى أعدائه المتربصين به . . .

ولكنه يمضى فى انفصاله عن الناس فيقول : « لم يعد هناك ما آمله أو أخشاه فى هذه الحياة ، كائنا مسكينا تعسا لكن صامدا كالاله نفسه » . أى انه فى غروره يشبه نفسه بالله تعالى . . وهو بعدئذ يشير الى الهدف من كتابته . . السجل الذى يتقدم به يوم الحساب الى الله . . . وهو فى ذلك يختلف عن الفلاسفة الملحديين . . انه يؤمن بالله وباليوم الآخر وهو يكتب لنفسه ليعيش مرتين « ولكن أصحح ما زعم ؟ اننا اذا سلمنا أن أحلام اليقظة Les Réveries هي المتعة الحققة لروسو وأن التخيل سلوته الوحيدة لكان من الممكن أن نرى روسو يكتب يوميا . . كتابة ينقصها هذا التكامل والجمال والموسيقية التى امتازت بها الأحلام . . ولما كان هناك الحذف والكشط والتصحيح ووضع كلمات مكان أخرى كما وجد المخطوط الأصيل للأحلام بنويوشاتل بسويسرا ، ولكنها الرغبة المستترة التى دفعته الى الدفاع عن نفسه وتبرير مواقفه هى التى وجهته الى هذه الناحية . . انها تكلمة للاعترافات ولكنه لن يستطيع أن يعطيهما العنوان نفسه لانه لم يعد لديه ما يعترف به ومن يعترف اليه . . وقد انقطعت صلاته بالناس جميعا . لا . بل انه سيجرى التجارب على نفسه ويسبر أغوارها بعناية ويدرسها ويعمل مثل مونتاني Montaigne ولكن «مونتاني» كان يكتب للآخرين أما هو فلنفسه . . وهو أخيرا لن يهتم بمصير هذا المخطوط . الأحلام . . كما اهتم بمصير الاعترافات Les Confession. والحوار Les Dialogues حينما اراد ان يخفيهما عن أعدائه ومضطهديه .

وهكذا نجد فكرة الاضطهاد ترد على لسان روسو مرات كثيرة فى هذه الجولة . ان فيها من الحوار Les Dialogues الكثير ، تتردد فيها نفس المعانى والافكار . . تلك حالة روسو النفسية فى هذه الجولة : ان الكاتب الذى اعتزم أن يقضى بقية أيامه فى عزلة ووحدة والذى يؤكد أنه يكتب هذه المرة لنفسه لا يستطيع أن يمتنع عن أن يبحث عن أسباب وأسباب تبرر هدفه . . وهو الذى بالرغم من جهوده فى مخالجة نفسه وعزمه . . لا تفتأ ذكرى الناس وضور حقدهم تعاوده وتشقيه .

ومما يجعل للأحلام وبخاصة فى هذه الجولة هذه اللهجة المؤثرة هو امتزاج الدفاع فيها بالتحليل النفساني وبالذكريات .

## الجولة الثانية

وأهمية هذه الجولة كبيرة لامن ناحية قصة حادثة منيلمنتان - وهو محورها - فحسب بل من ناحية الحالة النفسية لروسو على أثر الحادث .

أثناء عودة روسو من إحدى جولات الاستعشاب اصطدم به كلب دنمركي كبير بجميع جسمه وهو يجرى في سرعة فائقة فوق روسو على الأرض وأصيب إصابات جسيمة في وجهه ويديه .

كان ذلك الحادث في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٧٧٦ في ضاحية منيلمنتان Menilmontant من ضواحي باريس . أما هذه الجولة فقد كتبها في ديسمبر أو يناير ذلك لان زوسنو يتوه بما كتب عنه في كورييه دافنيون Courier d'Avignon في يومي ٣ و ٢٠ من ديسمبر أي بعد الحادث ، بعد فترة نقاهة وبعد أن انقضت أسابيع طويلة لكنها مع ذلك ليست بعيدة جداً عن الحادث فهو يستطيع أن ينقل إلينا الحوادث بدقة

كما أنها بعيدة عن الصدمة نفسها بما يكفي لان يحلل روسو الانطباعات التي خلفتها وترتيبها وتنظيم كتابتها في هدوء .

بدأها من حيث تنتهي الأولى . . . بمقدمة طويلة يصف لنا مدى استعداد نفسه للمشروع الذي عرضه في الجولة الأولى وهو ملاحظة نفسه « علميا » اذ يثبت « البارومتر » على أعماقها ولكنه يأسف اذ لم يفتن الى عميل ذلك من قبل ، قبل أن تختفى ملكته الخالقة وبعد أن بات يحس « بروح الحياة تدوى فيه تدريجيا » فهو يدرك أنه شارف تلك السن التي يضعف فيها التخيل لتقوى الذاكرة فالإنسان يعيش اذن على برصيده من الماضي لعجزه عن أن يتجدد وان يخلق . . . وهو يتحدى أعداءه ومضطهديه بل يمضى في سخريته بهم فيقول : انه لولاهم لما استمتع بتلك اللحظات من السعادة وامتعة التأمل وبالتالي لما نسي تعاسته وشقوته وهو يبدو هنا وكأنها يقول لهم « موتوا بغيظكم لن تنالوا منى بعد ولن آبه بكم » . . .

ولكن لئن ترتب على ذلك الابتعاد عن الناس والاحساس بالهدوء بعيدا عنهم شيء من السكينة وشعور بالانتصار فان فرحته بهما تمنعه من أن يلاحظ حالته النفسية كما أراد وعجزه عن الخلق والتجديد يجعله « جزءا أيضا عن أن يحلل نفسه . » وهو يصف لنا تلك الحالة بدقة في جملة واحدة فيقول : « واني اذ أريد أن أسترجع أحلاما حلوة أراني أستسلم لها مرة أخرى بدلا من أن أضفها » وهو في ذلك يشبه رجلا يريد أن يسجل آثار الكحول عمليا مثلا فيشربه حتى لا يعود يتذكر شيئا بالمرّة .

ولكن الجديد هنا هو تحليله لآثار الحادث وإشارة الى بعض ما قيل عنه بعده وما انعكس من ذلك على حاله المعنوية . انه يذكر كل شيء في كثير من الدقة ، يذكر بخطر سيره ويذكر التاريخ كما لا ينسى أسبماء الزهور وفصائلها ولا الانطباعات المختلفة التي سبقت الحادث والتي أعقبته وفي كل ذلك شيء من التعارض مع ما قرره لتوه من عجزه عن الملاحظة الذي يشكو منه .

ان حادث اصطدام روسو بكلب كبير ، نتجت عنه بعض الاصابات ، حادث عادي في ذاته لكنه ولا شك يحتل حيزا كبيرا هاما في ذهن انسان كروسو يحس اضطهاد البشر له فيعذبه ويظلم حياته . . . ولعل ما لا يس تلك الحادثة من قصص وأقوال وكثير منها ان دل على شيء فانما يدل على روح شامتة ساخرة مما يزيد الطين بلة اذ يبلغ تشكك روسو ذروته فلا يعود يشق بأحد حتى بأولئك الذين يودون أن يقدموا له الخدمات ، فقد

تشيع انه مات ، وقيل انه احسن اذ فعل كما اختلف الآراء في تفاصيل الحادث نفسها ولعل بعض الشامتين الساخرين كانوا أولئك الذين ينتظرون في قلق بالغ ظهور مؤلفه « الاعترافات Les Confessions وفيها الكثير مما يكشف نواحي يحرصون على اخفائها .

نشرت جريدة الكورييه دافنيون Douvier d'Avignon في ٢ ديسمبر عام ١٧٧٦ خبر الحادث فقالت « لقد أوقع كلب دانمركي روسو منذ بضعة أيام وهو مريض جدا نتيجة لسقطته » وفي العدد التالي كانت تكتب عن موته قائلة « لقد عاش فقيرا ومات حقيرا » ثم تصفه ككاتب فصيح لا يجب أن يتكلم الانسان عن مواهبه لانه « أساء استعمال تلك المواهب » .

قد تثير هذه الكلمات أكثر الناس هدوءا فما بالنا بروسو وقد زادت خدماته واحدة بفضل كلب يملكه أحد الاغنياء .

أرسل له من يدعى مسيو لنوار M. Lenior يعرض عليه خدماته عن طريق سكرتير له ومعجبة هي مدام دورمو Mme D'Ormo بعثت اليه كتابا يتضمن مديحا لشخصه فرفض عروض الاول وكانت القطيعة بينه وبين الثانية .

وقد كان من الجائز أن تتغير نظرتة للناس ولو قليلا لو انهم أبدوا نحوه في تلك المناسبة شيئا من الود والعطف والرعاية فهو انسان حساس طيب القلب ، ولكنهم لم يشاءوا الا أن ينفروه بقسوتهم عليه . انه يتألم ولكنه يتقبل « الألم تقبل المؤمن بالله فيقول « ان الله عاذل ولكنه يريد أن أتألم وهو يعلم أنني بريء » .

ومع ذلك فقد كتب روسو لنا تلك الجلولة المرتجة في أفكارها الصادقة في تحليلاتها اذ تعد نموذجا للانشاء القوى البديع المنظم



## الجملة الثالثة

كما أن هناك فكرة تصل الجولة الأولى بالثانية ، هناك واحدة تصل هذه بالثالثة مما يجعل من هذه الجولات الثلاث موضوعا يكاد يكون مترابطا تماما . . وعنوان هذه الجولة «انى أشيخ ولا أزال أتعلم» يشير بذلك الى بعض ما جاء بها .

ونحن اذ نجد فى نهاية الثانية هدوءا لم يصل اليه روسو من قبل ولكنه انتهى اليه فى احساساته وذهنه واستمدته من استسلامه لكل أنواع الاضطهاد والمشيئة الله نرى هنا الهدوء الفكرى والنفسى الذى استقر عليه نتيجة لاعتناقه بعض المبادئ الاخلاقية ولصلاحه لنفسه ووضع أسس لعقيدته وسلوكه . . ومن هنا كانت هذه الجولة على قدر غير يسير من الأهمية .

يستهلها بمقدمة هى تأمل فى الشيخوخة عموما وفى شيخوخته خاصة وفى نوع المغامز الفكرية أو المعنوية التى تلائم تلك الشيخوخة ويشفعها بحقائق عادية لكنها تفدو هامة اذ يطبقها روسو على نفسه فتتخذ بذلك طابعا شخصيا . .

منها أن الانسان يتعلم معرفة الناس متأخرا فهو لذلك لا يفيد من تلك المعرفة ، وانه يجدر به حتى يسعد في حياته ان يجهد ما قد يحزنه ، وان الوهم خير من حقيقة رهيبية ، وان علم الحياة تهيئة للموت . . وأخيرا أن الشيوخ يتعلقون بالحياة أكثر من تعلق الشباب بها .

تلك الوقائع وان كانت عادية كما قلنا الا أنها تلقي الضوء على فلسفة روسو في الحياة . . انه يرى أن الشيخوخة هي وقت تعلم أشياء مفيدة هادفة ، فلا يترجم بعضهم مثلا كتابا أو يقوم بأبحاث في الرياضة . انه هو ذاته حين يمارس جميع النباتات فلانه يطبق ذلك تطبيقا مفيدا ويتريض في الهواء الطلق في الوقت نفسه . وهو اذ يرى في سعادة الانسان جهله بما قد يحزنه يطبق ذلك على نفسه فيقول : «لقد كنت مغفلا وكنت ضحية لهم لكنني كنت أظنني محبوبا منهم وكنت أستمتع بتلك المحبة التي أوحوا بها الي» .

وإذا ما قال ان الوهم خير من حقيقة رهيبية نجس أنه لا بد وقد بذل جهدا كبيرا ليقول ذلك هو الذي يقرر أنه أشد الناس حبا ومراعاة للحقيقة مهما كانت. وندرك مع ذلك تأله البالغ لتلك الحقيقة وعمده الى الهروب منها . .

وأما الحقيقة الرابعة فهي تنطبق عليه الى حد كبير فانه برغم ايمانه العميق يلاحظ بنفسه أن فكرة موته لا تحتل الا حيزا صغيرا من تأملاته . والحقيقة الخامسة مصداق لما يفعله روسو نفسه في هذه « الجولات » انه يحاول العودة الى الماضي يستعيده «لتحيا بذلك مرتين» كما يقول .

ثم هو يتناول بعد ذلك ثلاث مراحل من حياته مرحلة قبل اصلاحه لأمور نفسه وأخرى خلاله وثالثة حين تم ذلك الاصلاح .

فهو يتكلم عن نشأته بين أناس يدينون بالتقوى أي أسرته ومعلمه (مسيو لامبرسييه M. Lambercier) ثم مدام دوفواران Mme de Warens التي أنارت له طريق المعرفة وملأت قلبه بمشاعر الود والتقوى . والواقع أن تلك النشأة لم تكن دائما سليمة لانتشوبها شائبة فنحن نعرف أباه وكيف أنه علمه كيف يقرأ القصص والروايات قبل الكتب الجادة وهو لما يزل طفلا صغيرا ثم لم يلبث أن هجره ، وأما القس لامبرسييه Lambercier علم يكن دائما فوق مستوى الشبهات ومع أنه علم الطفل تعاليم الدين

البروتستانتى الا أن هذا سرعان ماتحول الى الكاثوليكية فى يسر على يدي مدام دوفواراز Mme de Warens التى كان سحرها وعطفها أقوى لديه اذ ذاك من كل دين فنجده يقول فى «الاعترافات» Les Confessions «وقلت فى نفسى ان دينا يدعو اليه مثل هؤلاء الرسل لابد مؤد الى الجنة ، » .

وهنا عبارة تستحق التفسير انه يقول : «لقد تحولت الى كاثوليكي ولكنى بقيت مسيحيا» لاريب أنه يعنى هنا بالمسيحية الايمان أى انه لا يجد تفرقة بين الكاثوليكية والبروتستانتينية . وعلى ذلك يمكن القول ان ديانة روسو كانت فى قلبه فحسب وهى دين طبيعى لا يتقيد براسيم ومظاهر ولا يهم فيه أن يعتنق مذهباً بعينه .

يقول روسو أنه كان قد حدد سن الاربعين كمرحلة لاصلاح حال نفسه خارجيا وداخليا ، ولما كانت تلك الفترة من حياته هى التى تلى حديثه عما «اذا كانت العلوم والفنون قد ساعدت على تطهير العادات» فقد أحسن ضرورة تطبيق آرائه على نفسه أولا ليكون متمشيا معها وحتى لا يبدو أمام الناس متناقضا مع ما يكتب . فتخلى عن كل زينة «فلا ساعة ولا سيف ولا حلى ذهبية بل رداء سميكا من الصوف» ولكن للأسف لم تزد تلك الخطوة الفلاسفة الا دهشة وتعجبا بل انهم اعتبروه مجنونا وبخاصة ديدرو Diderot اذ يبدو على تلك الحال من التكشف وهو على أعتاب الشهرة .

وكان ذلك أحد أوجه الخلاف بينه وبين الفلاسفة الذين يسميهم بـ «السفسطائيين» والمعروف أن السفسطائيين Sophistes وهم قوم اشتغلوا بالفلسفة قديما كانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء وينادون بأنه يجب أن يتحرر الانسان من القانون الأخلاقي وأن يساير الطبيعة وهى عندهم الشهوة . ثم جاء من بعدهم سقراط Socrate وأفلاطون Platon وأرسطو Aristote الذين هاجموا تلك الطبقة من السفسطائيين . وكان الأخير - أى أرسطو - يعتبر الانسان عقلا وحسبا ، وعلى العقل أن يسيطر على شهوات الحس والجسم وأن يضع القانون الخلقى الذي ينبغى أن يسير بمقتضاه سلوك الانسان ولعل روسو هنا وقف من فلاسفة عصره موقف أرسطو من السفسطائيين قديما .

لقد أحس فى تلك الفترة بثقة فى نفسه جعلته يؤمن بمواهبه فى الكتابة وكانت العزلة بعيدا عن صخب المجتمع ضرورية لتنمية تلك المواهب ومساعدته على التفكير فى هدوء وتأمل فابتعد عن الناس واعتكف . ولكن أثار ذلك فضولهم لمعرفة سر اختفائه . ولقد بين لنا روسو فى «الاعترافات» Les Confessions الظروف الخارجية لهذا الاضلاع الخلقى فقال انه كان

يعيش طيلة الوقت في الغابة ، كنت أبحث فيها وكنت أجد فيها صورة العصور الأولى التي كنت أسجل في فخر تاريخها . . . وكنت أقارن بين الإنسان صنعه الإنسان ، والإنسان صنعه الطبيعة .

وفي تلك الاثناء كتب حديثه عن عدم المساواة بين الناس  
Discours sur l'inégalité parmi les hommes.

كانت الطبيعة والعزلة عنده مصدرًا للفضيلة وعن طريقهما يلتقي بالله وبصنعه . . . ولكن كان هناك أيضا ميله الى العزلة اذ ذلك لانه كما قال هنا ، بدأت أحس ( بالمؤامرات تحيط بي ) تدريجيا ،

ولكننا هنا خيال نفسية معقدة هي نفسية روسو التي أسهم في تعقيدها البشر والاقدار على السواء لذلك كان من العسير سبر أغوارها وتبين دوافعها الخفية في وضوح .

وأما نتائج ذلك الاصلاح فقد ضمنها كتابه « اشهار عقيدة كاهن من سفوا La Profession de foi du Vicaire Savoyard ولكن على أي أساس أقام تلك العقيدة ؟ . . . » انها مبادئ يملئها على روسو احساسه الذاتي ، هذا الحدس المستتر فيه ، ذلك الالهام الذي ينبعث من أعماق قلبه والذي طبعته الطبيعة بحروف لاتمحي .

انه يعتقد في وجود اله منظم للكون وفي أن الانسان حر واذن ففي إمكانه أن يذنب وان يجلب الفوضى والاضطراب في عالم كان كل شيء فيه مهياً لسعادته .

وهو يعتقد في خلود الروح ويفترض أنها لاتموت فيقول « ما دام ذلك الافتراض يعزيني ولا يتضمن شيئاً من عدم التعقل فماذا أخشى من تسليمي به » ولذلك يتعلق بأهداب عقيدته تلك التي تقول له « كن عادلاً تكن سعيداً » .

وعنده أن الوازع الأخلاقي لا ينفصل عن العقيدة الدينية وهو لا يؤمن بالوحي ولا بالمعجزات .

وهكذا نجد روسو في حاجة الى أن يعتمد على احساسه الذاتي وعلى منطق قلبه حتى تتكامل أركان عقيدته

وفي نهاية هذه الجولة نجد روسو وقد عاد الى الفكرة الأولى التي

استهلها بها ٠٠ انه يكرس أخريات أيامه لدراسة أكثر فائدة وأكبر قيمة  
هي دراسة نفسه والتزامه لفضائل يساعده عليها تجرده من جسده الذي  
يعشى عينيه عساه أن يخرج من الحياة بميتة هادئة طيبة تكفر عما قاساه  
في أيامه من شقاء ٠

ولكن هذه الثقة وهذا الهدوء نراهما وقد اعتراهما بعض القلق  
والاهتزاز في الجولة التالية الرابعة ٠٠ حيث يعرض مسألة الكذب ٠

## الجولة الرابعة

فى هذه الجولة جدال طويل حول الكذب والحقيقة وهى تقل عن سابقتها فلسفة وعمقا ولكنها تعكس مع ذلك حالة روسو الذهنية المعذبة . انه لا يزال يخاف عذاب الله فهو يحاول أن يبرر أخطاء له فحواها الكذب فى قالب دراسة أخلاقية . ولهذه الجولة - كما لمعظم الجولات - نقطة بداية هى فى هذه المرة كتاب تلقاه من الاب روزيه L'Abbé Rozier وترجع الصلة بين روزيه وروسو الى عام ١٧٦٨ « قام معه بجولات استعشاب طويلة كان من شأنها تقوية الروابط بين هذين الفيلسوفين» (١) . لما بينهما من توافق فى الطباع والميول . بدأ روزيه هذا الكتاب بفقرة جاء فيها : «الى الرجل الذى يكرس نفسه للحقيقة، وبدلا من أن تمر هذه الفقرة ببساطة يرى روسو فيها هزا وسخرية به وتعريضا بشخصه ومنشأ ذلك بلا ريب هو الشك الذى استولى على نفس روسو فى السنين الاخيرة من ناحية أصدقائه جميعا . ولكنه لا يتشكك فى روزيه Rozier فحسب بل يعتبره عدوا له . وهو فى

هذا يلجأ الى كتاب من أوائل الكتب التي قرأها في طفولته يقول : انه لا يزال يتابع قراءته في أواخر أيامه . وهو بلوتارك Plutarque الذي كتب عن « طريقة افادة الانسان من أعدائه » .

وهو - على ضوء ما فهمه من كتاب الاب روزيه - يبدأ بفحص نفسه من ناحية الكذب . ويروى هنا حادثا وقع له في صباه سبق أن رواه كذلك في الاعترافات Les Confessions هو حادث سرقة الشريط واتهامه ظلما الخادمة ماريون Marion ذلك الحادث الذي ظلت ذكره تؤرقه طيلة حياته . وهو هنا أيضا يصفى نفسه من بعض ما جاء مخالفا للحقيقة في « الاعترافات » من ناحية التاريخ مثلا أو بعض التفاصيل الصغيرة معللا ذلك بأنه لم يكن يبغى الكذب عامدا وإنما صدر ذلك عن ضعف في ذاكرته جعله يضع بعض التفاصيل التافهة موضع تفاصيل أخرى مثلها .

ولكن لم كان روسو يولى مسألة الكذب كل هذا الاهتمام ؟ لانه على مبدئه في الحياة وهو « تكريس نفسه للحقيقة » يترتب تصديق كل ما جاء في دفاعه عن نفسه في « الاعترافات » وفي « الحوار » و « الاحلام » كذلك .

والواقع أن روسو في الاعترافات وفي الحوار أيضا لا نراه يكذب الا في القليل النادر وفي أمور صغيرة أو لا قيمة لها . بل انه في منازعاته مع الفلاسفة مثل فولتير Voltaire وديدرو Diderot وغيرهما كان يلتزم الصراحة المطلقة بل كان يلتزم الجانب المضاد لصالحه أحيانا ومثال ذلك مسلكه من مدام دابنای Mme d'Epinaى نفسها حين أبى أن يصحبها في سفرها وما تلا من خروجه من عندها وحرمانه من العزلة التي كان يهواها في الأرميتاج L'Ermitage ويعزى ذلك الى حاجته الى الصراحة دائما من ناحية والى انه يجب أن يكون مستقلا حرا من ناحية أخرى .

ثم يستمر في تأملاته فيتابع جدلا منطقيا حول الكذب يتناول فيه تفرقات وتقسيمات وتدبيرات على جانب من الإبهام أحيانا . وفي رأيه أن الانسان لا يجب أن يكذب في أشياء ذات أهمية ولكن يمكنه أن يفصل ذلك فيما لا قيمة له وفيما لا يترتب عليه ضرر بنفس الشخص أو بغيره . ومع ذلك فالحقيقة عموما هي الفضيلة الأولى يجب اتباعها في كل الاحوال .

وروسو في هذه الجولة ليس مسوقا برغبته في ايجاد تعريفات مختلفة للكذب وظروفه فحسب بل انها الرغبة الحفية في تبرير تصرفاته والتخلص من تائب ضميره هي التي تدفعه دائما إليها .

وهو يقارن كذلك بين من يسمى نفسه الانسان الصادق وهو  
الفيلسوف . . وبين الانسان الذي يعتبر في نظره هو صادقا ومخلصا  
حقا ، الشغوف بالحقيقة والصدق . . انه يحاول هنا التخلص من خطايا  
بالقائها على الفلاسفة وهو يواسى نفسه بقوله : ان العدالة والحقيقة في  
ذهنه مترادفتان وهو عادل يتوخى العدالة . واذن فهو صادق يتوخى  
الحقيقة أيضا .

ولكنه برغم كل هذه الجهود يحس أن سكينته ليست كاملة فهو  
يقول : ولكن لأزال أحس ان قلبي ليس راضيا عن هذه التفرقات لدرجة  
اعتقيد معها اني غير مذنب» ولكن يعزى نفسه بالفكرة التي استهل بها  
الجولة الثالثة كما اختتمها بها وهي أن الشيخوخة هي وقت استكمال  
الفضائل . . فهو اذن ماض في اكتساب تلك الفضائل حتى آخر يوم له  
في الحياة .

وهكذا نجد أن هذه الجولة الرابعة متاهة منطقية مليئة بالتخريجات  
واللف والدوران وتتم عما يعتمل في قرارة نفسه من ندم واحساس  
بالذنب يلاحقه ويؤرقه .

وكأبما تعب من تلك الحيرة فنجده يطلع علينا بالجولة الخامسة  
يستعيد فيها أياما سعيدة . قضاها في جزيرة سان بيير Ile de  
Saint-Pierre معتزلا للناس بعيدا عن التفكير الذي يرضيه ويرهقه .



## الجولة الخامسة

قد تكون هذه الجولة أهم الجولات جميعا سواء من ناحية الوصف الرائع للجزيرة سان بيير Saint-Pierre أو من ناحية فلسفة جان جاك روسو لفكرة السعادة .

وقبل أن نبدأ في تناول ما جاء بها نقدم بملاحظة صغيرة على أن هذه الجولة من ناحية موضوعها تماثل تماما شطرا من «الاعترافات» Les Confessions (الجزء الثاني - الكتاب الثاني عشر) اذ يتناول تقريبا المعلومات التي ترد هنا بل وغالبا نفس الالفاظ ولو أنه سرد ذلك في «الاعترافات» بنظام يختلف تماما . ولكن لم فعل ذلك ؟ أهو جذب في تأملاته وتخيالاته ما جعله يعاود كتابة ما سبق أن أورده في أماكن فينقل عنه وعن نفسه مرة أخرى؟ ونحن نعرف أن روسو لا يحب أن ينقل شيئا سبق عرضه ، سواء كان له أو لغيره . . . إذ نراه يسرد أحيانا أقوالا لكتاب آخرين بشيء من التحريف معتبدا على ذاكرته دون أن يلجأ الى أصل ما كتب ذلك الكاتب لا لشيء إلا لأنه لا يحب النقل والتقليد . . . ألم يكن يجدر به أن يحيا في

نفسه ذكريات أخرى سعيدة لم يطرقها من قبل؟ من هنا يتضح لنا عمق الاثر الذي خلفته في نفسه اقامته في تلك الجزيرة الحبيبة الى نفسه بطبيعتها وعزلتها وهدوئها . انه لم يعد يذكر عنها الا الخير والهناء . . في حين أنه في « الاعترافات » يسوق وصفها في اطار من التنقل والاضطهاد الذي يميز تلك المرحلة من حياته .

واذن فالهدف من هذه الجولة الخامسة هو تعريف السعادة التي استمتع بها مستخلصا من وصفه للمكان الذي استشعرها فيه . وفي الجزء الاول من هذه الجولة يصف الكاتب الجزيرة وطبيعة الحياة التي كان يحياها فيها . . أما في الجزء الثاني فخطايره وآراؤه عن السعادة ومعناها .

وهو يستهلها لا مستذكرا جزيرة سان بيير Saint-Pierre فحسب بل اما كن أخرى بديعة عاش فيها . ولا ريب أنه كان يفكر إذ ذاك في الشارميت Les Charmettes عند مدام دوفوران Mme de Warens والارميتاج L'Ermitage عند مدام دابنای Mme d'Epinaى مونتمورنسى Montmorency عند المارشال دو لوكسمبرج Maréchal de Luxembourg وفيها جيعا ذاق جمال الطبيعة ومفاتها واستمتع بشبه عزلة ارتاحت لها نفسه . . ولكنه يتوقف مأخوذا بسحر جزيرة سان بيير وهي جزيرة لم تكن معروفة تماما حتى في سويسرا ولكن ريشة الكاتب الساحرة وجهت اليها الانظار وجعلتها مهبط السياح من كل فج منذ ذلك الوقت . والجزيرة بموقعها وسط بحيرة بين Le lac de Biennه كانت مهياة لحالة زؤسو النفسية إذ ذاك . . انها « تبدو كأنما جعل موقعها خصيصا من أجل من يحب الانطواء على نفسه » . . وهل كان هناك من هو في حاجة الى العزلة والانطواء أشد من روسو في ذلك الوقت بعد أن طورد ورجم منزله وذاق عذاب السفر والترحال ؟

وهو يبدأ وصفه بمقارنة بين شواطئ جزيرة سان بيير وشواطئ بحيرة جنيف Genève وفي جنيف قضى روسو مرحلة طفولته وعلى مباحج البحيرة فتحت عيناه وثيقظت أحلامه . . فالاولى تمتاز عن الثانية بالنظرة الرومانتيكية وكلمة romantique هنا تثير الدهشة في ذلك الوقت من القرن الثامن عشر وهي كلمة انجليزية من أصل ألماني لم تستعمل في اللغة الفرنسية الا منذ ذلك القرن . ولا ريب أن روسو استعملها هنا لانه كان بحاجة الى التعبير عن احساس جديد وجدها تترجمه تماما أو بالاحرى لينبيء بطريقة أدبية جديدة في التعبير، ويعهد جديد وهي الرومانتيكية Le Romantisme وكان المترجمون الفرنسيون في منتصف القرن الثامن عشر لا يزالون

يصبرون عن كلمة رومانتيك *romantique* بـ *pittoresque* أو *romanesque* أى يميل الى الشاعرية والخيال . ولعل المعنى هنا ينطبق عليه تعريف فينلون Fénelon فى «حوار الموتى» *Dialogues des morts* (١٧١٢) حيث قال «هذه أبداع صحراء يمكن أن يراها المرء . . ان الطبيعة هنا تبدو موحشة رهيبة ولكنها تثير الاعجاب وتحمل على أن يحلم المرء فى استمتاع» .

ولو أن روسو هنا يستعمل أيضا كلمة *Romanesque* فى نفس هذه الجولة وهكذا فتح روسو الطريق أمام هذه الكلمة فاستعملها فيما بعد كتاب وشعراء مرددين كلمة *Romantique*

ويتحسر روسو لانه لم يمكث فى تلك الجزيرة سوى شهرين . والواقع أن روسو بأعصابه المتعبة ونفسيته المرهقة وميله الدائم الى العزلة كان يود لو انه «سجن هناك بقية حياته» سجننا اراديا اختياريا يتفق أولا وقبل كل شئ مع ميوله وحاجته الى الراحة . . ولكن مجلس شيوخ برن Berne أصدر أمره بنفيه من الجزيرة فخرج منها مكرها مغلوبا على أمره .

والآن فيم كانت سعادته فى تلك الجزيرة ؟ انه كما يقول : « كانت هناك صاحبتى (أى تيريز لوفاسور) والمحصل وزوجه وخدمه وكلهم فى الواقع أناس طيبون ولا شئ أكثر من هذا» ، اذن لم يكن روسو اذ ذاك فى عزلة مطلقة . . كما انه لم يكن كذلك متعطلا عن العمل تماما فلم يكن الفراغ الكامل من ميول ذلك الكاتب ، بل كان يحب أن يتخلله عمل مثل ما وقد سبق أن بين ذلك فى «الاعترافات» (الكتاب الثانى عشر) . وكان يملا حجرته زهورا وأعشابا جافة «لاننى كنت اذ ذاك فى بدء ممارستى لدراسة النبات تلك الدراسة التى غرس دكتور ديفرنوا D'Ivernois فى نفسى اليها ميلا أصبح شففاء» . ثم هو يصف لنا بعد ذلك حلما فوق صفحة الماء انه يهرب خلسة من رفاقه فى الجزيرة «ليستلقى فوق زورق يبحر به وسط البحيرة وقد أدار عينيه نحو السماء» ، وهو يحل حلم اليقظة هنا تحليلا له أهميته البالغة لانه الاول من نوعه قبل أن يصف الزرومانتيكيون اندماج الانسان فى الطبيعة . . وهو يبين عناصر هذا الحلم :

أولا - ضرورة وجود حركة تؤدى الى اختلاجات النفس ( وهى هنا مد الماء وجزره) . .

ثانيا - الحالة التى ينتهى اليها ، أى البساطة الكافية للأحساس بالوجود « كان ذلك كافيا ليجعلنى أحس بلذة وجودى دون أن يرهقنى التفكير» .

**ثالثا - استدعاؤه بعوامل خارجية** « فلا أستطيع أن أنتزع نفسي منها دون مشقة » .

ثم ينضم إلى الجماعة فيلهون ويتحدثون ويتضحكون ولا عجب فهو يحب البساطة في كل شيء : البسطاء من الناس والبسيط من اللهو كما يحب الأغاني الخفيفة والموسيقى الايطالية المليئة بالاحساس والعاطفة. ويفضلها على موسيقى جلوك Gluck ورامو Rameau المعقدة في نظره .

من كل تلك الذكريات يستخلص روسو نظريته في السعادة :  
« ليست السعادة في اللحظات القصار من المتع الشديدة والهوى. ولكنها حالة بسيطة دائمة » .

ولا ريب أن الصدمات التي لقيها روسو في حياته في المجتمع وفي حياته العاطفية جعلته يجد السعادة في الهدوء الذي يحاول أن ينقله إلينا هنا أي في حياة تسمح لحياهه بأن يخلق ويخلق ، والتي تتفق تماما هنا وحالته النفسية والعقلية من جهة وسنه المتقدمة من جهة أخرى . إذ كيف نستطيع أن نسمى سعادة «حالة عابرة تتركنا والقلب منا خال فارغ» أليست تلك هي الرومانتيكية بقلقها وحيرتها ؟ ثم هو يستمر في سرد خصائص وظروف ومراحل تلك السعادة الكاملة وقد تجمعت كلها في جزيرة سان بيزر بل إن تلك الاحلام الصغيرة السعيدة يمكن تحقيقها في سجن الباستيل مثلا مادام المرء هادئا بعيدا عن المنغصات ولو أنها حينئذ تكون أقل متعة منها في «جزيرة خالية حدودها طبيعية لا تعرض للنظر فيها الا صور ضاحكة» .

ولكننا نراه أخيرا في هذه الجولة وفكرة الاضطهاد تلح عليه . . انها تلاحقه حتى في أجمل ساعاته وأسعددها فيتمنى أن يعود ليقضى بقية عمره في تلك الجزيرة «ولكن الناس لن يدعوا لي مثل ذلك الملاذ البديع حيث رفضوا أن يتركوني» . . ولكنهم مع ذلك لم يمنعوه من أن ينتقل إليها على أجنحة الخيال . . في أحلام يقظته « حيث تنقلت الأشياء من حواسي أثناء نشوتي » وهو هنا في هذه النشوة يكاد يشبه شرقيا متصوفا في لحظة اشراق .

ثم تأتي أخيرا الصرخة المتحسرة « وأسفاه ! » أسفا على لحظات يرى نفسه ماضيا في سبيل الابتعاد عنها حيث يتمنى أن يعيشها من جديد .

## الجولة السادسة

لئن كانت هذه الجولة أقل امتاعا من سابقتها الا أنها لاينقصها أن تكون على شيء من الأهمية لما تلقيه من أضواء على استعدادات روسو من ناحية عمل الخير وحيه لاسعاد الناس وهي تشبه الجولة الرابعة من ناحية انها تعالج احساسا من أحاسيس روسو في تعامله مع الناس . . وهذه الناحية ترددت كذلك في « الحوار » ومررنا بها كذلك في الجولة الثالثة حين تكلم روسو عن اصلاحه لنفسه .

يعود بنا روسو هنا الى باريس . . حيث « وبالامس فقط » كان ذاهبا للاستعشاب على ضفة نهر ال « بييفر » Bièvre في ناحية « جنيني Gentilly واذا به منعطف متحاشيا الممرور ب « بوردانفير d'Enfer ( أى باب جهنم ) على غير عادته فيتساءل لم أراد أن يتحاشى السوابة ؟ انه يذكر أن ذلك كان بسبب طفل صغير لطيف لكنه أعرج دأب على تحيته يوميسا وكان يسره ذلك فى مبدأ الامر ولكنه أصبح يضيف به فى النهاية ويقرر ذلك فى السطور الاولى من تلك الجولة اذ يقول

« ليست هناك حركة آلية لا نستطيع أن نجد لها تعليلا في قلبنا اذا ما نحن عرفنا كيف نتغلغل فيه بأحسين عن ذلك التعليل » ومن ذلك نذكر كيف كان روسو يميل الى طبقة التسعب البسيطة وكيف كان يتوجس خيفة من المقابلات المنتظمة كما كان يخشى كذلك أن يتعرف الناس عليه . . ولقد سبق ذلك في « الحوار » فهو يظن دائما أن أعداءه يرسلون من يتجسسون عليه ويطلعون على أحواله الخاصة .

« ولقد تحولت - ولست أدري كيف تحولت - هذه المتعة التي غدت عادة بالتدريج الى نوع من الواجب ما لبثت أن أحسست بالضيق منه » .

من هنا تبدأ سلسلة تأملاته التي تسلمه الى تحليل خاصة في طباعه هي الخوف والهروب من كل ما يلزمه أدبيا . . انه يحب عمل الخير وان يسعد الناس ولكن ما ان يحس انه أصبح مقيدا بواجب حقيقي أو مفروض وعندما يعتقد أن أحدا ينتظر منه تكرار خدمة ما حتى تثور الحرية فيه ويعمل جاهدا للتخلص من سلطان الناس عليه ، ولكن سرعان ما يجد لنفسه ظروفًا مخففة فهو يقول انه طالما عمل الخير ولكنه كان ينقلب ويفسر ضده وهو اذ يتكلم عن «مغامرين كانوا يأتون للتسلط عليه وارغامه» يردد مقاله سابقا في «الحوار» وخاصة في «الحوار الثاني» . وهو يقول : «اننى وان لم أكن فاضلا الا أنى رجل طيب القلب» وهو يردد هنا أيضا مقاله من قبل فى الجولة الثالثة .

وإذن فقد انتهى الى أن الامتناع عن عمل الخير خير من التعرض لتسلط الناس عليه وهو فى صراعه مع ضميره الذى يخزه يلقي اللوم أيضا على أولئك الذين تغيروا منذ عشرين سنة أى منذ القطيعة التى كانت بينه وبين مدام دإبناي Mme D'Epinaى فهو حين يشعر انه خدع لا يستطيع أن يتغلب على نفوره ولا يستطيع بالتالى أن يقدم على عمل الخير فيعتبر «أى عمل صالح يقدم له كأنما هو شرك جديد ينصب له» .

ولكن روسو يخطيء اذ يقرر انه فى الوقت الذى يكتب فيه لم يكن له أصدقاء من بين الناس منذ عشرين سنة ، حقا انه أبعد الكثيرين عنه ولكن كان له مع ذلك أصدقاء مثل ديكلو Duclos وبرناردين ذو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre وديفرنسو D'Ivernois وهو الوحيد تقريبا الذى لم يجد ما يعتب عليه به حتى مات .

كنا أنه ليس صحيحا أنه لم يصادف فى العشرين سنة الأولى إلا أشخاصا كرماء شرفاء يعملون دائما لأصله فكثيرا ما قابل متهم من تسببوا

له في اذى مادي أو معنوي كالحفار الذي كان يعمل عنده ويسىء معاملته والقنص الذي عرقه بسر بعض الانحرافات الخلقية والشهبان المغامرين القاسدين الذين قابلهم في شامبرى Chambéry وفي الشارميت Charmettes والذي كانت مدام دفوران تحاول التفرقة بينهم وبينه .

وأخيرا - وكعادة من يهيمنون في الخيال فيستحوذ عليهم ويفرهم بالابتعاد عن الواقع بأساليب خرافية - يتمنى روسو لو أنه أوتى خاتم جيغيس Gygis ( الذي ذكره سيسرون واذن لفعل كل ما يحلو له دون أن يراه أحد . . . فهو ينعى شهرته التي ألبت الناس عليه ومنعته من اسداء الخير جهرا . . . ولكنه يعود فيخشى لو انه امتلك ذلك الخاتم أن يفريه سلطانه يارتكاب مغريات لا قبل له على الصمود أمامها . . . ولكن سيسرون ينتهي إلى القول بأننا يجب أن نفعل الخير ولو انه ليس هناك من يرانا . . . وروسو يحب أن يرى السعادة ترفرف على الجميع ، واذن لما لم يكن مخدوعا من أحد قلن يسىء استعمال الخاتم . . . انه يتغنى بطيبته وبنواياه الحسنة نحو الناس . . . ولكنه لن يكون غير مرئي فحسب بل سيستطيع أن يقرأ خفايا قلوب الناس واذن فلهذا الحلم السعيد نتائج : منها أنه سيكون رايه متعقلا متزنا عن الطبيعة الانسانية «اننى اذ أقرأ في يسر ما في قلوبهم قد ألقى منهم بعضا ممن يستحقون محبتى وبعضا آخر ممن يستحقون بغضائى» .

ومن نتائج استعمال ذلك الخاتم أيضا انه قد يستطيع اتيان المعجزات وان يقيم العدالة السمحة الرحيمة بين الناس بدلا من العدالة المتزمتة القاسية . . . وهو يشير هنا الى معجزات القديسين كزيارة قبر سان ميدار Saint Médard (وكانت باريس كلها سنة ١٧٢٨ تؤمن بذلك وتتسابق إليه ليشفى المرضى من الناس) .

وأخيرا . . . ان الجسد ضعيف . . . وهناك احتمال اتيان حماقة ما . . . واذن «فبعد تأمل الأمر مليا . . . اعتقد أنه من الخير أن أطوح بخاتمي السحري قبل أن يتحتم على الاقدام على حماقة ما» .

وتنتهى به هذه الاحلام الحلوة الى أنه يكون «مخطئا لو انه تأثر بالطريقة التي يرونها بها . . . اذ لست أنا الذي يروننى على هذه الصورة ، وهذه الراحة فى التفكير . . . هى شأن الخياليين المصابين بالشيزوفرانيا (الفصام) - ومن بينهم روسو - الذين يعودون من حلم خيالى حلو لاصلة له بالواقع على الاطلاق وهم فى أحسن حالاتهم النفسية .

وينتقل روسو بعد ذلك الى فكرة اخرى يعزو عن طريقها عدم تقبله  
لحياة المجتمع الى ميله الى الاستقلال ثم هو يورد تعريفا للحرية فيقول  
« لم اعتقد ابداً ان الحرية من شأنها ان تجعل المرء ما يريد ولكنها في الا  
يعمل ما لا يريد » .

ثم هو يقابل بين هذه الحرية وبين تعصب الفلاسفة الذين يكرهون  
الحرية في الآخرين ولا يريدونها كذلك لانفسهم .

ثم يعود الى التفتي بقلبه الحير فيقول : « اما عن الشرف فلم يكن لارادتي  
منه نصيب في حياتي واني اشك ان هناك انسانا في هذه الدنيا ارتكب  
منه اقل مما فعلت » . فهو يضع القدم هنا وهو مطمئن الى انه اراح ذهنه  
وضميره مردداً انه وان لم يكن افضل الناس فهو احسنهم بل هو ربما  
- في رأي نفسه - كان اقرب الى الملائكة منه الى البشر .



## الجولة السابعة

تبدأ هذه الجولة بجملة تجعلنا نعتقد أن روسو كان بصدد كتابة مؤلف أكثر أهمية « لم يكذب يوماً سجل أحملي الطويلة ولكنني أحس أنه مشرف على نهايته » وأذن فمن الجائز أن يكون روسو قد توقف عن الكتابة وهو لا يزال في الربع أو الثلث الأول من مؤلفه لأنه كان ينوي المضي في كتابة « سجل طويل » .

والجولة ذات موضوع جديد أصيل ولو أنها مثل الأخرى من ناحية كونها تأملات خاصة محورها روسو نفسه . . انها - الى جانب هذا - دفاع عن روسو نفسه . . وأن لم يكن دفاعه هنا في حرارة الدفاع الذي جاء بالجولات الرابعة أو الخامسة أو السادسة مثلاً . .

فهى تتناول موضوع الاستعشاب ودراسة النبات ولا بد أن يجيء دفاع روسو عن نفسه امام من يهاجمون هذا اللون من العمل أقل حرارة من غير شك من دفاعه عن نفسه ضد من كانوا يتهمونه بالكذب أو بکراهيته للناس مثلاً . .

وليس روسو أول من دعا الى دراسة النبات وجبذها فقد سبقه فنلون Fénelon وبوفون Buffon ( الذي كتب عن « التاريخ الطبيعي » ) ولو ان كتابه كان لا يزال في مرحلة الاعداد للنشر حين كان روسو يمارس الكتابة في النبات اذ لم يتم نشره الا في عام ١٧٨٨ أى بعد وفاة روسو بعشر سنوات . وكانت دراسة النبات من الدراسات التي شاعت بفضل لينييه Linné الذي أعجب به روسو كثيرا في أول الامر ( ولو ان اعجابه به فتر بعد ذلك ) وكان يقوم بهذه الدراسة جماعة من العلماء الممتازين مثل آل جوسيو Jussieu ( الذين أورد روسو ذكرهم في الجولة التاسعة ) . ومنذ منتصف القرن الثامن عشر كانت ترد بالصحف عبارات مثل « التاريخ الطبيعي هو من بين العلوم جميعا العلم الذي يمارس بغناية بالغة في عصر مستنير مثل عصرنا » . واذن فان روسو وجهوده في هذا المضمار لا تمثل سوى دور العضو في جماعة النارسين والباحثين وليس فيها فضل القيادة أو التوجيه . ويشير مورنيه M: Mornet في كتابه عن علوم الطبيعة (١) الى دور روسو بقوله « ان روسو يبين أن دراسة العلوم الطبيعية واجبة ومفيدة لا في ميدان جمال العقل فحسب بل في جمال العاطفة » .

ويحدد روسو في هذه الجولة بدء هوايته . . . . . لقد تلقى الانطباعة الاولى لحب الطبيعة في سويسرا حيث تفتحت عيناه على الخضرة والريف البهيج ثم هو يذكر الدكتور ديفرنوا D'Ivernois الذي طالما صحبه في جولات استعشاب طويلة والذي امتدت صلته به وصداقته له حتى نهاية العمر ثم ينتقل بعد ذلك مباشرة الى أول محاولة للدفاع عن نفسه في هذه الجولة . . . . . ولا عجب فان هذا الانسان المنعزل عن المجتمع يحس دائما بحاجة الى أن أن يزود عن نفسه جميع الاتهامات التي تنهال عليه منه فتراه في « الحوار » Les Dialogues مثلا يبرر هوايته لنسخ الموسيقى أما هنا فهو يبرر ميله لدراسة النبات . . . . . وهكذا كانت آراء الناس تشغله دائما ولا تفتأ تعاوده وتطارده حتى وهو هائم بين ربوع الطبيعة . .

وهو يعلل عدم قدرته على التفكير وضعف خياله عن التحليق في أجواء الأحلام انسياقه الى التأمل الدقيق في مشاهد الطبيعة . . . . . وهكذا يقابل ما بين نفسه وبين أولئك الذين لا يحسون بالطبيعة ولا يرون فيها سوى مورد للعقاير والوصفات الطبية . . . . . بل ان الطبيعة - الى جانب ذلك - تلهيه عن الكراهية وعن الرغبة في الانتقام وهكذا « ينتقم من

مضطهديه على طريقته ، اذ يغدو سعيدا على الرغم منهم وهو ما سبق أن أوردته في الحوار Les Dialogues في الجولة الثانية من الاحلام Les Rêveries وبرغم هذا الميل لا نراه يستهدف نفعاً دنيوياً بل ان هذا الميل يدفعه الى التقرب الى الله والتأمل فيه ( ولعل في ذلك رداً على ما قرره من اتهام أعدائه له من قبل في « الحوار » Les Dialogues من أنه يجمع الاغشاب ليصنع منها العقاقير ) كما يجعله يزيد من معرفته بنفسه . تلك المعرفة التي كرس لها أيامه الاخيرة .

انه يحب الطبيعة ويتعشيقها . تلك الطبيعة الخضراء التي تكسو الارض كحلة زاهية فلا شيء يوحش النفس أكثر من مشهد ريف مقفر عارٍ،

ولقد وجد نفسه - في هربه من الناس وميله لاعتزالهم وفي عجزه عن التفكير العميق - مضطراً الى أن يشغل بما يحيط به وماذا هناك أجمل من الطبيعة تحنو عليه وتلفه وتحيط به . ووجد ذلك في مملكة النباتات لان مملكة المعادن تبدو شاقة منفرة ولان مملكة الحيوان تتطلب عمليات التشريح التي تثير الاشمئزاز وخاصة بالنسبة للنفوس المرهفة الحساسة . وهو يعدد مزايا الدراسة التي فضلها على غيرها ولا يفوته أن يظهر عدم ثقته بالطباء وكرهيته لهم فيقول . . « اننى الدليل الحى على بطلان فهم وعدم جدوى علاجهم » وينتقل بعد ذلك الى الذكريات فيذكر استعشابا قام به في ناحية روبيل Robaila ( وهو جيل يسمى اليوم Robela على مسافة فرسخ من موتيه في مقاطعة نيوشاتل ) وهو يذكر أسماء النباتات هنا باللاتينية بعد أن ذكرها من قبل في هذه الجولة بالفرنسية ولا ريب أنه وجد هذه المفردات في مؤلف «لينيه» الذى كان روسو معجباً به . . وفي جولته في ناحية روبيل يصور لنا خيبة أمله اذ كان يظن نفسه وحيداً وأنه أوغل في عزلته الى حد تخيل فيه أنه كريستوف كولومب ونحن نقول - الى جانب ذلك - بل روبنسن كروزو ( الذى أوصى بقراءته في اميل ) حيث يقول « لا شك اننى أول مخلوق توغل حتى هذا المكان » .

ويشير هنا الى تذكره استعشابا آخر من النوع نفسه قام به خلال اقامته في جرينوبل Grenoble وكان يصحبه مسيو بوفيه Bovier ( منجم فى الاقليم ) الذى كان يلازمه ويسهر على سلامته ويروى قصة فحواها : أنه أكل من فاكهة نبتة أحد المارة الى أنها سامة ومع ذلك فلم ينسب مسيو بوفيه بكلمة . . فروسو هنا - وان لم يتهم بوفيه اتهاماً

صريحاً - يدخل في روعنا مع ذلك رغبة الأخرى في تركه يفوت مستبواً  
وأغلب الظن أن زوج الشك والريب التي تسلطت على روسو في أعوامه  
الأخيرة وجعلته لا يثق حتى في أصدقائه المخلصين هي التي صورت له  
المسيو بوفيينه على هذه الصورة ويؤكد ذلك أنه لم يجرؤ على اتهامه في  
صراحة أو أنه بعد تاريخ الحادث ( عام ١٧٦٨ ) جعل يخلط بين ذكرياته  
بعد أن ضعفت ذاكرته - كما يعترف هو بذلك \*

## الجولة الثامنة

كان من الممكن أن تصبح هذه الجولة ذات أهمية بالغة لو أن الجولات بدأت بها ٠٠ وهي تكمل الجولة الخامسة من حيث التعبير عن السعادة لدى روسو وتكمل السيادة كذلك من حيث تبرير صلته بالناس ولو أنه هنا لا يبرر وجود تلك الصلات بهم بل يفسر انقطاع هذه الصلات بينه وبينهم انه يتغنى هنا بالسعادة في العزلة والوحدة ٠٠

كانت فكرة اعتزال الناس تهيم على روسو وتلاحقه ٠٠ وكان ذلك سببا من أسباب مهاجمة الفلاسفة له ٠٠ أما هو فكان يحس انه محوط بمؤامرات تحاك له في الخفاء ٠٠ وظل - كما يقول برناردين دو سان بيير Bernardin de Saint Pierre (١) « ظل روسو يمتدح مزايا العزلة حتى آخر لحظة من عمره لقد قال كاتب - ويقصد به هنا ديدرو - أن الشرير هو الذي يعيش وحيدا ولكن ماذا كان يمكنه أن يصنع في العزلة ؟ تعس هو ذلك الذي لا يعرف آلامه الخفية »

Bernardin de Saint-Pierre : La Vie et les Ouvrages de Rousseau (Edition Sourian, p. 84). (1)

ولقد دافع روسو من قبل في « الحوار » عن تلك العزلة وهو هنا يبسط المشكلة ويدرسها مفصلة : فهو يبين أولا التعارض بين سعادته في الوحدة وتعمسه وضيقه بالناس حين يكون بينهم وهو يدعش عندما يسترجع الساعات التي كان يظن نفسه سعيدا خلالها اذ يجد انها لم تترك له من حلو الذكرى ما تركته تلك التي ذاق فيها ألوان الآلام . . . واذن فقد كان ذلك هباء عابرا لا يمكن أن يسمى سعادة . . . وهو في ذلك يؤكد ما أورده في الجولة الخامسة « كيف يمكن أن نسمى سعادة حالة عابرة تتركنا والقلب منا خال فارغ ؟ » وهو يقارن هنا بين هباء ظاهري وتعمس حقيقي في ماضيه ، وبين تعمس ظاهري وهناء حقيقي في حاضره . . . ويكشف عن لون من الغرور حين يقرر أنه يفضل أن يكون هو نفسه بكل شقائه من أن يكون « واحدا من هؤلاء الناس بكل ما هم فيه من نعيم » وهو يتساءل : كيف وصل به الامر الى هذا الحد ؟ وكيف غدا غير مبال وسط ما يحيط به من شرور ؟ وكيف اكتشف المؤامرة فقلبت كيانه كله رأسا على عقب؟ انه يشير بذلك الى خصومته مع مدام دابنای Mme D'Épinay وهو يقص ذلك أيضا في الاعترافات Les Confessions ( في نهاية الكتاب التاسع ومستهل العاشر ) ولكن في ثبات وهدوء أكثر مما يفعل الآن . . . ولا ريب أن حالته النفسية التي ساءت بعد « الاعترافات » جعلت تلك الذكريات أشد سوادا واضطرابا .

ولقد حاول العثور على رجل عاقل يفهمه ويتوسط بينه وبين أعدائه ولكن عبثا فقد كانت المؤامرة شاملة . . . واذ ذاك - بدلا من اليأس القاتل - وجد السكينة والهدوء . . . بل السعادة . . .

ولعلنا نتساءل : أية سعادة تلك التي يحاول أن يقتنعنا بها أو يقتنع بها نفسه . . . تلك التي يذكرها وسط تلك الاوصاف والملابسات من اليأس والألم والاضطهاد والعذاب وجو المؤامرات . انه يصف عذابه فيجعلنا نحسه معه وكأنما حدث له للتو . . . أفكان المسكين سعيدا حقا ؟ أم أنه تعب من الألم وتعب من تضاريف الاقدار معه فهو يمثل أولا على نفسه ويمثل ثانيا على الناس ليبدو - وذلك ما يناسب غروره - وقد انتصر على كل ذلك . . .

وهو يحتقر الآلام المادية ويبحث عن مصدر لآلامه فيجدها في كبريائه . وفي « الحوار الثاني » يتناول روسو تلك الفكرة وتقريبا بنفس الالفاظ التي يكاد يسردها بها هنا . واذن فليخفق تلك الكبرياء مادامت ننغص عليه حياته وتمنعه حتى من الاستماع الى عقله حين يوصيه بتقبل

الاقدار كما هي والمصائب كما تحل دون معاندة أو اصرار وعندئذ يمكنه أن يرى « الغنى والفقر والصحة والمرض والمجد والمهانة .. كلها بلا مبالاة » وهو اذ بلغ هذه الحال من عدم المبالاة يرجع الفضل الى أعدائه لا الى حكمته وفي ذلك بعض التكفير عن كل ما سببوه له .

انه يعيش منذ الآن مع كائنات من خلقه هو لا يخونونه ولا يسببون له حزنا .. كائنات من خلق خياله لا يخشى منهم ضرا أو هجرا ..

وبعدئذ يشرح روسو الحالة النفسية التي يكتب عنها فيقول « ولما كانت حواسي مهيمنة على نفسي فاني لم أستطع أبدا أن أقاوم انطباعاتها وهذا هو الشرح الذي يقدمه عن خلقه وطبيعته في « الحوار الثاني » وهو يلاحظ انه عن تجربة متكررة يجد نفسه سعيدا في الاماكن التي لا يصادف فيها انسانا ولكنه يعود فيذكر انه لا يستطيع أن يصمد أمام أمر يسبب له ألما فان « كلمة ، اشارة ، نظرة بغضاء المحبها أو كلمة مسمومة أسمعها تكفي لان تجعلني أضطرب أشد الاضطراب » وهو يقارن ثانية بين اليوم والأمس .. اليوم حيث يحس السعادة في عزلته عن الناس والأمس - أي عندما كان يعاشر المجتمع - حيث كان يحس بالضيق وعدم الراحة .

ولتحليل روسو هذا أهميته : فهو تطبيق للنهج الذي أعلنه في الجولة الاولى حيث يريد أن يدرس نفسه بعناية ومعرفة ودراية .

من هذا كله .. ومن مكابرتة اذ يقول انه «سيد نفسه يفعل مايشاء» يتبين خوفه الدائم وقلقه .. فهو هنا كانسان يخاف الظلمات فيغني عساه يشجع نفسه على تحملها .

وخلال هذه الجولة كلها نحس بروسو وهو يحاول أن ينفى عن نفسه تهمة « الشرير هو الذي يعيش وحيدا » ويحاول أن يرد على ذلك الاتهام ويؤكد انه سعيد ويحاول أن يثبت تلك السعادة فيؤكدها مرة أخرى ليقتنع نفسه انه كذلك .

ولهذا كله وللحالة النفسية المضطربة الهادئة حينما الثائرة أحيانا كانت هذه الجولة البديعة مؤثرة حقا تمس شغاف قلوبنا .

ترى أكان روسو صادقا ؟ أم انه أحسن الدفاع فحسب ؟

## الجولة الثالثة

وهذه الجولة مثيرة جاذبة. يرجع ذلك الى أنها تتناول موضوعا مؤثرا ، بل يكاد يكون رهيبا، هو مسألة هجر روسو لأطفاله ، وكذلك الى تنوع في موضوعها وخلوها من مناقشات مجردة أو عامة كما حدث في الجولتين الرابعة أو الثامنة مثلا . انها اذن تتناول مسألة أطفاله الذين لإزمه الاحساس بالذنب من أجل اهماله لهم حتى آخر حياته وكانت سببا في انتقاد الفلاسفة والناس له وصيهم اللعنات عليه .

وفي هذه المرة تنبعث تأملاته من حادث غير ذي أهمية يرى فيه اصبح اتهام يشير اليه ويعرض به فيشكك ويشور ويهيب مذعورا ليسسوق أدلته وبراهينه وليبرر مسلكه أمام نفسه وأمام الناس وتتسع تلك التأملات وتزداد اتساعا حتى لتنتهي الجولة على غير ما بدأت به .

أما الحادث الذي أثار اهتمامه فهو مجيء السيد/ب عنده ليريه في تحمس بالغ مديحا من سبع صفحات في شخص مدام جيوفرين Mme Geoffrin وجهه لها الفيلسوف دالامبير



M. d'Alembert وأما مدام جيوفرين فصديقة للفلاسفة كانوا يجتمعون في صالونها حتى لكان ديدرو Didero يناديها « ماما » .

وأما الفقرة التي لم تعجب روسو فهي أن مدام جيوفرين « كانت تجد متعة في رؤية الاطفال والتحدث اليهم » وكان ذلك كافيا كي يهيج روسو معتقدا أن دالامبير يخزّه في موضع الالم ويعرض به . . . وخاصة وأن دالامبير كان عدوا له منذ عام ١٧٥٧ وانه وضع تلك الفقرة عامدا متهما روسو بعدم حبه للاطفال عامة مادام قد أودع اطفاله ملجأ اللقطاء . وينبرى روسو ليذود عن نفسه الاتهام مستشهدا بحوادث صغيرة تبرهن على حبه للاطفال ورعايته لهم وحده وعطفه عليهم .

وقد ناقش روسو هذا الامر طويلا في « الاعترافات » Les Confessions وعلق عليه في « الحوارات » Les Dialogues ثم تناوله كذلك بطريق غير مباشر في « الجولة العاشرة » حين سألته احدى السيدات وكانت حاملا عما اذا كان قد رزق بأطفال - وكان فولتير قد أثارها أيضا قبل ذلك بإثني عشر عاما تقريبا حين كتب عن « مشاعر » مواطني جنيف Genevois sentiments des citoyens de Genève ويقال ان مدام دابنای والدكتور ترونشان Docteur Tronchin هما اللذان أخبراه بذلك كما أن روسو نفسه في كتاب « اميل Emile » اعترف ضمنا بذلك وكان يعتقد أن ذلك الاعتراف كان كافيا لان يوفر عليه لوم الناس . . . . وأما في « الاعترافات » فقد ساق تبريرا واهيا فحواه أن الشبان في ذلك الوقت كانوا يتباهون بمغامراتهم التي كانت ثمارها تودع ملجأ اللقطاء ببساطة مما جعله يفكر أنه « ما دامت تلك عادة البلد التي يعيش فيها فلا حرج من اتباعها » . . . كان يتكلم اذ ذاك وكانما تركه لأطفاله امر طبيعي . . . أما هنا فهو متوتر الاعصاب نائر يتلمس مهربا من ضميره .

وأطفاله هؤلاء أنجبهم - كما نعلم - من أم جاهلة هي تريز لوفاسير Thérèse Levasseur تمت الى الطبقة الدنيا بصلة وثيقة اذ كانت تعمل خادما تغسل الملابس وتقوم بكيها في منزل بباريس وكانت - باعتراف روسو - غبية لا تحسن القراءة أو الكتابة ولا عد الأرقام ولا تعرف الشهور أو الوقت أما أمها فكانت امرأة شريرة نغصت على روسو حياته لفترة طويلة ويقال انها كانت تتآمر مع الفلاسفة على روسو وتمدهم بالمعلومات المختلفة عنه .

ويبرر روسو اهباله لأطفاله بقوله انه لا يستطيع أن يقوم بنفسه على تربيتهم وأن تنشئتهم وتربيتهم كانت تتم على أسوأ الصور لو أنه عهد بهم الى تيريز وأسرتها . . بل انه يرتجف اذ يفكر في المصير الذي كان ينتظرهم . . وهو يسوق هنا مثالا لـ « محمد وسعيد » وان ما كان ممكنا أن يصنعه أولاده معه هو ما صنعه سعيد بأبيه اذ حرضه محمد ضد أبيه فقتله . . ونحن لا ندرى مصدر القرية التي يوردها هنا روسو على سبيل الاستشهاد . . وأغلب الظن أن مسرحيات فولتير في ذلك الوقت – وكان يتناول فيها شخصيات دينية من الشرق مشوهة من غير شك – هي مصدر المثل الذي يورده روسو . . وينم ذلك عن جهل بالديانة الاسلامية السمحة والاحداث التي تمت ابان الرسالة الاسلامية ويعزى ذلك الى أن أوربا في القرن الثامن عشر لم تكن قد نالت قسطا كافيا من المعرفة بالشرق ودياناته . . أو أن ذلك كان نقضا في معلومات روسو نفسه عنها . . وعلى أية حال فالمقارنة هنا لا محل لها اطلاقا فان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يحرض شخصا يدعى سعيدا على قتل أبيه أو غير أبيه .

والاسباب التي يوردها روسو هنا تتلخص في أنه كان يحب الاطفال في شبابه ويلهو معهم ولم يكن لديه وقت لدراستهم . . أما الآن فيستطيع أن يجد متعة في ذلك . . ثم انه من غير المعقول أن يكتب روسو كتاب « اهيل » Emile و « هلويز الجديدة » La Nouvelle Héloïse ثم يتهم مع ذلك بعدم حبه للاطفال . . ومن المعروف انه أبدى في « اهيل » رعاية وعناية فائقتين بالطفولة عامة . . وفي « هلويز الجديدة » لوحة من أبداع اللوحات العائلية أظهر فيها روسو اهتمام الابوين وشغفهما وتضحيتهما من أجل الأبناء . . ويمضى روسو في دفاعه عن نفسه فيقول انه لا يتصل بالاطفال اليوم لانه لايعرف كيف يحادثهم والى أنه قد يخيفهم بمظهره بعد أن أمسى عجوزا .

ويروى روسو ثلاثة من الحوادث الطريفة برغم انها واهية في الدفاع عن موضوع روسو نفسه وغريبة عليه .

أما الاولى – فتشير الى أنه تعرف على طفل في كليننكور Clignancourt وهي قرية صغيرة من ضواحي باريس – ولكن أباه بعد أن علم بذلك أبعده طفله عنه مما أسف له روسو وترك في نفسه أثرا أليما . . وهذه لمحة من نواحي الاحساس بالاضطهاد لديه .

وأما الثانية – فهي دفاع عن مبدأ المساواة الذي كان ينادى به أكثر منه دليلا على حبه للاطفال – اذ يقابل – هو وزوجته رهطا من الفتيات في

رفقة راهبة .. وتصادف مرور بائع حلوى فاشترى للجميع منها وهو يحرص على المساواة بينهم فيما يحصلن عليه من حلوى - ويبين روسو كيف انه بنقود قليلة حصل على سعادة غامرة اذ ادخل السرور الى نفوس الصغيرات والراهبة .

وأما الثالثة فكانت فى الشوفريت Chevette وهى تشبه الاولى قليلا وزع فيها تفاحا كانت تحمله بائعة فى سلة على مجموعة من الفلاحين من سفوا Savoie ويقابل هنا ما فعله هو بما يحدث فى بعض الاحتفالات حين يرمى علىة القوم بعض الحلوى للفقراء الذين يتداهسون ويتضاربون لالتقاطها . وهنا تبدو كراهيته للأغنياء واحتقاره لهذه الطبقة المترفة .

أحب روسو دائما المتع البريئة البسيطة وكان يضيق دائما بوجوده بين علىة القوم فى حفلاتهم بل انه كان يجد حرجا فى مجاراتهم حتى قال عنه « برناردين دو سان بيير(١) » « ان رغبة روسو فى أن تحذو فرنسا حذو سويسرا فى مباحجها الشعبية خلق من غير شك أسلوبا جديدا لها وساعد على اقامة الاحتفالات الثورية » .

ثم يعود روسو فيطرق موضوع العزلة فى صورة جديدة فيقول انه برغم اللذة التى يحسها اذ يرى الآخرين سعداء فان وجوده بينهم أيضا يسبب له فى كثير من الاحيان آلاما نفسية تجعل صحبتهم شاقة على نفسه وذلك اذا ما أحس من ناحيتهم بنظرة معادية أو احساس غير ودى - وقد ذكر مثل ذلك فى الجولة الثامنة حيث يقول انه يسرع بمغادرة المدينة حتى يتفادى وجودها ، فقد تعبر عن عداؤها له وهو يسوق هنا على سبيل المثال المحاربين القدامى الذين كانوا يحيونه فى بشاشة فى مبدأ الأمر ولكنهم أخذوا يتجنبونه بعد ذلك لانهم - كما يظن - تعرفوا على شخصيته عن طريق زملاء لهم .

أما آخر واقعة يسردها فهى معاونته لواحد من هؤلاء المحاربين القداماء فى عبور البحيرة وتصدقه عليه فى لباقة بما قد يشتري به تبغسا وينوه بالروح السمحة الودود التى لمسها فى ذلك الرجل مفسرا ذلك بجهل الاخير بشخصه وعدم تعرفه عليه بعد .

ثم يختتم موضوعه - بمدح لكرم الضيافة عموما ولا ينسى بهذه المناسبة أن يسخر من الهولنديين الذين « يتقاضون ثمن ارشادك عن الوقت » .

وهكذا أخذ روسو يبتعد - بسرده لذكرياته التي يتغنى فيها بكرمه وشهامته - عن نقطة البدء في هذه الجولة ١٠٠ فنجد الصلة قد انقطعت بين موضوع حب روسو للإطفال خاصة وحبه للإنسانية عامة

ومع ذلك فهي هامة اذ تسوق لنا مشاهد حية وعادات من القرن الثامن عشر من ناحية وتلقى ضوءاً آخر على مدى أسي الكاتب وندمه على ما اقترف في حياته وقلقه البالغ وهو يستعد لملاقاة ربه من ناحية أخرى .

## الجولة العاشرة

تنتهى « أحلام يقظة جوال منعزل » بعاشرة الجولات .  
لم يقدر لصاحبها أن يكملها وكان من الجائز أن يكتب فيها  
أجمل ما سطر قلمه فى هذه الجولات . ويحدد روسو تاريخها  
فيقول « اليوم » يوم عيد الفصح المزهر وقد مضى على معرفتى  
الأولى بمدام دوفواران Mme de Warens خمسون عاما ،  
كان ذلك فى الثانى عشر من ابريل من عام ١٧٧٨ .

وانا لنحس بالأسف اذ لم يتم روسو هذه الجولة بالرغم  
من مرور ما يقارب ثلاثة شهور قبل أن ينتقل الى الدار  
الآخرة . ذلك لان الصفحتين اليتيمتين فيها هما - من غير  
شك - أكثر ما كتب فى الاحلام أصالة وسجرا . واذا نحن  
تذكرنا ماقاله فى الجولة الاولى من أن هدفه هنا دراسة نفسه  
فحسب نجد أننا بعدنا كثيرا عن ذلك فى هاتين الصفحتين .

ومدام دوفواران Mme de Warens هذه هى « فرانسواز  
لويز دولاتور » Françoise Louise de la Tour ولدت فى عام  
١٦٩٩ فى أسرة من طبقة النبلاء وفقدت أمها وهى طفلة فكفلتها

عمتها ٠٠ ثم من بعدها زوجة أبيها ٠٠ وبعد موت أبيها قضت عامين في معهد لوزان Lusanne حيث نالت قسطا من دراسة الموسيقى الى جانب ما كانت تطلعه من كتب من كل نوع وخاصة من كتب في الفلسفة والطب ثم تزوجت من أحد الاشراف وكان يكبرها كثيرا وكان وريثا لاقطاعية فواران Warens وهي تشبه في ظروفها روسو من نواحي كثيرة ٠٠ من حيث النشأة والثقافة ٠٠ بل ان هذه الظروف المتشابهة تكاد تفسر التفاهم العميق المتبادل بينهما ٠٠ ولقد كتب عنها في « الاعترافات » صفحات هي من أجمل ما جاء فيها فوصفها يوم وصوله الى أنسى Annecy قائلا « وأخيرا وصلت ورأيت مدام دوفواران رأيت وجهها ينضح رقة وعيوننا جميلة زرقاء تشع حنانا ولونا باهرا. وعنقا ساحرا » ولكن روسو هنا وقد أصبح فيلسوفا ورجلا ناضجا يصف المشاعر الخنون التي استشعرها كل منهما تجاه الآخر ويحدد الأسباب التي جعلت من ذلك اليوم يوما رسم له الحياة جميعا ٠٠٠ ثم يأخذ الحنين الى تلك الايام « الهادئة الحلوة » التي عاشها بالقرب من « أمه » والتي كانت حلوة كذلك حتى قبل أن تمنحه نفسها ٠٠٠ ثم يبين كيف أن عاطفة الأم والحببية معا مكنتاه من تكامل شخصيته فأصبح ما كان يريد أن يكون وكيف أن الحنان المتبادل بينهما ونزاهتهما سويا زادا من ميله للعزلة وللريف وبذا ألهمته كل ما أنتج فيما بعد من أعمال أدبية ٠٠٠ ثم يتنهد قائلا « آه لو انني ملأت قلبها كما كانت تملأ قلبي » ونسى روسو مغامراته النسائية في أسفاره من أنسى Annecy واليها ٠٠ نسى تلك العلاقات الصغيرة المتكررة مع ذلك والتي رواها في « الاعترافات » متغنيا برجولته وكيف أن النساء كن يتقربن منه وكيف أنه كان يجذ العزاء دائما في الجنس الآخر ٠٠ ولكن للتنهد كذلك ما يبرره فكثيرا ما عاد روسو من سفره الى مدام دوفواران ليجد انسانا ثالثا يحتل من السيدة مكانه أو يكاد ٠٠٠ وتمضى الايام بالثلاثة وروسو طامع صاغر سواء كان ذلك برضيه أو لا برضيه .

ولكن كأنما شاء عقله الباطن أن يسقط من ذكرى تلك العلاقة كل الشوائب التي كانت تعكر صفوها فلم يعد يختزن منها الا ناحية باسمه تبدو على البعد كشسع فضي ينير له ظلام شيخوخته انه ينبش عن سويغات السعادة التي تناثرت على طول أيامه فيخلق فيها ويعظمها عليها تكون زادا يعينه على احتمال واقعه الاليم .

ولعلنا نعلم الكاتب اذا ما نحن عتبنا عليه تغييره بعض الوقائع والتواريخ فهو أولا وقبل كل شيء لم يكن في حياته مؤرخا وانما نكون

منصفين اذا ما نحن قدرنا حاجته الماسة في شدته كانسان حساس متوتر  
الاعصاب يعذبه اضطهاد وظلم يعتقد في صدق أن الانسانية جمعاء  
توقعهما به الى أن يلوذ بماضى يضىف عليه دون قصد صورا باسمه  
هنيئة ٠٠٠

ومع ذلك فان هاتين الصفحتين تعتبران نشيد عرفان وتقدير لتلك  
التي فتحت له بابها وقلبها وعوضته عن حنان الأم وأولته من الرعاية مالم  
ينله تقريبا من انسان آخر طيلة حياته ٠٠ انها تكليل لهذه الصفحات ٠٠  
لهاته الأحلام التي جعلنا روسو نحلق معه فيها « كسيمفونية » رائعة  
متناسقة تحمل على التأمل في الخالق وتسمو بالروح عن دنيا الشرور .





## طباع روس وماله النفسية في آخر حياته

عاش جان جاك روسو محروما فقيرا شريدا نصبت به أنواء الحياة وتجاوزته المحن وكان لكل ذلك أعمق الآثار في طباعه وفي حاله النفسية التي صحبتته حتى القبر . عاش محروما اذ فقد أمه قبل أن تكتحل عيناه برؤيتها ففقد بذلك حنانا لا يعوض أبدا وفقد أباه اذ اضطر هذا لهجره فانهار بذلك ركن يعتمد عليه الاولاد جميعا حتى يقووا على الوقوف في تيار الحياة واذن فقد عاش تقريبا يتيم الأبوين يحس جوعا وعطشا الى الحنان لم يقدر له منه الا اليسير ولكن بعد حين .

وعاش فقيرا تنقل في شتى الحرف واحترف الخدمة في البيوت فذاق الذل وعرف الجوع وظل بعد ذلك يطرق أبواب الحياة خاوي الوفاض يلتمس لقمته في عناء شديد . وعاش شريدا لم يعرف الاستقرار ولا طعم الاسرة . . . فعاش وجيدا وقضى غريبا . . .

وكان روسو مريضا عرف المرض وكان لم يبلغ الثلاثين بعد وقيل انه مرض غضوى أثر تأثيرا سيئا على نفسيته وكان سببا في عزوفه عن المجتمعات لعجزه عن اطالة مكثه بين الناس .

أسهمت تلك العوامل جميعا في تشكيل طباعه . فكان روسو حساسا مرهف النفس حار العاطفة طيب القلب محسنا خيرا خيالنا حالما خجولا . وكانت له مع ذلك تصرفات تتعارض

مع تلك الميزات فقد كان أيضا مغرورا مسلوب الارادة متقلب الاهواء .  
ولا ريب أن تلك الميول ، وتلك النزعات جميعا تظهر جلية واضحة  
« أحلام يقظة جوال منعزل » Les Réveries du Promeneur Solitaire  
حيث تبدو نفسه على حقيقتها أصيلة بعيدة عن كل زيف .

فلأنه كان حساسا نراه فريسة للانفعالات العنيفة فتبدو له الأمور  
أما طيبة جدا وأما بالغة السوء . فكان يتنازع الإعجاب الشديد والحنان  
الشديد والغضب الشديد جميعا على السواء . كانت الكلمة الرقيقة تدفع  
الدموع الى عينيه والنظرة الشذراء تطيش صوابه وتؤله أشد الايلام . .  
وكان حار العاطفة عاش أيامه جميعا بقلب شاب متقد الاحاسيس فنراه  
يذكر « مدام دوفواران Mme de Warens في آخر « الأحلام » وكأنما هو  
شاب فجع حديثا في حبه فهو يزفر زفرة حرى غريبة على شيخ يسير  
بخطى حثيثة نحو السبعين .

وكان طيب القلب يميل الى عمل الخير . . كان حين يرتكب الخطأ  
يظل يؤنب نفسه ويرزح تحت عبء ضميره ولو كان ذلك الخطأ يسيرا .  
كان يحاسب نفسه حسابا عسيرا ويكشفها بغيوبها أمام الناس . وكأنما  
ليؤدبها ويعاقبها عساها تكفر بذلك عما آتت .

كان محسنا متصدقا يعطف على الفقراء ويحب البسطاء من الناس  
ويتفق برغم ضيق ذات يده ولكنه مع ذلك كان يحب أن يقدم الخير مختارا  
طائعا لا يستشعر فيه الزاما ولا اكراها .

ولعل أبرز لمحات شخصيته هي نزعته الشديدة الى الخيال . . ولعل  
عنوان آخر كتاباته « أحلام يقظة جوال منعزل » كان من الممكن أن يكون  
عنوانا لجميع مؤلفاته . . لم تكن الحقيقة تكفيه وتشبع رغبته في الحياة  
فكان يلجأ الى الحلم عساه يسعده ويبعده عن واقعه الأليم .

ولانه كان خياليا نشد المثالية والكمال وبينما نراه نبيا يدعو الى  
الايمان والعدل والحق والشرف والمحبة نلمسه أحيانا وقد أتى شيئا يتعارض  
مع ما يدعو اليه فيعرض بكتاب مثلا أو يجد مزاي العزلة . أو يسرف  
في غروره بنفسه واعتداده بها حتى « ليكون صامدا راسخا كالاله نفسه ،  
في بعض الاحيان .

ولعل من دلائل غروره ما كان يردده من أنه « كان يفضل أن يكون

منسيا من الجنس البشرى كله على أن ينظر اليه كما ينظر الى انسان عادى ،  
كذلك ما كان من رفضه تلبية دعوة الملك حين أراد أن يكافئه على تأليهه  
لأوبرا عراف القوية Le Devin du Village ولا ريب أن هذا الشرف  
لا يتأباه الا رجل من طراز خاص .

ذلك الاحساس بطيب عنصره وعظمة نفسه جعله يؤمن بطبيعته ومن  
ثم بالطبيعة عموما . . . فجعلها أساسا للدين والسياسة والاجتماع  
والاخلاق . . . وأحبها من بعد الله . . .

وكان متدينا ينبع الدين من أعماقه يؤمن « بالرب الأعلى مبدع كل  
شئ » وكان يلتقى به فى الطبيعة الرحبية التى ظل عاشقا لها مفضلا أياها  
على كل شئ آخر . . .

ولكن كان خروجه من صومعته « الارميتاج L'Ermitage » نذيرا  
بحالة نفسية تثير الالتفات . بات يعتقد أن هناك عصابة تتآمر على سلامته  
وتستهدف تقويض سمعته . . . وفى هذه المرحلة تولد لديه شعور  
بالاضطهاد ظل يتفاقم كلما زادت متاعبه وكثرت منغصات الحياة عليه . . .  
وأصبح متشككا فى كل حركة وفى كل همسة ويرى فى كل ذلك دلائل  
المؤامرة الكبرى . . . وزاد من محنته قرار طرده واحراق كتبه ورجم بيته  
واضطراره الى الهرب من مكان الى آخر خائفا وجلا . خاب أمله فى الناس  
جنيعا عندما أحس أنه ضحية مجتمع كرس حياته للدفاع عنه وأنه يلقي  
أسوأ الجزاء على ما ظنه خيرا قدمه اليهم من عصارة فكره وقلبه أحس  
عندئذ عدم جدوى الاتصال بهم فباعده ما بينه وبينهم وعاش منظويا على  
نفسه يكتب « اعترافاته » و « حواراه » وأخيرا « أحلام يقظته » وضع فيها  
جنيعا ذاته هو وكرسها لدراسة نفسه هو ولعل فى ذلك أبلغ زد على  
جحود الناس وانكارهم لفضله . . .

عاش فى عزلته اذن بعد أن اعتبر نفسه شهيدا وضحية وكان يزيد  
من آلامه حبه للناس وكراهيته لهم على السواء . فلم يكن روسو يكره  
المجتمع فى الواقع كما يشهد هو نفسه الا من أجل مايتطلبه من أعباء  
وواجبات كان يعتقد فى عجزه عن القيام بها . . . وربما زاد من تعقيده  
ذلك المرض اللعين الذى ضاق به وجعل الدنيا مظلمة فى وجهه . ولكن عودته  
الى بازييس فى أواخر أيامه أعادت الى نفسه بعض الرضا حين أدرك أن  
شهرته ذاعت فى أوروبا إذ أخذ يتردد على داره الكتاب والأدباء والفنانون  
والموسيقيون من فرنسيين وانجليز وروس وايطاليين (١) من المعجبين به

Henri Roddier : Les Rêveries du Promeneur Solitaire, p. 11.

(١)

المتحمسين لآرائه وضمن ينشدون عونه فى صياغة الإلحان .

وتنفرد « أحلام اليقظة » بأنها تشير الى مرحلة القلق النفسى التى تجلت فى « الحوار » Les Dialogues وبعده ثم انفثات هنا لأن فيها لوما وعتابا الى جانب ماتناولته من موضوعات ذلك لأنه يبدو أن روسو يثس من شرور الناس فعالجها بعزلة قلب كان جريا أن يملأه الحب لجيل اعتقد أنه « يلذ له أن يؤذه حيا » وهى سلسلة من الشكايات الطويلة التى تراود خياله وتلج على ذهنه حتى ترهقه أحيانا وحتى تدعوه للاستسلام أخيرا ما دام لا يستطيع دفعا لأذى الناس وهو لم يكن لديه برغم ذلك أقى من السكون الذى بدأ يلفه تدريجيا كأنما هو مؤامرة أجيد حبكها من الجليل الجديد تستهدف القضاء عليه .

أكان حقًا مريضًا ؟ أكانت تعاوده « الشيزوفرنيا ( الفصام ) Schizophrénie فيحس من كل تصرفات من حوله اضطهادا يستهدفون من ورائه أذاه ؟

والشيزوفرنيا كما يعرفها الدكتور منكوفسكى Minkowski (١) اضطراب نفسانى مظهره عدم الانسجام وضعف الترابظ فى التفكير وقد أطلق العالم النفسانى بلويه Bleuer هذا الاصطلاح على الاضطراب العقلى المبكر الذى يصيب الشاب ثم يأخذ فى التزايد حتى يفقده قواه العقلية .

وقد عم اصطلاح « شيزوفرنيا » بعد ذلك حتى شمل حالات عديدة منها الـ Autisme وهى الحالة التى يكون فيها انسانا ما خاضعا لتأثير عناصر حياته الداخلية أكثر من خضوعه لتأثير حياته الخارجية ومنها الهلوسة وهى حالة احساس المريض الذى يقوم على أمر وهمى ومنها أفكار الهذيان idées délirantes وهى الاضطراب النفسى الشديد الناشء عن الانفعالات ، . . . . الخ

والفكرة الهذيانبة عند هذا العالم النفسانى هى عبارة عن فكرة خاطئة غير قابلة للتحويل يتمسك بها المريض ويؤكدها فى اعتقاد جازم برغم وجود عوامل أخرى تدحضها ومجموعة هذه الافكار تكون هذيان المريض وهى تنقسم الى ثلاثة أنواع : أفكار التعالى ( مركب العظمة ) وأفكار الاضطهاد والافكار السوداء بسبب الحسارة المالية أو الاحتقار أو التجاهل أو الاتهام . . .

Encyclopédie Française, T. VIII, pp. 8—54 — 12. (Article par (1) EugèneMinkowski).

وهذه الافكار كثيرا ما تمتزج بالهلوسة وهي التي تسبب الاضطرابات  
فى علاقات من يصاب بها مع بنى جنسه والعالم الخارجى وتبين مدى الفرق  
بين المصاب والسليم .

ويمكن أن تترجم الأفكار الهذيانية بأعمال خارجية تدل عليها  
فالمضطهد على ذلك يتحول الى مضطهد حين ينهض للدفاع عن نفسه بمهاجمة  
مضطهديه . . وهو هنا يصبح خطرا على المجتمع .

ويختتم أوجين منكوفسكى Eugène Minkowski مقاله بقوله ان المريض  
كثيرا ما يكتفى بالتعبير اللفظى عن أفكاره وان كان يكتمها فى نفسه فى  
أحيان كثيرة . .

من هذه الأعراض جميعا نكاد نعتقد بأن روسو كان مصابا بهذه  
الحالة ولعل العلامة المميزة لهذه الحالة من الاضطراب النفسى هى البساطة  
التي كان يضع بها أقرب أصدقائه موضع الشك ولم تسلم كثرتهم من  
ذلك ولذا كان أصدقاؤه المقربون يتجددون باستمرار . .

ولكن برغم ما كان روسو يعانیه من اضطراب نفسى وذهنى وبرغم  
ماعناه كذلك من تقلبات الزمن معه فان ذلك كله لم يؤثر على كتاباته عموما  
وبخاصة على « أحلام اليقظة » Les Réveries التي سجل فيها صفحات  
خالدة هي من أجمل ما كتبه كاتب وفنان على السواء .



## أحلام اليقظة بين مؤلفات الكاتب الأفرى

لعل أول ما يعرض عند قراءة الاحلام أنها تقدم لمحات عن حياة الكاتب ، على القارىء أن يتقبلها بحذر وبخاصة فيما يتصل بالاحداث البعيدة فى حياته وعلى أية حال فإنها تمتاز بما يصحب الواقعة المعينة عند ايرادها من حالة نفسية تكيفها وتؤثر عليها . ومن دراسة الجولات وبعد تحليلها نستطيع أن نلمس صدق التطورات النفسية والذهنية التي كانت نتيجة لحالته العصبية فى السنين الاخيرة من حياته فهو يمر هنا بمرحلة هدوء نسبي يعرض فيها لكثير من النواحي التي جاءت بالحوار وكان فيها تائرا مهتاجا ولعل الروح التي تصطبغ بها الجولات تكشف عن تطلعه الى تحقيق السعادة ومحاولته اقناعه نفسه بأنه قد حصل عليها أخيرا فعلا . .

والجولات الى جانب ذلك تختلف عن سابق أعماله الاخرى بأن عنصرا جديدا - يضغط عليه كثيرا فيها - هو تبكيت الضمير ومحاولة تبرير مسلكه أمام نفسه أولا وأمام الناس ومن هنا تبدو « أحلام اليقظة » ذات أهمية خاصة .

وأمر آخر يسترعى الانتباه فيها ويميزها هو أنها قد تبدو مفككة فى أعمال ، فى حين أنها فى واقع الامر مترابطة أشد الترابط أحيانا ومنسقة على الاقل أحيانا أخرى .

ولعل القيمة الادبية فى « أحلام اليقظة » ترجع الى أننا نلقى صاحبها على طبيعته بغير ما تكلف أو تعقيد . . سواء كان دافعه الى ذلك يأسه من الناس ومن المجتمع يأسا

لا رجعة فيه بحيث جرد نفسه من كل المظاهر التي يبدو فيها المرء وراء حقيقته أم كان دافعه تعلقه بالطبيعة البعيدة عن التكلف واندماجه فيها بحيث أراد أن يتشبه بها ، أم كان الدافع التقرب الى الله بالعودة الى طبيعة الاطفال . . . الطبيعة الاولى . . . أو طبيعة الانسان الفطري الذي دافع روسو عنه في رسالته الى أكاديمية ديجون . . .

الواقع أن أعمال روسو كلها تعبر عن ذاته فهو لم ينس نفسه أبدا وبخاصة في « الاحلام » التي تبدو وكأنما هي محور تفكيره وتأملاته التي يسبر أغوار نفسه عن طريقها ويصورها ويحلل أحداث ماضيه في اعزاز ويحاول أن يعوض ذاته عن آلامها فيخلق لها جوا تسعد فيه وتنتشى . . . علما خاصا بها خلقت من أجله . . .

وبرغم مايتخلل « الاحلام » من قلق تنبئ عنه وتردده بعض العناصر الادبية التي جاءت في مؤلفاته السابقة . الا أن المرء يحس فيها بنشوة تكاد تغير من شخصية صاحبها وتجعله أقرب الى أن يكون شرقيا متصوفا (1) ونحن نرى بذلك أنفسنا حيال انسان وشاعر جديدين . . . والانسان هنا ذكي جذاب بفضل ذكائه . . . كان النقد والهوى والهذيان تززع جميعا من قبل ثقته أما هنا فلا أثر لذلك كله .

وفي الجولات الاربع الاولى - كما في الجولة السادسة - تحليلات جديرة بكاتب كلاسيكي . وانا لنجد في هذه « الاحلام » وقد تحرر من عالم كان يشجع نواحي الضعف فيه ثم ينحو عليه باللائمة فيبدو ببراءته التي فطر عليها وبحسه المرهف وبعاطفته الجياشة وبجبهه للاطفال والفلاحين ومشوهي الحرب والبسطاء من الناس . وهو في الجولتين السادسة والتاسعة يبدو الى جانب ذلك - مثلهم - مرحا طاهرا مبرأ ألقى عن كاهله زيف الحضارة المصطنعة وعاد الى الطبيعة التي خلقت منه انسانا بكل ما في الانسانية من سمو ورقة والجولتان اللتان خصصهما لاقامته في جزيرة سان بيير Saint-Pierre (الخامسة) وميله للاستعشاب (السابعة) يبدو فيهما بوضوح تأثير العالم الخارجي عليه . . . وكان كمال الطبيعة يؤكد لهذا المؤمن أن الاله الخالق الذي أبدع هذا الكون الرائع لا يزال يسهر عليه ولا يفتأ يجمله . والطبيعة عنده حية مثل روحه التي تحركها وتتفاعل معها ومن هنا تبدو اصالة « أحلام اليقظة » .

(1) م . ريمون يذكر هذا التشابه بين روح روسو وروح المسلمين وهو ما ذكره

روسو نفسه في « حوار » .

Henri Roddier : Les Rêveries du Promeneur Solitaire, p. LXXXII.



ذلك لانه لأول مرة تلعب الطبيعة الدور الرئيسي في مؤلف من مؤلفاته أو تلعب الدور الايجابي المباشر ، فهي ذات لها أحكامها و ارادتها ووسائل اغرائها التي تمارسها على المخلوق الوحيد الذي يفهمها ٠٠ وقد لقي فيها روسو سلوته البريئة وعزاه و تمتعه التي تلائم طبيعته وأهدافه، وهكذا تحققت لروسو في آخر أيام العمر أعز أمانيه ٠٠٠ كان المزاج المسيطر عليه هو الاعتزال في الريف على أن يخالطه التجوال وتلحق به الاخيلة والاحلام . وهو يعلن في سرور أنه « لم يفكر ولم يحس بكيانه ولم يدرك طعما لحياته ولم يعرف ذاته الا في هذه الجولات التي تنقل فيها على قدميه فهو يقول « ان السير نحو شيء ما يحيى أفكارى ويشحذها واننى لا أكاد أقوى على التفكير حتى يستقر بى المقام فى مكان ما ٠٠ يجب على جسدى أن ينتفض حتى يحتوى روحى ويستوعبها »

كان الله قد رزقه بالتفكير الحالم فى الطبيعة ، نشوة أنعمت روحه ورققت من مزاجه فغدا لا يحس بوحدته برغم انفراده لانه كان يعيش مع ذاته وكانت الطبيعة تتجسد أمامه فغدا صفى أحلامه وخذن أخيلته ورفيق ذاته ثم مصدر مشاعره الداخلية ٠٠ واحساساته الباطنة وعقائده ووساطة اتصالاته باللانهاية ثم خضوعه واذعانه للارادة الالهية فى نهاية الامر .

لقد كان روسو موسيقيا أو هو على الاقل اشتغل بالموسيقى وألف فيها وكانت هوايته نسخها حتى آخر أيامه والموسيقى هى أحسن ما يترجم خلجات النفس وخواطرها فلا عجب أن جاءت الاحلام على هذه الصورة « سيمفونية » رائحة . صدق « جوته Goethe » اذ شبهها بسيمفونيات « بيتوفن Beethoven »

وإذا كانت الاعترافات Les Confessions سردا لكافة الاحداث التي تخللت حياة الكاتب و « الحوار » Les Dialogues دفاعا نائرا مضطربا عما اتهمه أو خيل اليه أن الناس اتهموه به فان «أحلام اليقظة» Les Rêveries تمتاز عن الاولى بالتحليلات النفسية العميقة وعن الثانية بكثير من الاتزان والتعقل وهدوء الخاطر نتيجة رضوخه للقدر واذعانه لمشيئة الله .

**واحلام اليقظة** كذلك نافذة نطل عبرها على القرن الثامن عشر بفلاسفته وأحداثه وعاداته ٠٠ الى تلك الحقبة من الزمان التي أنجبت مفكرين وأدباء عظام قد يكون كاتب هذه الاحلام أشهرهم وأقواهم تأثيرا فى الاجيال التالية .



## أصالتها وأثرها الأدبي

ان القارئ لـ « أحلام يقظة جوال منعزل » يدرك على التو أنها ابنة القرن الثامن عشر والابنة الصغرى لكاتب عظيم من ذلك القرن نفسه هو جان جاك روسو .

لقد قيل (١) : « ان روسو في فرنسا هو الداعي الى ثورة مزدوجة : احداها ثورة ١٧٨٩ في مجال الاحداث ، والآخرى الرومانتيكية Le Romantisme في المجال الفكري »

أما هنا فنحن لا تهمننا الا الثورة الثانية اذ أن الاولى (ثورة ٨٩ ) لا تهمننا هنا بقدر ما تهتم الباحث في السياسة والآراء السياسية .

فيم كانت تلك الثورة ؟

في عصر أكثر ما يميزه أنه عصر الفلسفة ، كثر فيه المفكرون والباحثون والعلماء الذين يبنون أفكارهم وآراءهم على أسس وقواعد ومذاهب أساسها العقل والمنطق ، جاء جان جاك روسو ليرفع راية العصيان في وجه هؤلاء جميعا وليناصرهم العبداء ولينفر من طريقة تفكيرهم وليقول لهم أخيرا « انكم منافقون ، فلسفتكم زائفة وآراؤكم عقيمة لا جدوى منها » ولا عجب فقد آمن روسو بالعاطفة قبل العقل وبالاحساس قبل الفكرة فكان ذلك الدين الذي سار على هديه وتعاليمه

Lintilhac, Précis de la Littérature Française, T. II, (١)  
Ch. X, p. 254.

طيلة حياته • فبينما كانوا يفكرون كان هو يحس ويستمتع ويتألم (١)  
وبينما كان غيره يصلون عن طريق التحليل الى فكرة الاحساس كان  
هو قد وصل الى حقيقة الاحساس عن طريق طبيعته ، كانوا يناقشون  
اما هو فكان ينجأ •• ومن هنا تدفقت كل أعماله الادبية ، حتى كان آخرها  
« أحلام اليقظة جوال منمزل » •

اذن فقد كانت لهم فلسفتهم أما هو فكانت له فلسفة خاصة به  
وحده هي فلسفة القلب ان صح هذا القول •• لانها صادرة عن القلب ••  
وكانت هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse هي النبع الذي تدفق منه  
سيل الحساسية والعاشقة •

كان للعاطفة في الأعمال الادبية قبل روسو نصيبها فهي احدى  
الصور المشروعة في الحياة لكنها ليست أهم ما في الحياة أو على الأقل هي  
ليست الرائد الوحيد للمرأة فيها •• وقد كانت حين تدهم الروح وتسيطر  
عليها حدثا هو موضوع لرواية أو مسرحية فحسب دون أن تكون هدفا  
ومثلا أعلى أما بالنسبة لروسو فعلى العكس من ذلك كانت العاطفة هي  
العنصر العامل الوحيد في الروح بل ان قيمة الحياة في نظره مستمدة من  
مبلغ نصيب تلك العاطفة فيها ••

ونحن اذا تأملنا حياة روسو نفسها وجدنا أنه حقق بها حياة بطل  
رومانتيكي بكل ما في تلك الحياة من عدم تجانس وفوضى وهروب دائم  
من المجتمع ومشاعر متقدة وأحزان •• فقد كان لروسو حظ الحياة بعيدا  
عن المجتمع حتى ناهز الاربعين واذن فقد عاش حياة ابن الطبيعة وحياة  
الانسان الفطري الذي لا يفقه من أصول الوجود في المجتمع شيئا قبل أن  
يكتب عن تلك الحياة وقبل أن يصفها في مؤلفاته •

وكان يحس وهو يكتب « الاعترافات » و « أحلام اليقظة » أن روحه تنطوي  
على تألم لا يدرك كنهه وأن في قلبه فراغا لا يمكن أن يمتلئ •• فكانت  
العاطفة تسير مع الألم جنباً الى جنب والنفوس الحساسة يبعث تألمها القلق  
والاضطراب مما سمي بسأم القرن Le Mal du Siècle وهو من أكبر  
خصائص العصر الرومانتيكي • هذا ولو أن الاعترافات Les Confessions  
وأحلام اليقظة Les Réveries لم تكونا وحدهما مبعث ذلك السأم والكتابة  
لأن قراء القرن الثامن عشر لم يعرفوهما الا في عامي ١٧٨١ و ١٧٩٠ • اذ  
انه لم يتم نشر هذين المؤلفين الا بعد وفاة الكاتب • ولكن كان مبعثه

Gustave Lanson : Histoire de la Littérature Française, p. 763. (1).

رواية « هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse » التي كان يتخاطفها الناس يقضون ليال بأسرها يقرأونها ويؤجرونها أحيانا ويبيكون مع روسو « وينتشون بلذة الاحساس (١) »

والخيال لدى روسو يساند الاحساس ويذكيه انه كذلك يسلمه الى أحلام يخلق فيها مع « كائنات من خلقه » وفي « عالم خاص به لانه من صنعه » عالم يسعد به وينسيه شرور الحياة الدنيا ولذلك كانت أعمال روسو الادبية جميعا محورها الخيال والمثالية ، فتخيل مجتمعا سعيدا صحيحا ، وتخيل تربية مثالية لم يعرفها ولم يمارسها بنفسه ، وتخيل طريقة جديدة لوضع الموسيقى ، وتخيل حبا طاهرا سماويا حظ البشر منه قليل نادر ، وتخيل نفسه يحاكم شخصا آخر لم يكن سوى روسو نفسه ، وأخيرا ، وليس أدل على قوة ذلك الخيال الذي عاش روسو به وفيه طيلة حياته من العنوان الحالم الذي شاءه لآخر كتاباته أو بالأصح لآخر خيالاته وهو « أحلام يقظة جوال منعزل » \*

واذن فقد كان روسو شاعرا ، وما هو الشعر ان لم يكن احساسا دافقا وخيالا متقدما رحيبا ؟ كان شاعرا في عصر أحل الفكرة المنطقية الجافة محل انتفاضات العاطفة والقلب .

وناهيك اذا ما امتزج ذلك الاحساس وذلك الخيال بحب للطبيعة عظيم وتمجيد لما أبدع الخالق ليس له نظير . لقد أحب روسو الطبيعة فصورها في اطار جديد أجمل تصوير . أحبها كما يحبها انسان وفنان وحالم ومتعبد وعاشق فاستحق بذلك أن يكون « أكبر مصور للطبيعة عرفته فرنسا حتى آخر القرن الثامن عشر (٢) » حقا انه لم يكن للطبيعة في الادب الفرنسي من قبل مكانة كبيرة ذلك لان الادب الفرنسي عامة هو أدب قوم يعيشون في المدن أى أن هؤلاء القوم كانوا يفضلون متع المجتمع على مفاتن الطبيعة (٣) كان الناس يقدمون على السفر مكرهين وكانت الطبيعة الحلوة في نظرهم هي فصل الربيع وحده ذلك لان القرن السابع عشر أورث الثامن عشر النفور من الريف اذ كانت باريس تزخر بالمسارح تمثل عليها المسرحيات الجديدة ، وبمقاهيها الشهيرة حيث يتواعد الادباء والكتاب ، وبصالوناتها . . . يجتمع بها عليّة القوم يلهون ويتناقشون ، حتى جاء روسو ليصيح فيهم أن عودوا الى الطبيعة وليصفها لنا في صفحات بديدة خالدة من أجملها وصفه لجزيرة سان بيير Saint-Pierre وسط بحيرة بين Lac de Bienné في الجولة الخامسة من « أحلام اليقظة » \*

D. Mornet : La Pensée Française au XVIIIème siècle, p. 140. (١)

Louis Ducros : J.J. Rousseau, p. 57.

(٢) ، (٣)

وكان روسو فريدا في تفكيره ولم يكن يحب أن يقلد أحدا من السابقين فهو حين كان يريد مثلا أن يكتب في التربية استلهمها من خواطره الخاصة وكذلك اذا ما أراد أن يصف مشهدا طبيعيا لا يلجأ الى الكتب ولا يستعير الطُور من غيره كما كان يفعل بعض معاصريه من الادباء ولكن كان يكتفي أن تعود به الذكرى الى حيث عاش بين ربوع الطبيعة سواء كان ذلك في بوسى Bossey أو في الشارميت Les Charmettes أو في الارميتاج L'Ermitage وهكذا كانت صورته صادقة تزخر بالحياة لانه لم يسافر في عربة لاهيا يمل طول الطريق كما كان يسافر الناس في ذلك الوقت لكنه كان يرتحل ضاربا على قدميه متأملا منتشيا بالطبيعة وسحرها الذي ينعش روحه يمتزج بها ويسعدنا ويرتفع بها الى الله مبدع ذلك كله . .

والطبيعة التي تستغرق روسو هي الطبيعة الكبرى التي لم يفسدها الانسان بتعديله وتنظيمه كشواطئ بحيرة بين Bienne مثلا وهو في ذلك يختلف عن معاصريه في حبه للحدائق الانجليزية المنظمة .

ولانه فريد أيضا ، فانه كتب « الاعترافات » وكتب « الحوار » وكتب « أحلام يقظة جوال منعزل » وضع فيها ذاته وكشف فيها عما تكنه من احساسيس ومشاعر مبينا عيوبه قبل فضائله ولم يحدث من قبله أن كتب كاتب بمثل صراحته وجراته . . لم يحدث من قبل أن سطرت اعترافات بهذا الصدق وتلك الشجاعة ولم يحدث أن قام حوار بتلك الثورة ولا ذلك الازدواج الفريد في الشخصية كما لم تكن أخيرا « أحلام اليقظة » نوعا أدبيا متعارفا عليه محدد المعالم .

لقد كتب في مستهل « الاعترافات » Les Confessions : « انى آكون مشروعا لم يكن له من قبل نظير ولن يكون له مقلد » ، والواقع أنه فريد لم يقلد لإ عند كتابة « تلك المؤلفات الاخيرة فحسب » بل في كل أعماله الادبية على الاطلاق وذلك شأن من ينهج نهجا يمليه عليه قلبه وحده ويستمد من ذاته وحدها .

ولئن كان روسو فريدا أيضا بين كتاب عصره فبأسلوبه البديع وجملته الموسيقية الجذابة وتعبيراته القوية وبلاغته ومنطقه ( لان البلاغة والمنطق لا يصدران عن العقل وحده لكن عن القلب والشعور قبل العقل ) لذلك قدر له أن يفرض جل آرائه على التفكير الانساني وعلى القلب الانساني، وما صدر عن القلب حل في القلب كما يقال ، بل انه كثيرا ما يكون القلب أكثر اقناعا من العقل . ولم يكن ينقص أسلوبه في « أحلام يقظة جوال منعزل » Les Réveries du Promeneur Solitaire سوى بعض قوافي الشعر

وأوزانه لتكون شعرا خالصا ، بل ان كثيرا من جمله لو انها نظمت كما ينظم الشعر لكانت قصيدا بارعا ليس له نظير وهذه الطريقة فى الكتابة هى التى جعلت من روسو ٠٠ ان صح القول : « أعظم شاعر فى القرن الثامن عشر » كما انه ، عنها : يتعرف الانسان على روسو وشخصيته ونفسيته .

ولئن كان روسو لم يترك أولادا فقد خلف وراءه بنات أفكاره وأبناء عبقريته وهؤلاء هم الذين خلدوا ذكره عبر السنين فكان له فى حياته ومن بعده دائما معجبون ومتحمسون لافى فرنسا فحسب بل فى ألمانيا وانجلترا وغيرها من البلاد حيثما رق الاحساس وشفقت الروح وظهرت الرغبة فى الهروب من مادية بغيضة كريهة هى وليدة الحضارة الزائفة .

ومن أكثر الكتاب الفرنسيين تأثرا بروسو وكتاباته « برناردين دو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre ، الذى كان صديقا حميما لروسو فى أواخر العمر فصاحبه فى جولات كثيرة كانا أثناءها يتحدثان ويجمعان الزهور والاعشاب ثم مات روسو فترك فى قلب صديقه ذكرى عزيزة جعلته يكتب « حياة ومؤلفات جان جاك روسو » La Vie et les Ouvrages de J.J. Rousseau وكذلك شاتوبريان Chateaubriand الذى يطلق عليه « أب الرومانتيكية » باعتبار روسو الاب الأكبر لها ثم مدام دوستايل Madame de Staël التى كتبت عنه تقول « لقد كان الخيال أولى ملكاته بل كان يطغى على ملكاته الأخرى » كان يحلم أكثر مما يحيا وكانت أحداث حياته تدور فى رأسه أكثر مما تدور خارجها وعندما كان يرى بين الناس كان حب المرء له يقل ، ولكن عندما كان يرى مرة أخرى مع الطبيعة فان كل اختلافات نفسه تجد صداها فى قلوبنا وتسمو فصاحته بمشاعر أرواحنا (١) » .

وكانت الكاتبة الكبيرة جورج صاند George Sand كذلك الابنة الروحية (٢) لروسو فقالت عنه «انى مخلصه له دائما كما لو كان أبا أنجبني لقد أورثني كما أورث كل الفنانين المعاصرين لى حب الطبيعة » كما انها - كتلميذة محبة لروسو - كثيرا ماتمنت أن تكون مدام دوفوران أخرى (٣) .

ومن تأثروا بروسو الى حد كبير أيضا الكاتب سيجانكور Sénancour اذ يقول على لسان بطل كتابه «الدومين Aldomen» : انى أعود فى قراءتى دائما الى جان جاك روسو والى برناردين دو سان بيير وأدرس الطبيعة

Madame de Stael : Lettre sur les écrits de J.J. Rousseau. (1)

Docteur Dorrya Fahmy : George Sand : Auteur dramatique, (٢) ، (٣)

pp. 358,861.

والانسانية مع الرجل الذى يعرفه عصره أقل مما يجب (١) وغيرهم كثيرون  
كان روسو لهم رائدا وملهما .

وبعد . . فما أروع أن يصل المرء بجهد وحده دون معلم سوى  
الزمن وبلا هاد سوى فكره وقلبه !!! . نقول : « ما أروع أن يصل الى  
مراتب الخالدين !!! » ان النفوس القوية لا تستطيع أن تخضع أموراً  
كبيرة لمشيئتها وتخضع الكون لفكرتها وتختار فى حرية من الاماكن والعصور  
ما يتفق وطبيعتها .

ولئن كان روسو سياسياً بارعاً ومصالحاً اجتماعياً كبيراً ومربيامثالياً  
فرض آراءه ومبادئه على الفكر الانسانى فتأثر به . فان الافكار تهرم  
وتشيخ ثم تموت طالت حياتها أم قصرت ودليلنا على ذلك تلك المدنية  
المتطورة ، المتغيرة أبداً ، فلنلتفت اذن الى ماهو باق ، الي ماهو خالد ، الى  
ماسوف تعجب به الاجيال القادمة مثلما نعجب نحن به . الى ذلك النبع  
الغزير من البلاغة والنهر الفياض من الاحساس الرقيق ، الى ذلك النشيد  
الحالم الذى لن يطويه الزمان « أحلام اليقظة » نتاج شيخوخة أحاطت بها  
الموسيقى فترنمت بالعزلة وتغنت بالطبيعة فى قصيد هو زهرتها وثمرتها .  
« حين أريد إقامة تمثال لـ « يوليوس الثانى » أراد ميخائيل أنجلو أن يزوده  
بمفاتيح القديس بطرس فصاح البابا « لا . . بل بسيف » .

أما أنت يا جان جاك فاذا وضعنا العقد الاجتماعى أو أميل بين يديك  
قلت : « لا . . ليس كتباً . . بل باقة من الزنايق » .



مسيكين روسو ! لننظر اليه في صميم نفسه خلال  
كتاباتة وفي دخائل افكاره في كل مايند عنه من تناقض  
ومن صلق • فلو اننا اردنا ••• في سبيل الحكم عليه  
••• ان نستمسك بفحصه على ضوء ما تجمع لتعاليمه  
من آثار وما نجم عنها من منازعات لاحصر لها لما التقينا  
به أمرا كما كان تماما •• فلننظر اليه عن كذب كمن  
كان يقابله في شارع بالترير فما تزال هذه هي الوسيلة  
التي تتيح لنا أن نكون عنه فكرة دقيقة عادلة •

سانت - بوف

Sainte-Beuve

(Causeries du Lundi)



## الجملة الأولى

هأنذا وحيد في الدنيا ، لم يعد لى من أخ أو قريب أو صديق أو صحبة سوى ذاتى . ان اكثر الناس ميلا للمجتمع وأكثرهم حبا للناس قد اتفقوا جميعا على نبذه منها ، ولقد بحثوا - وهم يشحذون كراهيتهم عن ألم يستطيع أن يكون أشد قسوة على نفسى المرفهة الحس ، فحطموا فى عنف كل وشيجة كانت تربطنى بهم . لقد كان من الممكن أن أحب الناس بالرغم منهم ، ولكنهم لم يستطيعوا ان ينسلوا من محبتى هذه الا حين كفوا عن أن يكونوا بشرا . فلا غرو أن أصبحوا جميعا غرباء مجهولين ثم نكرات بالنسبة لى ماداموا قد أرادوا ذلك لانفسهم . أما انا وقد اعتزلتهم جميعا واعتزلت كل شىء ، فاننى أتساءل ماذا عسائ ان اكون لا ذلك هو السؤال الذى بقى على أن أبحث عن اجابة عنه . ولكن هذا البحث يجب أن يسبقه لسوء الحظ القاء نظرة على موقفى وهذه فكرة أرى لزاما على أن أمر بها كى ينتقل الحديث عنهم الى .

منذ أكثر من خمسة عشر عاما (١) وأنا فى هذا الموقف الشاذ الذى لايزال يبدو لى كأنما هو حلم ، وأخال نفسى دائما كأنما يعذبنى عسر هضم ، أو كأنما استسلم لنوم مضطرب واننى أوشك أن أستيقظ وقد زال منى الألم أو كاد لأرانى بين أصدقائى . أجل مما لا شك فيه أننى وثبت وثبة سريعة ، دون أن انتبه الى ذلك ، من اليقظة الى النوم

(١) صدر قرار من برلمان باريس فى ٩ يونيه ١٧٦٢ بحرق كتاب « اميل » Emile بعد أقل من عشرين يوما من خروجه من المطبعة فى هولنده . وعلى اثر ذلك اضطر روسو الى الهرب الى سويسرا حين علم أن امرا صدر بالقبض عليه ، فلجأ الى مدينة ايفدون Iverdun وسرعان ما اصدر برلمان جنيف ثم برن على التوالى قراريهما بادانة كتابى اميل والعقد الاجتماعى فاضطر اخيرا الى أن يلجأ الى قرية موتيه ترانفر Mottiers-Travers بالقرب من نيوشاتل Neuchâtel الخاضعة لسلطان فردريك الثانى ملك بروسيا .



اسخ على هذا الاستسلام من سكينه لم تكن لتتفق والاستمرار في  
المقاومة المضنية العقيمة

وهناك أمر آخر أسهم في هذه السكينة ذلك أن أولئك الذين كانوا  
يضطهدوننى اغفلوا وهم يشجدون بغضهم أمرا أنساهم اياه جقدهم .  
ولقد استطاعوا عن طريق المضي في تلك السبيل تدريجيا ابقائي معذبا  
ثم تجديد الآمى عن طريق مداومة نيلهم منى - ولو أنه كان لديهم من  
الحصافة ما يجعلهم يتركون لى شعاع أمل لبقيت حتى الآن تحت  
سلطانهم . لقد كانوا يستطيعون كذلك أن يجعلوا منى العوبة عن طريق  
وهم زائف ، ثم يعاودون ايلامى من جديد نتيجة خيبة آمالى المرتقية ،  
ولكنهم كانوا قد استنفدوا كل حيلهم . وهكذا كان فى تجريدهم لى  
من كل شىء حرمان لهم من كل شىء ، ولم يعد ما رموني به من افتراء  
وكتابة وعار مما يحتمل زيادة أو تلطيفا حتى نال العجز منا جميعا ،  
فأصبحوا هم عاجزين عن أن يتمادوا وأصبحت أنا غير قادر على الخلاص .  
ولقد امعنوا فى تجريعى كأس البؤس حتى الثمالة حتى لم تعد قوى  
البشر مجتمعة تساندها أساليب جهنم لتستطيع أن تضيف اليها  
شيئا ، بل أن العذاب الجثمانى نفسه كان كفيلا بأن يلهينى عن الاحساس  
بالآمى ، بدلا من أن يزيدها ، فبانترزاع صراخى كان حريا أن يجنبينى الانين  
كما كان تمزيق جسدى حريا أن يحول دون تقطيع نياط قلبى .

وبعد ، فماذا أخشاه منهم وقد انتهى كل شىء ؟ انه لم يعد  
فى طاقتهم أن يثيروا مخاوفى لانهم لم يعودوا قادرين على الاساءة الى  
أكثر مما فعلوا . لقد جردونى نهائيا من القلق والخوف ، وفى هذا راحة  
لنفسى على أية حال . ان الآلام الحقيقية لا تنال منى الا قليلا ، وانى  
لاتقلب فى سر على ما أستشعره وليس على ما أتوجسه منها ، ذلك  
لان خيالى الجامح يربط فيما بينها ويجدها ويوسع فى مداها ويزيد  
منها ، بل ان ترقبى لها يعذبنى مائة مرة أكثر من وقوعها ، فوقوع البلاء  
خير من توقعه - ذلك أن المصائب اذا ما حلت فقدت هالة الخيال  
التي تحيط بها حتى تكشف عن صورتها الفعلية وعندئذ أراها أطفه بكثير  
ما كنت أتخيلها بل انه لايعوزنى الاحساس بالراحة وأنا مغرق فى الآمى .

أما وقد تحررت من كل المخاوف الجديدة ، و تخلصت من القلق  
الذى يساور الأمل ، أحس أن اعتيادى ذلك كفيلا بأن يجعلنى يوما  
بعد يوم أكثر قدرة على احتمال موقف لا يمكن أن يزيد سوءا ، وكلما  
أزداد ارهاف اجسائى بمرور الزمن لم تعد أمامهم وسيلة لاشغال

جذوته . هذا هو المعروف الذى اسداه الى مضطهدى حين استنفدوا الى ابعد حد ما فى جمعيتهم من سهام بغض ، وهكذا جردوا أنفسهم من سلطانتهم على وغدوت أنا بدورى أسخر منهم .

لم يكد يمضى شهران منذ نعم قلبي بسكينة مطلقة ، ذلك لاننى منذ امد طويل لم أعد اخشى شيئا وان كنت مع ذلك يملأنى الامل ، ذلك الامل الذى كان يدنو منى مرة ويبتعد أخرى ظل هدفا لم تال آلاف العواطف المختلفة تستثيرنى من أجله ، ولكن أمرا محزنا (١) وغير متوقع محا من قلبي هذا الشجاع الضئيل من الامل ، وكشف لناظرى عن مصيرى وقد تحدد نهائيا والى الأبد فى هذه الدنيا . ومنذ هذه اللحظة رضخت بغير تحفظ حتى وجدت السكينة من جديد .

وما ان بدأت أتبين المؤامرة فى أوسع نطاق لها ، حتى تخليت تماما عن فكرة استمالة الناس الى صفى مادمت حيا ، وحتى ذلك الامر الذى لم يعد من الممكن أن أبادلهم اياه سيفدو منذ الآن عديم الجدوى ، ذلك لان أولئك الناس مهما جهدوا فى الرجوع الى فانهم سوف لا يجدون فى ما ينشدون ، كما أنهم بائارتهم احتقارى اياهم تصبح صلتى بهم لا معنى لها ، بل انها تغدو عبئا ثقيلًا . وانى لاحس اننى أسعد حالا مائة مرة فى وجدتى منى وأنا معهم . لقد انتزعوا من قلبي كل احساس بحلو المعاشرة الذى صار من العسير أن ينبعث من جديد فى سننى هذه فقد بات ذلك متأخرا جدا فليحسنوا أو يسيئوا الى بعد اليوم فسوف لا يعينى منهم ذلك ومهما فعلوا فلن يكون لمعاصرى من شأن لدى ابدا .

ومع ذلك فاننى كنت أعول على المستقبل ، وكنت آمل فى جيل أفضل يستطيع أن يتفحص الامور خيرا منهم ويصدر حكمه فى صالحى ، ويستطيع بمسائرتى أن يتبين زيف قاداته حتى يشهدنى على حقيقتى - ان ذلك الامل هو الذى دفعنى الى أن أسطر «حوارى» (٢) Dialogues بل هو الذى أوحى الى بان أقوم بألف محاولة جنونية لاقدمها للاجيال الصاعدة - ان ذلك الامل - وان كان بعيدا - هو الذى جعل روحى تستشعر الاضطراب نفسه الذى كان ينتابها حين كنت أبحث خلال القرن

(١) من المصروف انه حاول دون أن يوفق ابداع مخطوط الحوار Ies Dialogues

كنيسة نوتردام Notre-Dime فى ٢٤ من فبراير ١٧٧٦ .

(٢) روسو يجاكم جان جاك Rousseau Juge de Jean-Jacques ثلاث قطع من الحوار

كتبها فيما بين ١٧٧٢ ، ١٧٧٦ وقام بنشرها دى بيرو Du Peyrou فى ١٧٨٩ .

من قلب عادل - أما أمانى التى حاولت عبثا التطويح بها فقد جعلت منى  
كذلك موضع سخريه معاصرى .

ولقد ذكرت فى «حوارى» الاساس الذى أقيمت عليه ترقبى ولكننى  
كنت مخطئا ، وادركت ذلك لحسن الحظ فى وقت مناسب لاجد -  
قبل أن تحل ساعتى - فترة هدوء شامل وراحة مطلقة . وقد بدأت  
هذه الفترة فى المرحلة التى أتحدث عنها ، وأحسب أنها لن يعترضها  
شئ بعد الآن .

وما كادت تهر الايام قليلة حتى اكدت لى خواطر جديدة مقدار  
خطئى حين اعتمدت على عودة الناس ولو فى زمن آخر ما داموا - على  
الاقبل فيما يتصل بى - ينساقون وراء مرشدين يتجددون باستمرار  
فى الهيئات نفسها التى أمعنت فى النفور منى . ان الافراد يموتون ، وأما  
الجماعات فلا تموت أبدا . ان المشاعر نفسها تخلد فيها كما أن حقدنا  
المتقد ، الخالد كالشيطان الذى يوحى به ، فيظل له دائما الاستعمار نفسه  
وحين يموت كل أعدائى من الافراد ، سيكون الأطباء والوعاظ على قيد  
الحياة ، وحين لا يبقى من بين مضطهدى سوى هاتين الطائفتين فيجب  
أن أكون على يقين من أنهم لن يكونوا بعد موتى أكثر رحمة بذكرائى مما  
كانوا خلال حياتى .

ان الأطباء الذين أسأت اليهم فى الواقع قد تهدأ ثائرتهم بمرور  
الزمن ، ولكن الوعاظ الذين كنت أحبهم وأقدرهم والذين كنت أودعهم  
ثقتى المطلقة والذين لم أسئ اليهم أبدا . ان الوعاظ رجال الكنيسة  
انضاف رجال الدين سيظلون دائما متعنتين لان جورهم جعل منى  
مجرما فى نظرهم ، وهو أمر لن تغتفره لى كرامتهم أبدا ولكن الجماهير  
الذين يوالون اشعال جذوة حقدهم ضدى باستمرار لن تهدأ ثائرتهم  
كذلك .

لقد انتهى كل شئ بالنسبة لى فى هذه الدنيا ، ولن يستطيع  
أحد بعد أن يفعل بى خيرا أو شرا . لم يعد أمامى ما أمل فيه أو ما  
أخشاه فى هذه الدنيا ، وهأنذا مستكين فى قرار الهاوية بشرا فانبا  
منكودا ولكن صامدا كالاله نفسه .

اننى سأعد منذ الآن كل مالا يتعلق بى غريبا عنى فليس لى بعد  
فى هذا العالم من قريب أو أقران أو اخوة - فأنا على الارض كما لو  
كنت فى كوكب غريب وسقطت عليه من كوكب كنت أعيش فيه ، ولئن

تعرفت من حصولي على شيء فأنما أتعرف. على المحزن الممزق لقلبي من الامور ، ولست أستطيع أن يقع ناظري على ما يؤثر في وما يحيط بي دون أن أجد فيه دائما موقعا لزرارية تثيرني ، أو لالم يمضني .  
فلأجرد ذهني من كل ما يؤله مما قد يشغلني في آسى وغير طائل على السواء - وما دمت ساظل وحيدا بقية أيام حياتي حيث لا أجد السلوى والامل والسلام في غير ذاتي فلست أريد ولا يجب على أن أهتم إلا بها .

وفي حالتى هذه سأتابع من جديد الفحص العسير الصادق الذى أسميته من قبل « اعترافاتي » . اننى اكرس-أيامى الاخيرة لدراسة نفسى ، ولاعد مقدا الحساب الذى لن أتوانى عن تقديمه عنها . فلاتجه بكليتى الى لذة التحدث الى نفسى ما دامت هى اللذة الوحيدة التى ليس فى مقدور الناس انتزاعها منى . فلئن استطعت من وراء أعمال الفكر فى كوامن نفسى التسامى بها واصلاح ما يكون قد ترسب فيها من ألم ، فان تأملاتى عندئذ لن تكون عديمة الجدوى تماما ، وبرغم أثنى لم أعد أصلح لشيء فى الحياة ، فاننى لا أكون قد أضعت تماما أيامى الاخيرة . اننى طالما شغلت فراغ جولاتى اليومية بتأملات رائعة يؤسفنى أن ذكرياتها شردت منى ( ١ ) ، وسأسجل كتابته بعض ما يحضرني منها ، وكلما عاودت قراءتها تملكنى من وراء ذلك السرور . سوف أنسى الآمى ، كما سوف أنسى أولئك الذين اضطهدونى وكل ما أذلتى وأنا أفكر فيما كان يستحقه قلبي من مثوبة .

ان هذه الاوراق لن تكون فى الواقع سوى يوميات غير متناسقة لأحلام يقظتى ، وستشتمل الكثير عنى لأن انسانا منفردا يفكر لابد وأن يشغل كثيرا بأمر نفسه - وصفوة القول ان كل الافكار الغريبة التى تمر بخاطري خلال جولاتى سيكون لها مكانها فى هذه اليوميات وسأسجل ما فكرت فيه كما يرد على ذهني تماما دون أن يكون فيه من الروابط الوطيدة ما يكون عادة بين أفكار الأمس الداير وأفكار الغد . ولكن

---

(١) جاء في الخطاب الثالث الى مالزيرب Malesherbes المؤرخ فى ٢٦ من يناير ١٧٦٢ :  
« أى الاوقات ترى يا سيدى اننى أذكرها كثيرا جدا وفي ارتياح كبير فى أحلامى :  
انها ليست البتة متع شبابى ذلك لان هذه كانت شديدة الندرة تمتزج بها المرارة بقدر كبير ولانها تات اليوم عنى بعيدا جدا ، انها اوقات اعتزالي ، انها جولانى المنفردة ، انها تلك الايام السريعة الحلوة التى قضيتها بأكملها مع نفسي وحيدا فيرفقة مديرة شئونى الطيبة الساذجة ومع كلبى المحبوب وقطتى العجوز ومع طيورالريف وغزلان الغاب ومع الطبيعة جميعها وخالقها الذى لا يرى » .



ستكون من ثمار ذلك دائما معرفة جديدة لطبعي ولمزاجي بفضل الصلة التي ترتبط بين مشاعري وأفكاري والتي هي الزاد اليومي لعقلي في الحالة الغريبة التي أمر بها . وعلى ذلك فهذه الاوراق يمكن أن تعد ملحقا لاعتراقاتي ، ولكنني لا أستطيع أن أعطيها العنوان نفسه ، اذ انني لم أعد أحس أن هناك ما يمكن ان يقال مما يستحق ذلك العنوان . لقد تطهر قلبي في بورتقة المحن وأكاد في عسر أتبين فيه ، وأنا أتحسّن أغواره بعناية ، بقية من ميول تستحق اللوم . . وبعد فماذا لدى هناك من اعتراف وقد انتزعت منه كل المتع الدنيوية . لم يعد هناك ما يجعلني أرجى المديح الى نفسي ، أو ألومها عليه . انني منذ الآن صفر لا وجود لي بين الناس ، وذلك هو كل ما يمكن أن أكونه وقد انعدمت صلتي الفعلية ومعاشرتي الحقه لهم .

ولما لم يعد في مقدوري أن أقدم خيرا دون أن ينقلب الى شر ، أو أستطيع التصرف دون الحاق الضرر بانسان أو بنفسي ، أصبح واجبي الوحيد أن أغدو سلبيا ، وأن أؤدى هذا الواجب تماما كما أحس به . ولكن برغم توقف جسدي عن العمل فان روحى سبتظل نشطة تنبعث منها أحاسيس وأفكار وتبدو كذلك وكأنما انبسطت حياتها الداخلية والمعنوية بزوال كل المصالح الدنيوية أو العرضية ، وليس جسدي بعد اليوم سوى حائل وعقبة أسعى جهدى مقدما للتخلص منه .

ان وضعنا فريدا كهذا يستحق بالتأكيد أن يدرس وأن يوصف ، واني لاكرس أوقات فراغى الاخيرة لهذه الدراسة ، ويتعين على ضمانا لنجاحها أن أنهج نهجا منظما رتبيا ، ولكنني غير قادر على القيام بهذا العمل بل انه قد يبعثني عن هدفي وهو أن أتبين تطورات نفسى وكيف تتابعت هذه التطورات . وسأجرى على نفسى - الى حد ما - التجارب التي يجريها علماء الطبيعة على الجو لمعرفة حال الطقس اليومية . سأطبق البارومتر على روحى ، وسوف تستطيع تجاربه ، اذا ما أجيبه توجيهها وتكررت طويلا ، أن تقدم نتائج مؤكدة كتلك التي يقدمها علماء الطبيعة ثمرة لبحوثهم . ولكن ليس في نيتي التوسع الى هذا الحد فيما أقوم به . وسأكتفى بتسجيل تلك التجارب دون محاولة الخروج منها بقاعدة . اننى أقوم بما قام به « مونتاني » Montaigne (١) وان كنت

(١) مونتاني Montaigne هو كاتب فرنسي (١٥٣٢ - ١٥٩٢) ، اهتم بدراسة الاخلاق ، وبدأ في عام ١٥٧١ في كتابة المقالات Ies Essais ، صور فيها نفسه من خلال المتناقضات التي كان يلمسها في طبيعته ، وروسو هنا يبعد عن نفسه ماقد يعتقد من أنه يقلد مونتاني فيما كتب .

استهدف شيئاً مضاداً لهدفه ، وذلك لانه لم يدون محاولاته Essais الا للآخرين في حين اني لا أدون أحلام يقظتى لغيرى . ولئن بقيت في شيخوختي المتقدمة وأنا على وشك الرحيل . كما آمل في وضعي نفسه اليوم ، فستذكرني قراءتها باللذة التي اتذوقها وأنا أكتبها لأنها ستجعلني أحس بماضى وقد بعث من جديد ، وهكذا أعيش بفضلها مرتين ، كما يقولون ، وأتذوق برغم الناس سحر المجتمع وسأحياسيخاً مهتماً مع نفسي في عصر آخر كما لو كنت أعيش مع صديق يصفني .

لقد كنت اكتب أولى « اعترافاتي » Confessions و « حوارى » Dialogues ، وهي السدائم البحث عن الوسائل التي تمكنني من اخفائها عن أيدي مضطهدى الباطشة حتى أسلمها ، ان كان ذلك ممكناً ، لأجيل أخرى ولكن أقلق نفسي لا يساورني بالنسبة لما أكتبه هنا لاننى أدرك أنه لا جدوى من ذلك ، وأن الرغبة في أن تزيد معرفة الناس بى ، وقد تلاشت من نفسي ، لم تخطف سوى عدم الاكتراث الشديد بمصير كتاباتي الحقيقية وآثار براءتى على السواء ، التي ربما تم القضاء عليها الى الأبد . فليرقبوا ما أفعل وليتوجسوا خيفة من هذه الاوراق ليستحوذوا عليها أو ليقضوا عليها أو ليزيفوها ، فان كل ذلك سواء لدى منذ الآن . اننى لا أخفيها ولا أظهرها فلتن سلبنى اياها في حياتي فلن يستطيعوا حرمانى مما شعرت به من سرور عند كتابتها ولا من ذكرى ما اشتملت عليه ، ولا من تأملات الوحدة التي هي ثمرة لها والتي لن ينضب لها معين الا بصعود روحى الى بارئها . لو اننى عرفت منذ أن حلت بى أولى المصائب كيف لا اقاوم قدرى وأن ألتزم الجانب الذى ألتزمه اليوم ، لما استطاعت جهود الناس ولا خططهم الفظيعة أن يكون لها أثر على ولما استطاعوا اطلاق راحتي بكل ما يدبرون أكثر مما يستطيعون منذ الآن بكل ما أصابهم من توفيق . فليستمتعوا كيفما شاءوا بما لحقتنى من اذلال ولكنهم لن يمنعوننى من الاستمتاع ببرائتى ومن قضاء أيامى الاخيرة في سلام بالرغم منهم .

## الرحلة الثانية

أما وقد عولت على وصف الحالة التي اعتادتها نفسي في أعجب موقف يمكن أن يصادفه مخلوق ، لم أجد من وسيلة أيسر وأضمن لتنفيذ هذا المشروع إلا عمل سجل صادق لجولاتي المنفردة ولأحلام اليقظة التي تشغلها ، عندما أطلق لفكري العنان وعندما تتابع خواطري مراقها دون مقاومة أو صعاب . ان هذه الساعات التي تنقضي في وحدة وتأمل هي الساعات الوحيدة من اليوم التي أكون فيها أنا نفسي ولنفسى دون شاغل أو حائل وحيث يمكنني بحق أن أقول اننى ماشاءت الطبيعة أن أكونه ، وسرعان ما أحسست أننى أبطأت أكثر مما يجب في تنفيذ هذا المشروع . أما وخيالى أقل نشاطا فانه لم يعد يتوقد كما كانت الحال من قبل عند تأمل مايشيره ، كما أننى لم أعد أنتشى كما كنت أفعل بحرارة أحلامي بل ان فى نتائجها منذ اليوم من الاستعادة أكثر معا فيها من ابداع . ان وهنا فاترا يحط من قواى جميعا ، وسر الحياة يذوى في تدريجيا ، ولم تعد روى تنطلق خارج غلافها البالى الا في عسر ، ولن أستطيع أن أحيا على غير الذكريات مادام ليس هناك أمل في الحالة التي أرنو اليها لاننى أشعر بحقى فيها – وهكذا رغبة في تأمل ذاتى قبل أفولى – أرى لزاما على أن أرجع القهقري بضع سنوات على الأقل الى تلك الفترة حين فقدت كل أمل في الحياة ، ولم أجد غذاء لقلبى في هذه الدنيا فأخذت أعود نفسى تدريجيا على أن أزوده بخلاصته باحثا فى ذاتى عن زاده كله .

وقد غدا هذا النبع الذى تنبعت اليه متأخرا من الفزارة بحيث سرعان ما كان كافيا لتعويضى عن كل شيء ، كما جعلنى اعتياد الرجوع الى ذاتى ، أفقد فى نهاية الأمر الاحساس بالامى بل أفقد ذكرها تقريبا . وهكذا تعلمت عن طريق تجربتى الخاصة أن مصدر السعادة الحق كامن في نفوسنا وأنه ليس من شأن الناس ان يشقوا حقا من يريد أن يكون سعيدا .

وقد اعتدت منذ أربع أو خمس سنوات أن أتذوق هذه الملاذ الكامنة التي تلقاها الأرواح المحبة الرقيقة عن طريق التأمل . ان هذه المسرات والنشوة التي كنت أحس بها أحيانا وأنا أتجول هكذا وحيدا ، كانت متعا أدين بها لمضطهدي : اذ اننى لولاهم لما اكتشفت مطلقا أو أدركت الكنوز التي كنت أحملها في نفسي . وكيف يتأتى لى أن احتفظ بسجل أمين وسط هذا الثراء ؟ اننى حين أرغب في تذكر احلام يقظتى الحلوة ، أرانى مستغرقا فيها من جديد بدلا من أن أتناولها بالوصف ، وهذا هو ما يؤدي اليه تذكرها وهى حالة سرعان ماتختفى حين يتوقف الاحساس بها .

وقد شعرت تماما بهذا الأثر خلال جولاتى التي تبعت مشروع كتابة تمة «اعترافى» ، وبخاصة خلال الجولة التي سأتناولها بالحديث والتي قطع حبل أفكارى فيها حادث مفاجيء وجعلها تتخذ لفترة من الزمن مجرى آخر . ذلك أنه في يوم الخميس الموافق للرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٧٧٦ سرت عقب تناول العشاء في الطرق حتى شارع « شيمان فير » Chemin-Vert ومن ثم الى مرتفعات «منيلمنتان» Ménilmontant ثم سرت في الدروب والمراعى خلال الكروم مخترقا حتى «شارون» Charonne الريفى البهيج الذى يفصل ما بين هاتين القريتين ثم عرجت لأعود مارا بالمراعى نفسها ولكن عن طريق آخر . وكنت أسرى عن نفسى بتجوالى خلالها بتلك المتعة وهذا الاهتمام اللذين طالما بعثتهما في نفسى المناظر الجميلة . وبتوقفى أحيانا لأمعن النظر في نباتات معينة منبثة في الخضرة وقد لمحت من بينها نوعين ندر أن رأيتهما حول باريس ولكننى وجدتهما بوفرة كبيرة بهذا الإقليم . . أما أولهما فهو الحوذان Picris-hieracides من فصيلة المركبات وأما الآخر فهو ( أذن الارنب Bupleurum falcatum من نباتات الفصيلة الحيمية ombellifères (١) .

وقد سرنى ذلك الاكتشاف وأسعد نفسى فترة طويلة ، كما أدى الى اكتشاف نبات آخر أشد ندرة أيضا خاصة وهو في إقليم مرتفع هو المعروف باسم الحشيشة المائية Cerastum aquaticum الذى - برغم الحادث الذى وقع لى فى اليوم نفسه - وجدته فى كتاب كنت أحمله معى وقد وضع فى معطفى .

وفى النهاية بعد أن فحصت تفصيليا أنواعا كثيرة أخرى من

(١) من المعجم المصور للنباتات : تأليف أرنالك . ك . بديفيان . القاهرة ١٩٢٦ .

النباتات كانت لاتزال مزهرة وكان مظهرها وترتيبها وهو أمر مألوف لدى -  
يدخلان الى نفس السرور مع ذلك دائما ، وأخذت أتخلى شيئا فشيئا  
عن هذه الملاحظات الدقيقة لأستسلم الى انطباعة لا تقل عنها لذة وان  
كانت أشد تأثيرا ، أضفاها على ذلك كله .

كان جنى الكروم قد تم منذ بضعة أيام وكان أهل المدينة من المتزهين  
قد عادوا أدراجهم ، وكان الفلاحون قد هجروا حقولهم حتى يحل عمل  
الشتاء ... وأصبح الريف الذى كان لا يزال مخضرا ضاحكا - وان  
تمرى من أوراق أشجاره جزئيا - يعرض فى جميع أنحاء صورة للعزلة  
ومقدم الشتاء .

كان منظره على هذه الصورة مزاجا من الانطباعات الحلوة والمؤسفة  
بلغت من الشبه بأيامى وحظى حدا لا يسعنى معه الا أن أراها تطابقها  
تماما .

كنت أرانى فى مغيب حياة بريئة تعسة ونفسى لاتزال مليئة بمشاعر  
حية وروحي تكللها بعض الازهار ، وان أسقمها الحزن وأذبلها الملل . . .  
كنت أحس وأنا وحيد مهجور ببرودة الثلوج الأولى ، وكان خيالى  
الآخذ فى النضوب لا يستطيع أن يملأ فراغ وحدتى بكائنات صيغت وفق  
هواى كنت أقول لنفسى وأنا أتهدد « ترى ماذا اقترفت فى هذه الدنيا ؟  
لقد خلقت لأحيا ولكن هاأنذا أموت دون أن أكون قد عشت » .

أن هذا ليس على الأقل ذنبى ، ولئن لم أستطع أن أقدم الى بارئ  
كيانى قربانا من صالح الاعمال التى لم أمكن من أدائها ، فاننى سأقدم  
على الأقل ضريبة من نوايا طيبة ومن مشاعر طاهرة جعلها الناس عديمة  
الجدوى ، ومن صبر على محنة احتقارهم اياى .

كنت أحس بحنين لدى هذه الخواطر وكنت أستعيد خالجات  
نفسى منذ شبابى وفي سن نضوجى ، ومنذ أن أبعدت من المجتمع الانسانى  
وطوال فترة الانعزال الطويلة التى فرض على أن أقضى فيها أيامى الأخيرة  
... كنت أسترجع فى رضا غامر عواطف قلبى جميعا وميوله الرقيقة ،  
العمياء مع ذلك ، وخواطرى التى كان جانب العزاء فيها يطفى الى ما بينا  
من هم دفين والتى كانت غذاء لفكرى منذ بضع سنوات خلت وكنت  
أعد نفسى لتذكرها بالقدر الذى يمكننى من تناولها بالوصف بلذة تكاد  
تعادل اللذة التى كنت أحسها حين استسلمت لها . وانقضت فترة ما بعد  
الظهيرة فى هذه التأملات الهادئة ، وكنت عائدا بالغ السعادة من يومى

عندما انتزعتني من غمار حلم يقظتي الحادث الذي بقى على أن أرويه .

كانت السادسة وأنا أهبط طريق منيلمنتان Ménilmontant في مواجهة « جالان جاردنييه Galant-Jardinier » تقريبا عندما شهدت جماعة من الناس - كانوا يسرون أمامي - يتفرقون فجأة ، وسرعان ما انقض على كلب دانمركي ضخيم قفز سريعا أمام عربية فلم يكن لديه من الوقت ما يكفي لان يتوقف أو يخيد عندما لمحني . . ووجدت أن الطريقة الوحيدة لتجنب وقوعي على الارض ، هي القفز الى أعلى بحيث يمر الكلب من تحتي ، وأنا معلق في الفضاء . هذه الفكرة وقد مضت في ذهني بأسرع من البرق بحيث لم يكن لدى من الوقت ما يسمح بتدبرها أو بتنفيذها ، كانت آخر ما عن لي قبل وقوع الحادث حتى لم أحس بالصدمة ولا بسقوطي على الارض ولا بما تلا ذلك حتى اللحظة التي أفقت فيها .

كان الليل قد أرخى سدوله تقريبا عندما عاد الى رشدي ، ووجدت نفسي مستندا الى أذرع ثلاثة أو أربعة من الشبان قصوا على ما حدث لي ، فذكروا أن الكلب الدانمركي اصطدم بساقي أثناء عنوه حين لم يستطع الحد من اندفاعه فصدمني بجماع جسمه وسرعته حتى أوقعتني أرضا ورأسي الى الامام . وكان فكي العلوي الذي حمل ثقل جسمي كله قد اصطدم بأرض الطريق البالغة الخشونة ، فقد كانت السقطة من العنف بحيث جعلت رأسي في مستوى أدنى من قدمي . وكانت العربية التي ينتمي اليها الكلب قادمة في اثره وكادت تمر فوق جسدي لو لم يكبح الحوذي فورا جماح خيله .

كان هذا ما علمته من رواية أولئك الذين انهضوني وكنت لازال استند اليهم حين أفقت ، وكانت الحالة التي وجدت نفسي عليها حينئذ شديدة الغرابة بحيث لا يسعني الا أن أتناولها هنا بالوصف :

كان الليل يتقدم ، ورأيت السماء وشهدت عددا من النجوم وقليلاً من الحضرة ، وكان هذا الاحساس الأول لحظة هنيئة ولم يكن يخالنجي غيره اذ ذاك . كنت أخرج في هذه اللحظة الى الحياة وكان يخيل الى أنني اشغل بكيانى الضئيل كل ما كان يقع عليه ناظري . أما وقد عدت الى نفسي تماما فلم أكن أذكر شيئا بالمرّة ، ولم تكن لدى أية فكرة واضحة عن ذاتي ، ولا أدنى خاطر عما لحقني . لم أكن أدري من أكون ولا أين أنا ولم أكن أحس بالأم أو خوف أو قلق . كنت أرى دمى يسيل كما او كنت أشهد جدولا ينساب دون أن يخطر لي بحال أن هذا الدم دمى .

كنت أحس هدوءاً أخذاً يستولى على كيأني كلما تذكرته لأجد له مثيلاً في عالم اللذات المعهودة . . وقد سألوني أين أقيم ؟ ، ولكن . . كان من المستحيل على أن أجيب . وسألتهم أين أنا ؟ . فقيل لي انني في « لاهوت بورن » La Haute-Borne وكان ذلك كما لو قيل لي انني في جبل أطلس Mont Atlas - وكان من الضروري أن أسأل على التوالي عن اسم الاقليم والمدينة والحي ، التي أنا فيها وحتى ذلك لم يكن كافياً كي أتعرف على نفسي ، وكان لا بد من أن أقطع المسافة كلها من هناك حتى أصل الى الطريق لأتذكر سكني واسمي . ونصحتني رجل لم تكن تربطني به معرفة . وان أحسن الى بمزافقتي بعض الوقت حين أدرك أنني أسكن بعيداً - نصحتني بركوب عربة من « تمبل » Temple توصلني الى منزل . . وكنت أسير سيراً حسناً في يسروخفة ملحوظين دون أن أحس بالألم أو جرح برغم ما كنت ألقظ من دم كثير ولكن انتابتنى رعشة باردة جعلت أسناني المهشمة تصطك ببعضها في صورة غير مريحة بالمرّة . . وحين وصلت الى « تمبل » خيل الى انني ما دمت استطعت المسير دون ألم فإنه من الافضل أن أتابع طريقي سيراً على الاقدام من أن أتعرض للهلاك برداً في عربة . . وهكذا قطعت نصف الفرسخ فيما بين « تمبل » وشارع « بلاتريير » (١) Plâtrières وأنا أسير في غير عناء ، متحاشياً العقبات والعربات مختاراً ومتبعياً طريقي نفسه على نحو ماكنت أفعل فيما لو كنت مكتمل الصحة . . وهأنذا أصل وأفتح المزلاج الذي وضع في بوابة الشارع ثم أصدد السلم في الظلام وأدلف في نهاية الامر الى حيث أقيم دون أن أتعرض لحادث آخر سوى سقطتي وماترتب عليها ، مما لم يكن يخطر على بالي اذ ذاك .

ولقد أدركت من صرخات زوجتي حين شهدتني أن ما حل بي أبلغ مما كنت أتصور ، ولقد قضيت الليل دون أن أدرك أو أحس مدى ما حل بي من سوء ولكن هاك ما أحسست به وما تبينته في اليوم التالي : كانت شفتي العليا مشقوقة من الداخل حتى أنفي ، أما من الخارج فقد صانها الفشاء الجلدي فحال دون أن ينفصل شقاها ، وكانت اربعة من الاسنان قد انغرست في فكي العلوي ، وأما الجانب من الوجه الذي يغطيها فكان شديد التورم تملؤه الكدمات كما أن ابهام اليد اليمنى أصيب بالتواء أدى الى انتفاخه ، وكان باهام اليد اليسرى جرح كبير ، أما الذراع اليسرى

(١) شارع بلاتريير Plâtrière هو الذي سكن روسو في منزل به بالدور الرابع عندما عاد الى باريس عام ١٧٧٠ ولم ينتقل منه الا في ٢ من مايو عام ١٧٧٨ ويسمى هذا الشارع اليوم شارع جان جاك روسو .

فقد أصيب بالتواء كذلك وأما الركبة اليسرى فكانت شديدة التورم وبها رضى شديد ومؤلم يمنعها كلية من القدرة على الانثناء . وبرغم هذه الإصابات جميعا فإنه لم تكن هناك كسور ولا في سن واحدة وهو أمر يكاد يشبه المعجزة بعد سقطة كتلك التي تعرضت لها .

تلك هي قصة الحادث الذى وقع لى بمنتهى الصدق (١) وقد انتشرت تلك القصة بعد أيام قليلة فى باريس بعد أن تناولها التغيير والتحوير حتى أضحى من المستحيل التعرف على شيء منها . وكان من الواجب أن أفترض مقسداً ذلك التحوير ولكن صحبت ذلك الجحادث ظروف كثيرة غريبة ولفو مبهم وتكتم ، وكان الناس يتحدثون الى فى فضول مضحك جعلنى أوجس شرا من كل تلك المعميات .

لقد كنت دائما اكره الظلمة لأنها بطبيعتها تبعث فى نفسى رعبا حتى أن ما أحاطنى به الناس طوال تلك السنوات الكثيرة ما كان ليقلل منه . ومن بين غرائب هذه الفترة لن أشير الا الى واحدة تكفى مع ذلك للحكم على غيرها .

فقد أرسل السيد ( ٠٠٠ ) ( ٢ ) الذى لم تكن لى به صلة ما فى يوم من الايام سكرتيره ليستطلع اخبارى وليعرض على فى الحاح خدمات لم أر لها فى تلك الآونة فائدة فى التخفيف عنى . ولم يفت سكرتيره هذا أن يحثنى فى اصرار على أن أتمسك بعروضه حتى أنه قال لى انه ان لم تكن لى ثقة فيه فان فى استطاعتى أن أكتب مباشرة الى السيد ( ٠٠٠٠ ) .

وقد أدركت من وراء هذا الالحاح فى النصح وروح الثقة التى صحبته سرا ماكنت أحاول عبثا الكشف عنه ، ولم يكن الامر يستوجب مزيدا لينفرننى وبخاصة فى حالة الاضطراب التى كان يعانيتها عقلى من جراء الحادث والحمى التى صحبته . وقد استسلمت لألف من الافتراضات

(١) وردت عن هذا الحادث روايات عدة تختلف فى بعض التفاصيل ، لعل أهمها ما أورده برناردين دوسان بيير Bernardin de Saint-Pierre وكورانسيه Corancez وهما يؤيدان ما يرويه روسو . الاول فى كتابه من حياة روسو وأعماله  
la vie et les ouvrages de J.J. Rousseau

والثانى فى « جورنال دوبارى Journal de Paris ( السنة السادسة . الجزء الاول من رقم ٢٥٩ - ٢٦١ ) ويرى البعض أن روسو ربما كان متأثرا فيما يرويه بما كتبه مونتسائى Montaigne عن أحاسيسه بعد سقطته من فوق الحصان .  
« Essais, Liv. II, Chap. VI » .

(٢) السيد لِنوار Monsieur Lenoir هو رئيس الشرطة طبقا لما جاء بالنسخة الخطية للسبع جولات الاولى وهى النسخة المحفوظة فى نيوشاتل .



المقلقة الكئيبة وكانت لى على كل مايدور حولى تعليقات تتسم بهذيان الحمى اكثر مما تتسم بهدوء أعصاب رجل لم يعد يكثر بشيء .

ثم طرأ امر آخر قضى على البقية الباقية من هدونى ذلك ان السيدة «.....» (١) كانت تطاردنى منذ بضع سنوات دون أن أحس سبب ذلك فمن هدايا صغيرة كانت تفتعل مناسبتها ، الى زيارات متكررة لم يكن هناك من داع لها ، ولم تكن تبعث السرور كذلك وكانت كافية لان تدفعنى الى الوثوق من وجود هدف مستور وراء ذلك كله ، وان لم تبينه تماما . وكانت قد تحدثت الى عن قصة تريد كتابتها لتقديمها الى الملكة وذكرت لها رأيى فى المؤلفات من النساء ، وأفهمتنى أن هدفها من هذا المشروع استعادة ثروتها مما يجعلها فى حاجة الى رعاية ، ولكن لم يكن لدى من رد على ذلك . ثم ذكرت لى بعد ذلك أنها لم تستطع الاتصال بالملكة ولذا استقر رأيها على تقديم كتابها للجمهور . ولم يكن هناك مجال لاسداء نصيح لم تطلبه بل لو أن هذا حدث لما استمعت الى . وكانت قد قالت لى انها ستعرض على المخطوط أولا فرجوتها ألا تفعل وقد استجابت الى ذلك .

وقد تلقيت منها ذلك الكتاب ذات يوم خلال فترة نقاهتى مطبوعا بل ومجلدا وشهدت فى المقدمة مديحا ضخما لشخصى صدر به الكتاب بشكل مجوج وفيه كثير من الافتعال مما كان له أسوأ الأثر فى نفسى . ولم يكن الملق الفج الذى يتلمسه المرء فى ثناياه مما يتفق واللياقة ولم يكن قلبى ليخضع به .

وجاءت السيدة «.....» بعد عدة أيام لزيارتى ومعها ابنتها وذكرت لى أن كتابها أثار أكبر ضجة بسبب ملاحظة وردت به . وقد لاحظت بالكتاب هذه الملاحظة حين كنت أتصفح على عجل هذه القصة ، فأعدت قراءتها بعد انصراف السيدة ، وتمعنت فى تركيبها وأحسبنتى كشفت عن هدف زيارتها لى وملقها اياى وما اسبفته من مديح مغالى فيه لشخصى فى مقدمة الكتاب . وايقنت أن هذا كله لم يكن له من هدف آخر سوى تهيئة أذهان الجمهور لتنسب تلك الملاحظة لى وبالتالي ماتثيره من لوم على كاتبها فى الظرف الذى تم نشرها فيه .

لم يكن لدى من وسيلة لاختماد هذه الضجة والأثر الذى يمكن أن

(١) - مدام دورمو Mme d'Ormoى هى اديبة ، مؤلفة كتاب : *Malheur de la Jeune Emilie (Paris 1777)*.

ينجم عنها ، وكان كل ما استطيع القيام به هو الا اعمل على اذكارها بتحمل  
استمرار زيارات السيدة «...» وابنتها ، هذه الزيارات الفارغة  
المكشوفة . ومن أجل ذلك كتبت الى الام هذه الرسالة :

« لما كان روسو لا يستقبل في بيته أى مؤلف ، فهو يشكر السيدة  
«...» على أفضالها ويرجو ألا تشرفه بعد اليوم بزيارتها » .

وقد كتبت لى الرزد خطابا صادقا ظاهره وان كان ملتويا ككل  
الخطابات التى تكتب الى فى مثل هذه المناسبة . ولقد أعمدت الخنجر  
بوحشية فى قلبها الحساس ، وكان على ان أصدق من وراء لهجة خطابها  
انها لن تتحمل البتة هذه القطيعة بل ان دونها الموت لما تكنه من مشاعر  
حاددة صادقة ، وهكذا تعد الاستقامة والصرحة فى كل شىء جرائم بشعة  
فى هذا العالم ، وهكذا كنت أبدو لمعاصرى شريرا شرسا حين لا يكون لى  
من جرم فى نظرهم سوى أننى لست مضللا أو مخادعا مثلهم .

كنت قد خرجت مرات كثيرة بل كنت أتجول غالبا فى التويلرى  
Tuileries عندما استنتجت من دهشة الكثيرين الذين كانوا يقابلوننى  
انه لا يزال هناك نبا آخر يتصل بى كنت أجهله . وعلمت فى نهاية الامر  
ان شائعة سرت بين الناس مؤداها أننى مت على اثر سقطتى . وقد  
انتشرت تلك الشائعة فى سرعة وأصرار ، حتى أنه بعد أكثر من خمسة  
عشر يوما من علمى بها كان الناس يتحدثون عنها فى البلاط وكأنما هى  
أمر أكيد . ولم يفت جريدة الكوربيه دافنيون « Courrier d'Avignon » (١)

(١) - فى عدد الثلاثاء ٢ من ديسمبر نشرت جريدة كوربيه دافنيون Courrier d'Avignon

« منذ بضعة أيام صدم أحد تلك الكلاب الدانمركية التى تتقدم العربات السريعة  
السيد روسو الذى غالبا ما يتجول وحيدا فى الريف ... ويقال انه مريض جدا  
بسبب هذه السقطة ، ولا نستطيع أن نأسف كثيرا على ما ناله بسبب دوس  
الكلاب له ... » وفى عدد الجمعة ٢٠ من ديسمبر : « مات جان جاك روسو  
متأثرا من سقطته . لقد عاش فقيرا ومات بائسا . ان غرابة قدره صحبته  
حتى القبر ، وانه ليؤسفنا اننا لانستطيع أن نتحدث عن مواهب هذا الكاتب  
البليغ . ولا بد أن قراءنا يدركون أن سوء استعماله اياها يفرض علينا الصمت  
المطبق فى هذا المقام . فليطمئن الناس تماما من أنهم لن يحرموا من الامام بتفصيلات  
حياته وانهم سيجدون بها حتى اسم الكلب الذى قتله » .

وقد كتب فولتير Voltaire الى فلوريان Florian فى ٢٦ من  
ديسمبر ١٧٧٦ يقول : « لقد أحسن جان جاك صنعا بموته ، ويزم انه ليس  
صحيفا أن كلبا قتله ، وأنه شفى من الجراح التى أصابه بها صديقه الكلب .  
ولكن يقال انه فى يوم ١٢ من ديسمبر عن له أن يقوم بالتسلق فى باريس مع صديق =

كما عنى البعض بالكتابة الى مشيرين الى ماجاء بها - عندما زفت هذا النبأ السعيد - أن تتعجل بهذه المناسبة ما يعد لما أستحقه من السباب والاهانات لذكرى وفاتى فى صورة رثاء ، وقد اقترن ذلك الخبر بظرف آخر اكثر غرابة كذلك لم أعلم به الا مصادفة وان لم أعرف شيئا عن قصيلاته : ذلك أنه افتتح اكتاب فى الوقت نفسه لطبع المخطوطات التى قد يعثرون عليها لدى ، وفهمت من وراء ذلك أنهم قد أعدوا مجموعة من الكتابات اصطنعوها خصيصا لتنسب الى بعد موتى مباشرة ، ذلك لان الاعتقاد بأنهم قد يقومون مخلصين بطبع أية واحدة من بين ما قد يعثرون عليه حقيقة ، سخافة لايمكن أن يقبلها تفكير رجل عاقل جنبته اياها خبرة خمسة عشر عاما .

وقد أهجت هذه الملاحظات خيالى من جديد بعد أن كنت اظن أنه خمد وذلك حين توالى وحين تبعتها أخريات ليست بأقل منها عجبا ، كما أحيت فى نفسى تلك الافتراءات المضللة - التى دأبوا على تدعيمها بغير هودة من حولى - كل ما تبعته فى نفسى عادة من اشمزاز .

ولقد نال منى الجهد وأنا أحاول ايجاد ألف تفسير لهذا كله ومن جراه محاولة تفهم الاسرار التى جعلوها مستغلقة على ، وكانت النتيجة الوحيدة الثابتة لتلك المعميات تأكيدا لكل ما انتهيت اليه من قبل وهو أن ما قدر لى وما قدر لسمعتى قد اتفق على تحديدهما الجيل الحاضر جميعه بحيث لم يكن أى جهد من جانبى ليستطيع تخليصى مادام ليس فى مكنتى اطلاقا أن انتقل الى الاجيال المقبلة اية وديعة دون أن تمر بين ايدى هذا الجيل التى يههما القضاءعليها .

ولكننى فى هذه المرة ذهبت الى أبعد من ذلك : ان تجمع هذا القدر من الاحداث الطارئة وارتفاع شأن الأعدائى جميعا بفضل يد القدر كما يقال وكل أولى الأمر فى الدولة ، وكل من يوجهون الراى العام ، وجميع ذوى المكانة والصفوة من ذوى الاعتبار الذين كأنما اختيروا عمدا من بين أولئك الذين يحملون لى ضغنا دفينا ، غمتسابقين ليسهموا فى المؤامرة المشتركة . . . هذا الاجماع العام من القرابة بحيث لايمكن أن يكون محض صدفة . ولو أن أمرا أبى أن يسهم فى المؤامرة ، أو لم يتفق أحد احداثها مع وجهة نظره ، أو أن ظرفا غير متوقع اعترض سبيله ، لكان

---

= قديم من جنيف يدعى رومبى Romilly وانه أكل كشيطان فأصيب بعسر هضم ثم مات ككلب . . . .

ذلك كافيا لفشلها ، ولكن دعمت من صنيعهم كل الإرادات والمقدرات والمال والثورات . وإن تسابقا مثرا كهذا يكاد يشبه المعجزة ، لا يدع مجالاً للشك لدى في أن نجاحه المحقق كان مكتوباً في لوح القدر ، وأن كثيرا من الملاحظات الخاصة سواء في الماضي أو في الحاضر أيدت رأيي هذا ، لدرجة لا يستطيع معها أن أمنع نفسي بعد من أن أرى ما كنت أحسبه حتى اليوم ثمرة الشر الانساني ، كأنما هو واحد من تلك الاسرار الالهية المستعصية على العقل البشري .

ان هذه الفكرة بدلا من أن تقسو على وتمزق قلبي أراها تعزيني ، وتدخل السكينة الى نفسي وتساعدني على الاستسلام ، وأنا في هذا لا أختلف عن « القديس أوغسطين » (١) الذي عزى نفسه عن تعذيب الناس له باعتبار أن هكذا كانت مشيئة الله . وأما استسلامي فمصدره لا يخلو من الغرض في الواقع ولو أنه ليس اقل نقاء وأكثر جدارة في رأيي بالكائن الكامل الذي أعبدته .

ان الله عادل ، وهو يريد أن أتألم وهو يعلم أنني بريء . . . ذلك هو سبب ايماني الذي يؤكد قلبي وعقلي انه لن يضللني . فليدع اناس والقدر اذن لما يعملون ولنتعلم كيف نحتمل الألم بغير تدمر : فلا بد وأن تنتظم الامور جميعا في النهاية ، وسيحل دوري ان عاجلا أو آجلا .

---

(١) - القديس أوغسطين **Saint-Augustin** هو ابن القديسة مونيكا **Sainte Monique** ( ٣٥٤ - ٤٣٠ م ) وقد اجتذبه الحياة الدينية بعد شباب ماجن وأصبح فيما بعد أشهر آباء الكنيسة اللاتينية ، ومن أهم مؤلفاته مدينة الله والاعترافات . وهذه روى فيها أخطاء شبابه ثم هدايته ( حوالى ٢٩٨ م ) .

## الجولة الثالثة

« اننى أشيخ وما أزال أتعلم »

كان «سولون» (١) يردد هذا البيت من الشعر كثيرا فى شيخوخته ، ولهذا البيت معنى أستطيع أنا الآخر أن أردده فى شيخوختى كذلك . وياله من علم يدغو الى الرثاء ، ذلك العلم الذى أكسبتنى اياه التجربة منذ عشرين عاما (٢) ، ان الجهل أفضل منه . ان المحنة هى من غير شك معلم كبير ، ولكن هذا المعلم يتقاضى غالبا ثمن دروسه ، وأغلب الامر أن مايجنيه المرء من فائدة من ورائها لا يعدل الثمن الذى تكلفته . هذا الى أن فرصة الافادة منها تنقضى قبل أن يستطيع المرء الحصول عليها من وراء دروس جاءت متأخرة . ان الأسباب هو الفترة التى يتعلم المرء فيها الحكمة ، أما الشيخوخة فمرحلة ممارستها . وانى لأقر أن التجربة تعلم دائما ولكنها لا تفيد الا بقدر ما أمام المرء من فسحة فى الوقت . ان ساعة الموت هى اللحظة التى يتعلم فيها كيف كان يجب أن يعيش ؟

وبعد ، فبم تفيدنى معلومات جاءت متأخرة وبهذه الصورة المؤلمة عن مصرى وعن عواطف الآخرين ومصرى من صنعهم ؟ انى لم أتعلم أن أزداد معرفة بالناس الا لأزداد احساسا بمدى ماأغرقونى فيه من تعاسة دون أن تستطيع تلك المعرفة حين أماطت اللثام عن كل مانصبوه لى من شرك ، أن تجنبنى واحدا منها .

ليتنى ظللت أنعم بهذه الثقة العمياء - الحلوة مع ذلك - التى جعلت منى طوال تلك الأعوال العديدة فريسة وألعوبة لصحابى الصاخبين ،

(١) سولون Solon هو فيلسوف ومشرع اغريقى ( ٦٤٠ - ٥٥٨ ق.م ) .

(٢) بشر روسو هنا الى عام ١٧٥٧ حيث تمت القطيعة بينه من ناحية وبين مدام دابناتى Mme d'Epinaى وجريم Grimm وديدرو Diderot من ناحية اخرى ، وكان ذلك بداية متابعه الحقبة واعتقاده فى مؤامرة يحيكها له أعداؤه .

دون ان ينالنى أدنى شك فيما أحاطونى به من تدبيرات . حقا لقد كنت موضع استغفالهم كما كنت ضحية لهم ، ولكننى كنت أحسبني محبوبا منهم ، وكان قلبى يستمتع بما أوحوا الى من محبة حسبتهم ببادلوننى مثلها . ولكن انهارت هذه الاوهام اللذيذة . ان الحقيقة الاليمة التى كشف لى عنها الزمن والعقل وهما يجعلاننى أجس بشقائى ، جعلتنى أدرك أن لاوسيلة للبرء منه ، وأنه لم يعد لى الا ان أستسلم له ، ومن ثم كانت كل تجارب عمرى بالنسبة لى وفى حالتى هذه ، بغير نفع حاضر ، أو كسب فى المستقبل . اننا نشرع فى الكفاح عند مولدنا ونفرغ منه عند الموت ، فما جدوى تعلم المرء كيف يحسن قيادة مركبته حين يكون قد بلغ نهاية المطاف ؟ انه لم يعد اذ ذاك مجال للتفكير اللهم الا فى كيفية الخروج منه . ان ما على الشيخ أن يدرسه . . اذا كان لايزال هناك مجال للدراسة لايعدو أن يكون المران على الموت ، وتلك الدراسة على وجه التحديد هى اقل مايهتم به من كان فى مثل سنى ، فهو يفكر اذ ذاك فى كل شىء الا ذلك الامر . والشيوخ جميعا يستمسكون بالحياة اكثر من استمساك الاطفال بها ، ويرحلون عنها فى أسى يفوق حزن الشباب على فراقها ، ذلك لانهم - وقد كان كل ماقاموا به من اعمال انما قاموا به من أجل هذه الحياة الدنيا - يشعرون فى نهايتها أن كل جهودهم ضاعت هباء فهم يخلفون عند رحيلهم كل ماجهدوا من أجله وكل متاعهم وكل الثمار التى سهرروا يعملون من أجلها . ولم يفكروا خلال حياتهم أن يكتسبوا شيئا يستطيعون حمله معهم عند موتهم .

لقد رددت ذلك لنفسى فى الوقت المناسب له ، ولئن لم يكن فى الامكان ان أفيد من خواطرى خيرا من ذلك ، فليس هذا لانها لم تعن لى فى أوانها أو لأننى لم أستطع استيعابها تماما . ولما كنت قد زج بى منذ طفولتى وفى خضم الحياة ، فقد أدركت مبكرا ، وبالتجربة ، أننى لم أخلق لأعيش فيها ، واننى لن أنجح البتة فى الوصول الى ما يحس قلبى بحاجته اليه . واذن فلما توقفت عن البحث بين الناس عن السعادة التى كنت أدرك عدم قدرتى على أن أجدها بينهم ، فان خيالى المتوقد مالبث أن وثب متخطيا نطاق حياتى وهى بعد فى مستهلها ، وكأنما يجتاز أرضا غريبة عنى . ليستقر فوق بقعة هادئة أستطيع أن أثبت عليها .

كان هذا الشعور الذى اغتدى بما تعلمته منذ طفولتى والذى تدغم طوال حياتى . . بتلك السلسلة - من الشسقاوة وسوء الحظ - التى

ملأت أرجاءها . . . مما دفعني في كل وقت ، الى محاولة معرفة طبيعة كيانى وما سوف ينتهى اليه وذلك فى اهتمام وفى عناية أبلغ مما أجدهما عليه لدى أى انسان آخر . لقد شهدت من بين الناس من استطاعوا ان يتعمقوا فى فلسفتهم أكثر منى ، ولكن فلسفتهم تلك ، ان صح القول ، كانت غريبة بالنسبة لهم ، فرغبة منهم فى ان يصبحوا أغزر علما من غيرهم ، أخذوا يدرسون الكون حتى يتوصلوا الى معرفة كيف نظم ، كما لو كانوا يدرسون بدافع الفضول المحض آلة من الآلات وقع نظرهم عليها . لقد كانوا يدرسون الطبيعة البشرية ليستطيعوا التحدث عنها حديث العلماء . لا ليتعرفوا على أنفسهم ، وكانوا يعملون لتثقيف الآخرين . . لا لالقاء ضوء المعرفة على دخيلة أنفسهم . بل ان الكثيرين منهم لم تكن لهم من رغبة سوى تأليف كتاب - ولا يهم فى ذلك أى كتاب - على شريطة أن يتقبله الناس ، وحين يتم تأليفا ونشرا فلا تهتمهم بعد ذلك محتوياته فى كثير أو قليل ، اللهم الا دفع الناس الى اعتناقها ، والدفاع عنها أن هوجمت . وذلك دون أن يفيدوا منها أو يجشموا أنفسهم عناء معرفة صواب أو خطأ هذه المحتويات مادام الناس لم يفندوها . وأما أنا ، فاننى حين كانت تحددونى الرغبة فى التعلم ، فقد كنت أستهدف معرفة ذاتى ، لا تعليم الناس . . وكنت أومن دائما أن على الانسان أن يبدأ بمعرفة الكثير لذاته قبل أن يعلم الآخرين . ومن بين كل الدراسات التى حاولت القيام بها خلال حياتى بين الناس ، لم تكن هناك واحدة لا أستطيع القيام بها كذلك وحيدا فى جزيرة تخلو منهم أحتجز فيها بقية أيام حياتى . ان مايجب على الانسان عمله يتوقف كثيرا على ما يجب عليه الايمان به ، وأن معتقداتنا هى التى تنظم فعالنا الا فيما يتعلق بالضرورات الأولية التى تفرضها الطبيعة . ولقد حاولت كثيرا لفترة طويلة - وبهذا المبدأ الذى اعتنقته دائما - ان اوجه طريقة حياتى وان اعرف نهايتها الحققة ، فما لبثت ان تعزيت عن ضعف مقدرتى على شق طريقى بمهارة فى هذا العالم وذلك حين شعرت انه لم يكن من الضرورى السعى وراء معرفتى تلك النهاية .

أما وقد ولدت فى أسرة تسودها التقاليد المتينة والتقوى وربيت فيما بعد بحنان لدى كاهن بالغ الحكمة والتدين ، فقد تلقيت منذ نعومة أظفارى مبادئ ومثالا - قد يسميها الآخرون معتقدات - لم يحدث مطلقا أن تخلت عنها تماما . وعندما كنت لا أزال طفلا ، على شخصيتى ،

يغرينى التدليل ، ويملكنى الزهو ، وتخدعنى الأمانى ، وتقهرنى الحاجة ، اعتنقت الكاثوليكية ولكنى ظللت دائما مسيحيا ، وما لبث قلبى بحكم العادة أن تعلق باخلاص بدينى الجديد . وقد وطدت لى هذا التعلق تعاليم مدام «دوفوران» (١) Mme de Warens وما سردته على من أمثال . كما أن وحدتى فى الريف حيث أمضيت زهرة شبابى ، بالاضافة الى دراسة الكتب الجديدة التى تفرغت لها بكليتى ، دعمت - وأنا بجوارها - من استعداداتى الطبيعية لمشاعر الود وجعلت منى متدينا على طريقة فينلون Fénelon (٢) تقريبا . ان التفكير أثناء العزلة ودراسة الطبيعة وتأمل الكون ، تضطر جميعا المرء المنفرد بنفسه الى الانطلاق دوما نحو خالق الاشياء ، والى البحث فى لهفة مستحبة وراء غاية كل ما يراه وعلته كل ما يحس به . وحين ألقى بى قدرى فى دوامة الحياة ، لم أعد أجد فيها ما يستطيع أن يستهوى قلبى ، ولوللحظة واحدة ، فقد تبعتنى الحسرة - أينما توجهت - على أوقات فراغى الحلوة ، ولونت بعدم الاكتراث والاشمئزاز كل ما كان من الممكن أن أجده فى متناول يدي، حريا أن يقودنى وراء الثراء ومراتب المجد ، ولما لم أكن مستقرا تحدونى رغباتى القلقة، فقد كنت آمل فى القليل ، فحصلت على الأقل ، وشعرت حتى فى اشراقه الرخاء أننى لو قدر لى أن أحصل على ما كنت أظننى أبحث عنه لما عثرت فيه قط على تلك السعادة التى كان قلبى متعطشا إليها دون أن يستطيع تبين كنهها . وهكذا كان كل شىء يسهم فى تقطيع أوصال المودة بينى وبين هذا العالم حتى قبل أن تحل بى المصائب التى كان من شأنها أن جعلتنى غريبا عنه تماما . وهكذا شارفت الاربعين من عمري ، أنأرجح بين العوز والثراء . . . بين الحكمة والضياح ، تجللتى رذائل اعتدتها دون أن يكون بقلبى أى ميل الى الاثم ، أعيش مغامرا دون مبادئ محدودة تماما فى فكرى ، لاهيا عن واجباتى دون أن أحقرها ، ولكن دون ان اتفهمها جيدا فى أغلب الامر .

(١) - مدام دوفوران Mme de Warens هى السيدة التى حولت روسو من البروتستانتية الى الكاثوليكية واثام عندها سنوات كان يناديها خلالها «امى» ويعتبرها روسو ( الجولة الماشرة ) أسعد سنوات عمره .

(٢) فينلون Fenelon كاتب فرنسي ومن كبار رجال الدين ( ١٦٥١ - ١٧١٥ ) ، اعتنق مذهب يدعى Le quiétisme يلصده «الحب الخالص لله» ولا يطلب ضمنه يعتنق هذا المذهب القيام بأية شعائر دينية ، فما عليه الا ان يعيش محبا لله فى هدوء مطلق .



ولقد كنت منذ أيام شبابه قد حددت هذه المرحلة - مرحلة الاربعين - كحد لمجهودي في سبيل النجاح ، وكحد لمشروعاتي في كل نوع مصرا - بمجرد بلوغى هذه السن ومهما يكن من مركزى حينئذ - ألا أناضل من أجل الخروج منه ، وأن أفضى ما تبقى من أيامى ، أعيش ليومى دون أن أشغل بالمستقبل . ولما حلت تلك الساعة ، نفذت هذا المشروع دون عناء ، وبالرغم من أن حظى اذ ذاك بدا وكأنما ينحو الى مزيد من الاستقرار ، الا اننى عدلت عنه ، لا بغير أسف فحسب بل وبسرور حق . وفيما أنا أحاول الفكاك من كل هذه المضلات ، ومن كل تلك الأمانى الكاذبة ، استسلمت كلية للاهمال ودعة الفكر التى كان لى بها ميل مستبد وانعطاف مقيم ، هجرت المجتمع بمباهجه ، وزهدت كل زينة ، فلم يعد لدى سيف ولا ساعة ، لا جوارب بيضاء ولا حلى ذهبية ولا زينة شعر، بل شعر مستعار بسيط جدا ، ورداء سميك من الصوف ، بل - وخبرا من هذا كله - نزعت من قلبي كل اشتهاه لجمع المال وكل مطمع فى كل ما تخليت عنه مما يجعل له قيمة ثم هجرت الوظيفة التى كنت أشغلها(١) اذ ذاك ، والتى لم أكن خليقا بها البتة وانصرفت الى نسخ الموسيقى نظير أجر للصفحة الواحدة وهو عمل كنت شديد الميل اليه دائما .

ولم أقصر اصلاح امرى على المظاهر الخارجية . ذلك لاننى شعرت بأن هذا الاصلاح نفسه كان يتطلب اصلاحا آخر فى الافكار أشد عسرا من غير شك ، وان كان أشد ضرورة ، وهو اصلاح الآراء ، ولما كنت قد عولت على ألا أقوم بعمل ذلك على دفعتين ، فقد بدأت باخضاع ذاتى الداخلية لفحص دقيق يستطيع أن ينظمها بقية أيام حياتى على الصورة التى كنت أريدها عليها عند موتى .

كان قد حدث انقلاب كبير فى ذاتى . كان يتكشف عالم معنوى آخر لناظرى ، فالاحكام الخرقاء التى كان يصدرها الناس ، بدأت أحس باستحالتها ، دون أن أتكهن بعد ٠٠ كم سأكون فريسة لها ؟ والحاجة المتزايدة الى متعة اخرى غير المجد الادبى الذى ما كاد يلفحنى بخاره حتى اشمأزت منه نفسى ، وأخيرا ٠٠ الرغبة فى أن أرسم للبقية من مطافى طريقا أقل قلقا من ذلك الذى قضيت فيه زهرة أيامى ... دفعنى بكل هذا الى هذه المراجعة الكبرى التى كنت أحس منذ امد طويل

(١) كان روسو اذ ذاك صرافا عند مسيو دوفرانكى M. de Francueil محصل

الحاجة إليها وهكذا شرعت فيها ، ولم أهمل شيئاً مما يتوقف على كي يتم تنفيذ ذلك المشروع على ما يرام .

اننى أستطيع أن أحدد تاريخ عزوفى التام عن المجتمع ابتداء من هذه الفترة ، وكذلك هذا المينل الشديد للوحدة . . اننى لازمنى منذ تلك الوقت ، ولم يكن من المستطاع أن ينفذ العمل الذى شرعت فيه الا فى عزلة مطلقة ، ذلك لانه كان يتطلب تأملات طويلة هادئة لا يسمح بها صخب المجتمع ، وقد اضطررت لهذا ، الى حين ، أن انهج طريقة أخرى فى الحياة أرتحت اليها فيما بعد ، حتى اننى ، وقد تابعتها منذ ذلك الحين ، ولم أنقطع الا مضطرا ولفترات قليلة ، عاودت انتهاجها من جديد بجماع قلبى واقتصرت عليها فى غير جهد بمجرد أن تستنى لى ذلك . ولما اضطررتى الناس فيما بعد الى أن احيا وحيدا وجدت أنهم باحتباسى مستهدفين شقوتى ، عملوا فى سبيل تحقيق سعادتى أكثر مما استطعت أنا أن أفعل لنفسى .

اتجهت الى العمل الذى كنت قد شرعت فيه بحمية تتفق وأهمية ما أنا بصدده والحاجة التى أحس بها نحوه . كنت أعيش اذ ذاك مع فلاسفة محدثين ليس بينهم وبين القدامى وجه شبه ، وبدلا من أن يزيلوا شكوكى ، ويوقفوا ترددى ، زعزعوا كل ثقة كنت أظننى عليها فى النواحي التى كان يهمنى ، أكثر ما يهمنى ، الامام بها ، ذلك لانهم كمبشرين متعنتين للالحاد ، وكمتعصبين معتدين بأنفسهم ، لن يستسيغوا بأية حال وبغير غضب أن يجرؤوا واحد على تفكير يفاير تفكيرهم مهما يكن وجه الخلاف .

وكثيرا ما كنت أدافع عن نفسى بشيء من الضعف كراهية للجدل وقلة دراية بمتابعته ، ولكننى لم أعتنق البتة مذهبهم الهدام . كما أن هذه المقاومة لقوم بلغوا هذا الحد من التعصب - ولهم قبل كل شيء وجهة نظرهم - لم تكن من الاسباب القليلة التى أثارت عداوتهم .

انهم لم يقنعونى ولكنهم أثاروا القلق فى نفسى ، ولقد زعزعتنى حججهم دون أن تقنعنى أبدا ، ذلك لاننى لم أجد فيها أى جواب شاف ، ولكننى أحسست ضرورة وجود ذلك الجواب ، وكنت أتهم نفسى بالقصور أكثر من اتهامى اياها بالخطأ ، وكان قلبى يتولى الرد عليهم خيرا مما يفعل عقلى . وقلت لنفسى أخيرا :

« أفاترك نفسى أبدا العوبة لسفسطة المتفهبين ممن لا أثق - حتى -

في أن الآراء التي يدعون إليها ويتحمسون لنشرها إلى هذا الحد حتى يعتنقها الآخرون هي آراؤهم؟ إن عواطفهم التي تسيطر على مذهبهم، واهتمامهم بأن يحملوا الناس على تصديق هذا الأمر أو ذاك... تجعل من المستحيل النفاذ إلى ما يعتقدون هم أنفسهم. يمكن افتراض حسن النية لدى رؤساء الشيع؟ إن فلسفتهم... للآخرين، وكان لابد لي من فلسفة خاصة بي. فلأبحث عنها بكل قواي ما دام هناك متسع من الوقت لذلك، حتى أستطيع وضع قاعدة ثابتة للسلوك فيما بقي لي من أيام حياتي. هأنذا في نضج العمر، في عنفوان الوعي، وقد شارفت على الإفول، ولئن انتظرت أكثر من ذلك فلن أستطيع استخدام جميع قواي عند مراجعة نفسي مراجعة تجيء متأخرة، وستكون ملكاتي العقلية قد فقدت بعض نشاطها، وسيكون أدائي لما أستطيع اليوم القيام به على خير وجه أقل اتقاناً. فلأغنم تلك اللحظة المواتية، فهج أوان إصلاحى الخارجى والمادى، إلا فلتكن كذلك أوان إصلاحى الفكرى والخلقى، ولأحد مرة واحدة آرائى ومبادئى، ولأئن فيما تبقى من أيام حياتى ما كنت أرى أنه يجب أن أكونه بعد أعمال الفكر فيه. ولقد نفذت ذلك المشروع فى ببطء وعلى فترات متفاوتة وإن كان ذلك بكل ما كان يسعنى من جهد وعناية. وكنت أحس احساساً قوياً أن ما سوف أنعم به من راحة بقية أيامى وكل ما قدر لى يتوقفان على ذلك. ولقد وجدت نفسى فى البداية فى متاهة من الحيرة، والصعاب، والاعتراضات، والالتواءات، والظلميات، حتى راودتنى نفسى عشرين مرة أن أتخلى عن كل شئ، وكدت أتمسك - متخلياً عن بحوث لا طائل وراءها - بأصول الحيلة المعتادة فى مداولاتى مع نفسى، وذلك دون معاودة البحث وراء المبادئ التى طالما جهدت فى توضيحها. ولكن هذا الحرص نفسه كان شديد الغرابة. لقد كنت أحس اننى أقل من أن أكون أهلاً للوصول إليه، حتى إن اتخاذه هادياً لى لم يكن إلا كرهبة فى البحث فى وسط البحار والعواصف بغير دفة وبغير «بوصلة» عن منارة لا يكاد يستطيع الوصول إليها ولا تهدينى إلى أى ميناء.

ولكننى صمدت... ولأول مرة فى حياتى تملكتنى الشجاعة، وانى لأدين لانتصارها بمقدرتى على تحمل القدر المخيف الذى أخذ يحتوينى منذ ذلك الوقت دون أن يساورنى من ذلك أدنى شك. وبعد جهود بالغة العنف، والصدق، ربما لم يقم بمثلها على الإطلاق أى كاتب، حددت موقفى للمقبل من سنى حياتى بالنسبة لمختلف الاحاسيس التى كان يهمنى أن تنطبع فى ذاتى. ولئن كنت عرضة للخطأ فيما

انتهيت إليه ، فأننى على ثقة تامة على الاقل بأن خطئى لم يكن يعد من قبيل الجرم من ناحيتى ، ذلك لاننى بذلت كل جهودى لتوقيه . والحق اننى لست أشك مطلقا فى أن معتقدات الطفولة ورغبات صدرى المكنونه لم ترجح كفة الميزان الاكثر عزاء لنفسى . ان الانسان ليجهد فى مشقة فى ذود نفسه عن الايمان بما يتوق لتحقيقه فى كثير من الحماس ، والا فمن ذا الذى يقوى على الشك فى أن الفائدة التى تعود من وراء القبول أو الرفض لاحكام الحياة الآخرة لا تحدد عقيدة معظم الناس فيما يأملون أو يخشون ؟ كان هذا كله كفيلا بأن يتسلط على أحكامى - وهذا ما أسلم به . ولكن لا يقوى على أن يغير من حسن نيتى . . اذ أننى كنت أخشى الوقوع فى الخطأ فى كل شيء ولئن كان الهدف هو الافادة من هذه الحياة فحسب فقد كان يهمنى معرفة ذلك لكى أستخلص لنفسى منها على الاقل خير نصيب ، ما دامت هناك بعد ، فسحة من الوقت فلا أغدو غرا تماما ولكن كأن أخوف ما أخافه فى هذا العالم - وأنا أمر بحالتى تلك - هو أن أخطر بصير نفسى الابدى نظير تذوق متاع هذا العالم الذى لم يبد لي قط ذا قيمة كبيرة .

وانى لاعترف كذلك أننى لم أقض دائما - كما أحب - على كل تلك الضعاب ، التى حيرتنى والتى كثيرا ما آذى فلاسفتنا بها سمعى . ولكن ما ان قر رأيى اخيرا على أن أبت فى أمور يقل استيعاب الفهم الانسانى لها - بعد أن وجدت فى كل النواحي أسراراً منيعة واعتراضات يستعصى حلها - التزمت فى كل أمر الشعور الذى بدا لى مباشرة أو طد أساسا ، والاكثر قابلية للتصديق بذاته ، دون أن أتوقف عند الاعتراضات التى لم اكن أستطيع حلها ، ولكن كانت تدحضها اعتراضات لا تقل عنها قوة ، من المذهب المضاد . ولم تكن اللهجة اليقينية فى هذه الامور تناسب غير الدجالين وان يكن من الضروري أن يكون للمرء احساسه الخاص به وأن ينتقيه بكل ما أوتى من نضج عقلى ، فلئن وقعنا برغم ذلك فى الخطأ فان العدالة الحقة لا توجب علينا العقوبة ما دمنا لم نقترف اثما . ان ذلك هو المبدأ الراسخ الذى اتخذته أساساً لسلامتى .

وقد كان من نتيجة أبحاثى المضنية التى ضمنتها بعد ذلك كتابى « اشهار عقيدة كاهن من سفوا » (1) .

#### Profession de foi du vicaire Savoyard

(1) كتاب اشهار عقيدة كاهن من سفوا

#### Profession de foi du vicaire Savoyard

هو الذى الحقه روسو بكتابه «اميل» وضمنه أسس عقيدته مما كان سببا في مصادرة الكتاب كله واعتباره خارجا على الديانة المسيحية الحقة .

وهو كتاب انتهك حرمة ودينه ظلما أبناء الجيل الحاضر ولكنه قد يحدث في يوم من الايام ثورة بين الناس لو بعث فيهم الادراك السليم وحسن النية .

منذ ذلك الحين - وقد ركنت الى المبادئ التي كنت قد اعتنقتها بعد طول تأمل وروية - اتخذت منها قاعدة راسخة لسلوكي وايماني دون أن آبه بعد ٠٠ لا بالاعترافات التي لم أقو على التغلب عليها ، ولا بتلك التي لم أستطع التكهن بها والتي كانت جميعا تنتاب ذهني من وقت لآخر ، ولقد سببت لي في بعض الاحيين قلقا ، ولكنها لم تزعزعني بتاتا ، ودأما ما حدثت نفسي قائلا : « ليست هذه جميعا سوى مجادلات وتخريجات ميتافيزيقية لا وزن لها الى جانب المبادئ الاساسية التي يعتنقها عقلي ويؤكدها قلبي والتي يطبعها جميعا رضا النفس حين تسكن الاهواء . أفيجوز في أمور تتسامى فوق مستوى فهم البشر أن يقلب اعتراض لا أستطيع التغلب عليه مذهبا على هذا الرسوخ وبهذا الاحكام يكون بعد طول تأمل وعناية متجاوبا مع أحكام عقلي وقلبي وكياني كله ومعززا برضا نفسي الذي أحس انني أفتقده في جميع المذاهب الاخرى ؟ ٠٠٠ لا . . لن تقضى أبدا أية مغالطات على التوافق الذي الحظه فيما بين طبيعتي الخالدة و دستور هذا العالم من جهة ٠٠ والنظام المادى الذي أراه يسوده من جهة أخرى . اننى أجد فى النظام المعنوى المقابل - وهو النظام الذى كان نهجه ثمرة أبحاثي - ما أنا فى حاجة الى الاعتماد عليه لتحمل ما أقاسيه من شقاء فى الحياة . وأما فى أى نظام آخر فقد أعيش بغير موارد ، وقد أموت بغير أمل ، وقد أكون أتعس المخلوقات طرا ، فلأستمسك اذن بالنظام الذى يكفل اسعادي وحده برغم القدر وبرغم البشر .

ألا يبدو ذلك التفكير ، والنتيجة التى استخلصتها منه ، كما لو أن السماء نفسها كانت أملت هما على لتعدنى للقدر الذى كان ينتظرني ولتجعلني فى حالة تمكني من احتمالاه ؟ ماذا كان يمكن أن يكون أمرى ، بل كيف كان يصبح حالى بين تلك المخاوف المروعة التى كانت تترىص بى ، وفى ذلك الموقف الذى لايمكن تصوره والذى زج بى فيه بقية حياتي ، لو اننى بقيت بغير مأوى حيث يمكننى أن أفلت من مضطهدى العتاة ، وبغير تعويض عما يكبدوننى من عار فى هذا العالم وبغير أمل فى الوصول الى ما استحق من عدالة ، ووجدتني منساقا بجمع نفسي لأقسى مصير يمكن أن يعانیه مخلوق على ظهر البسيطة ؟

وفيماء أنا مستغرق في سداجتى ، لم أكن اتصور الا ان الناس

يحملون لى الاحترام والرعاية ، وفيما كان قلبي مفتوحا مليشا بالثقة يفضى بسريرته للاصدقاء والاخوان ، كان الحونة يقيدوننى - فى صمت - بأحبابيل صيغت فى أعماق الجحيم ، وبعد أن فوجئت بأخر ما تتوقعه نفس ذات كبرياء من أفسى الرزايا وأسخفها وجزرت فى الحما دون أن أعرف مطلقا شخصية من يفعل بى ذلك ، ولم يفعله إلا مغرقا فى هاوية من العار ، مخوطا بظلمات مروعة لا أتبين خلالها سوى النحس من الامور أصابنى الانهيار من المفاجأة الاولى وكان من الجائز الا أفيق من اليأس الذى ألقى بى فيه ذلك اللون غير المتوقع من الكوارث لو لم أكن مزودا من قبل بقوى تقيلنى من عثرتى .

ولم أحس بقيمة الموارد التى زودت بها نفسى لوقت الشدة الا بعد سنوات من الاضطراب حين ثبت الى نفسى أخيرا وبدأت أسترجع صوابى . وبعد أن انتهيت الى رأى فيما كان يعينى الحكم عليه وجدت - وأنا اكارن مبادئى بموقفى الذى كنت فيه - أننى كنت أعير الاحكام المختلفة التى كان يصدرها الناس والاحداث التافهة لهذه الحياة القصيرة أكثر بكثير مما لها من أهمية ، كما وجدت أن هذه الحياة مادامت ليست سوى سلسلة من المحن ، فليس يهم كثيرا أن تبدو هذه المحن على هذه الصورة أو تلك مادام ينجم عنها الاثر الذى قدرت من أجله ، وانه تبعاً لذلك كلما عظمت المحن وقويت وتعذدت ، فمن المفيد أن يتعلم الانسان كيف يحتملها . ان أبلغ الآلام عنفا تفقد حدتها لدى من يرى أن تعويضه عنها سيكون سخيا ومضمونا . كان ضمان هذا الجزاء .. الثمرة الرئيسية التى اقتطفتها من وراء تأملاتى السابقة .

والواقع انه مرت بى فى ثنايا الإهانات التى لا حصر لها ، وألوان الذل التى لا حد لها ، والتى شعرت بها تثقل على من كل جانب ، فترات من القلق ومن الشك كانت تراودنى من وقت لآخر فتزعزع أمانى وتزعج هدوئى . كانت الاعتراضات القوية التى لم أستطع حلها ، تبدو لعقلى اذ ذاك أشد قوة كى تقضى على تماما فى اللحظات نفسها التى يرهقنى فيها ثقل ما قدر لى حتى كاد يحل بى القنوط . وكثيرا ما كانت تراود فكري حجج جديدة - كنت أنتوى الاخذ بها - تساند تلك التى كانت قد عذبتنى وكنت أقول لنفسى حينئذ وصدري يضيق حتى لتكاد روحى تزهب : أواه ! من ذا يؤمننى من اليأس اذا كنت لا أرى - وسط ما يحيق بحظى فى الحياة من أهوال - سوى أوهام فيما يقدمه لى عقلى من عزاء ، انه بتقويضه على هذا النحو - ما قدم من صنيع - قلب رأسا على عقب .. كل

دعامة أمل وثقة أمدنى بها فى شدتى ؟ يا لها من دعامة ليست سوى أوهام لا يتعلل بها سوى فى هذا العالم ! ان الجيل الحاضر بأجمعه لا يرى فى المشاعر التى أعيش عليها وحدى سوى أخطاء وظنون ، وهو يعتقد أن الحق والبدية تتضمنهما الطريقة المضادة لطريقتى ، بل انه يبدو - وكأنما لا يستطيع أن يصدق - اننى أنتهجهما عن ايمان حق ، وأنا نفسى بتسليمى بها عن طواعية مطلقه أقابل فيها صعبا يتعذر التغلب عليها بل يستحيل على حلها وان لم تمنعنى من المثابرة عليها . أفأنا اذن العاقل الوحيد والمستنير الوحيد بين البشر ؟ أفيكفى كى أعتقد أن الامور تجرى على صورة ما أن تتفق وهوأى ؟ وهل أستطيع أن تكون لى ثقة واعية فى مظاهر ليس لها من أساس ثابت فى عيون الآخرين . . . وكان من الممكن أن تكون مضللة بالنسبة لى كذلك ، لو أن قلبى لم يساند عقلى ؟ أو لم يكن خيرا لى أن أصطرح مع مضطهدى . . . بأسلحة متكافئة عن طريق اعتناق مبادئهم من أن أظل على أوهام مبادئى . . . فريسة لهجماتهم دون أن أعمل على دفعها ؟ اننى أومن بحكمتى وما أنا سوى غر ، ضحية خطأ عقيم وشهيد له .

كم من مرة كدت أستسلم الى اليأس فى تلك الفترات من الشك والحيرة ! ولو أننى قضيت شهرا كاملا على تلك الحال لا نقضى أمر حياتى وأمرى ، ولكن تلك الازمات على تكرار حدوثها فى الماضى كانت دائما قصيرة المدى . واما الآن ، ولو أننى لم أتخلص منها بعد تماما ، الا انها بلغت من الندرة والسرعة بحيث لم تعد لها القدرة على إقلاق راحتى . انها هموم طفيفة لا تستطيع أن تؤثر فى نفسى أكثر مما تستطيع ريشة تقع فى النهر أن تغير من اتجاه مجرى الماء فيه . وقد أدركت ان العودة الى تدبر النقاط نفسها التى استقر عندها رأىى من قبل ، كانت لى بمثابة افتراض معلومات جديدة أو حكم أحسن تكويننا أو تحمس للحقيقة أشد . . . لم يكن لدى حين كنت أبحث عنها . ومادامت واحدة من هذه الحالات لم تكن - وليس من المستطاع أن تكون - حالتى ، فاننى لم أقو على أن أفضل - مستندا الى أى سبب قوى - آراء لم تكن - وأنا رازح تحت أعباء اليأس - تراودنى . . . الا لتزيد من شقائى عن مشاعر اتخذتها فى عنقوان العمر ، والذهن فى تمام تضججه . وبعد دراسة على أكبر قدر من الروية وفى أوقات لم يكن هدوء حياتى ليترك لى من شاغل مقيم سوى التعرف على الحقيقة . واليوم . . . وقلبى يعترضه الضيق ، ونفسى يبهبها السأم ، وخيالى مستوحش ورأسى تضنيتها تلك الاحاجج الشنعاء التى

تحيط بي . اليوم . . وقد فقدت ملكاتي جميعا كل ما يحفظها على العمل بعد ان انهكتها الشيخوخة والفرع ، افسلب نفسي من غير داع كل الموارد التي هيأتها لذاتي ؟ واكون اكثر اطمئنانا الى عقلى المشرف على الافول ليجعلنى تعسا بغير وجه حق منى . . الى عقلى الكامل القوى ليعوضنى عن الآلام التي أتحملها دون أن أستحقها ؟ لا . . اننى لم أكن أكثر حكمة ولا أغزر علما ولا أفضل ايمانا الا عندما قطعت برأى فى هذه الامور الكبرى . . اننى لم أكن أجهل اذ ذاك الصعاب التي أدعها اليوم تثير ضيقى . انها لم تستوقفنى ولئن عرض منها جديد لم يكن قد استرعى انتباه أحد من قبل . . فما ذلك الا السفسطة ذات التخريجات الميتافيزيقية التي لا يمكنها أن تززع الحقائق الخالدة المتفق عليها فى كل العصور ومن كل الحكماء ، والمعترف بها بين جميع الشعوب والمنقوشة فى كل قلوب البشر بحروف لا يمكن أن تمحي . . وكنت أعلم - وأنا أتدبر تلك الامور - أن الفهم الانسانى الذى تحدده الجواس لم يكن ليستطيع الاحاطة بها من جميع نواحيها . . واذن فقد استمسكت بما وسعت طاقتى دون أن ارتبط بما وراءها ، وكان هذا المسلك معقولا فلزمته فيما مضى وتمسكت به وقد ارتضاه عقلى وقلبى معا . . فعلى أى أساس أتخلى عنه اليوم بعد ان أصبحت توجب على الارتباط به دوافع قوية ؟ ترى أى خطر أراه فى اتباعه ؟ وأية مزية تعود على من وراء التخلي عنه ؟ اذا ما اعتنقت مذهب مضطهدى ، أفكنت كذلك أعتنق مبدأهم الخلقى ؟ ان هذا المبدأ - ولا أصل له ولا نتيجة - الذى يعرضونه مطمئنين به فى كتب أو مواقف مسرحية دون أن ينفذ شيء منه البتة الى القلب أو الى العقل . . اوبالأحرى هذا المبدأ الآخر الخفى المتعنت . . أعنى التعاليم السرية لجميع الاتباع التي ليست الأخرى سوى قناع لها ، والتي هى رائدهم فيما يسلكون وفيما مارسوه معى بكل ذلك الدهاء . . ان هذا المبدأ الخلقى - وهو مبدأ هجومى بحت - لا يجدى مطلقا فى حالة الدفاع ولا يمكن أن يفيد الا فى العدوان . . فقيم اذن كان يعود على بالنفع فى الحالة التي انتهوا بي اليها ؟ ان براءتى وحدها هى التي تساندى فى المصائب ، وكيم كنت أزيد من شقائى كذلك لو اننى استبدلتها بنزعة شر وأنا أحرم نفسى من هذا المورد الوحيد . . القوى مع ذلك . . أفكنت أصل الى مرتبتهم فى فن الاساءة ؟ واذا ما توصات الى ذلك فمن أى ألم قد يريحنى ما أستطيع أن أوجهه اليهم ؟ اننى بهذا قد أفقد احترامى لنفسى ولن أكسب شيئا بدلا منه .

وهكذا بمناقشة الامر مع نفسى عولت على ألا أدعنى أتأرجح فى



مبادئ تقود إليها حجج مضللة ، واعتراضات غير قابلة للحل ، وصعوبات تفوق طاقتي وربما طاقة العقل البشرى . أما عقلي وقد استقر عند أوطد أساس استطعت أن أهينه له ، فقد اعتاد تماما على أن يستكين لها في حمى ضميري ، حتى أنه لم يعد في استطاعة أى مذهب غريب قديم أو مستحدث أن يستثيره ، أو يعكر من صفوى لحظة واحدة . وحين حل بى الفتور وركود الذهن ، نسيت حتى الحجج التى كنت أقيم عليها أسس عقيدتى ومبادئى ، ولكننى لن أنسى أبدا النتائج التى استخلصتها منها برضا ضميرى وعقلى وسأتمسك بها منذ الآن . فليتقدم كل الفلاسفة ليقارعوها ، وسيضيع عليهم وقتهم وجهدهم . اننى متمسك فيما بقى من حياتى فى كل الامور بما اتخذته من رأى عندما كنت فى حالة تمكنى من حسن الاختيار .

وبعد أن سكنت الى هذه التدابير وجدت فيها - ونفسى راضية - الأمل والعزاء اللذين أحتاج لهما فى موقفى هذا . وليس من الممكن الا تلقى بى أحيانا فى غمار اليأس عزلة مطلقة متواصلة كثيبة فى ذاتها، وضغن بين من جميع أبناء الجيل الحاضر مشوب على الدوام ، ومهانات يهيلونها على باستمرار . ولم يزل أملى المزعزع وشكوكى المثبطة تعاودنى من وقت لآخر لتزعج نفسى وتملاها شجنا . أما وقد عجزت عن ممارسة التفكير اللازم لاطمئن نفسى بنفسى ، بما أحس به ، من حاجتى الى تذكر قراراتى القديمة : ذلك لان العناية والحرص وخلوص القلب ، تلك التى آليت على نفسى التزامها عند اتخاذ هذه القرارات ، تعاودنى ذكرها وترد الى كل ثقتى ، وهكذا أمتنع عن تقبل أية آراء جديدة ، وكأنما هى أخطاء مشنومة ليس لها سوى المظهر الخادع وكأنما ليس من شأنها الا افلاق راحتى .

وهكذا وقد احتبست داخل حيز ضيق من معلوماتى القديمة لم يعد لدى كما كان الامر مع « سولون » فرصة القدرة على التعلم كل يوم ، والعمر يتقدم بى ، بل يجب على أن أجنب نفسى الغرور الخطر الذى يدفعنى الى الرغبة فى معرفة ما أنا منذ اليوم عاجز عن الإلمام به تماما . ولكن اذا ما بقيت أمامى بعض مفانم من معلومات نافعة أمل فى الحصول عليها ، فان على بعند ذلك أن أسعى وراء شئ له أهمية ، وذلك من ناحية الفضائل الضرورية لحالتى . وعندئذ يكون قد حل الوقت المناسب لتزويد روحى وتزيينها بمفهم تستطيع أن تحمله معها عند تحررها من هذا الجسد الذى يقشها ويعميها .

وبرؤيتها للحقيقة سافرة ستدرك مدى تفاهة جميع المعلومات التي يزعمونها الى هذا الحد علمأؤنا المزيّفون .. ستنوح روي على تلك اللحظات التي ضيعتها في هذه الحياة رغبة في كسبها ولكن الصبر والوداعة والاستسلام والاستقامة والعدالة المطلقة كل أولئك ألوان من الثراء يحملها الانسان معه تستطيع أن تزيد من ثرائه باستمرار دون أن يخشى أن يفقدھا قيمتها .. حتى الموت نفسه • اننى أكرس البقية الباقية من شيخوختى لهذه الدراسة الوحيدة النافعة وكم أكون سعيدا لو أننى تعلمت ، بما أحرزت من تفوق على نفسى ، كيف أخرج من الحياة .. لا خيرا مما دخلتها .. فان هذا ليس ممكنا .. ولكن أكثر فضيلة •

## الرحلة الرابعة

من بين الكتب القليلة التي لا زال أقرؤها أحيانا كتاب «بلوتارك» (١) الذى يجذبني اليه ويستحوذ على أكثر من غيره . لقد كان أول ما طالعت فى طفولتى (٢) ، وسيكون آخرها فى شيخوختى . فهو تقريبا المؤلف الوحيد الذى لم أقرأ له مرة واحدة الا وجنيت من ذلك فائدة ما . ولقد كنت أول أمس أطالع فى مؤلفاته الاخلاقية رسالة عن «كيف يفيد الانسان من أعدائه ؟ » Comment on pourra tirer utilité de ses ennemis ? وفى اليوم نفسه حين كنت أقوم بترتيب بعض الكراسات التى بعث بها الى المؤلفون ، وقعت عيني على احدى يوميات الراهب « R. (٣) » التى فى عنوانها هذه الكلمات « الى من يكرس حياته للحقيقة » (٤) .  
Vitam vero impendenti, R.

ولما كنت بالغ اليقظة ازاء مداورات هؤلاء السادة بحيث أدعها هذه المرة دون أن أرد عليها بمثلها ، فقد أدركت أنه اعتقد تحت هذا الستار من الادب انه يستطيع ايلامى بالتجنى على الحقيقة ولكن على أى أساس كان ذلك ؟ ولم هذا التهكم ؟ وأى موضوع كنت أستطيع أن

(١) بلوتارك Plutarque مؤرخ اغريقى قديم كتب كتابا عن « حياة مشاهير الرجال » وكان له اثره على تفكير روسو طيلة حياته .

(٢) كتب روسو خطبا الى مالزرب Malesherbes بتاريخ ١٢ من يناير ١٧٦٢ فيه « وقع بلوتارك تحت يدى وانا فى السادسة من عمري وحفظته من ظهر قلب وانا فى الثامنة » .

(٣) هو الاب روزيه l'Abbé Rozier طبقا لما ورد فى مخطوط نيوشاتل وإن ورد الاسم فى طبعة Bibliothèque indépendante d'Édition ( عام ١٩٠٥ ص ١١٤ ) تحت اسم رويو Royou وفى الخطاب رقم ٨ من روسو الى لانوزيت La tourette هو الراهب الذى خرج روسو معه فى رحلات استعشاب عام ١٧٨٨ وللراهب مؤلف هو : Voyage à l'île des Peupliers

(٤) Vitam vero impendenti أى « الذى يكرس نفسه للحقيقة » - وهو الشعار الذى اتخذه روسو ورد أيضا فى حاشية خطابات من ( الجبل )  
Lettres de la Montagne

أضمنه إياه ؟ ورغبة منى في تحقيق الفائدة من دروس « بلوتارك » فقد اعترفت أن أكرس جولة الفد لأقوم باختبار نفسى من ناحية الكذب ، وانتهيت في ذلك الى تأكيد الرأى المسلم به من قبل وهو « اعرف نفسك بنفسك » شعاعاً معبد « دلف » لم يكن مبدأ من الميسور اتباعه على نحو ما كنت أعتقد في « اعترافاتي » .

وفى اليوم التالى عندما هممت بالسير لتنفيذ هذا القرار ، كانت أول فكرة راودتنى حين بدأت أجمع شتات نفسى ، فكرة الأكذوبة الشنعاء التى ارتكبتها فى مستهل شباطى (١) ، وعكرت ذكراها صفوى طوال حياتى ، ولا تزال حتى فى شيخوختى تدفع بالحزن الى قلبى على ما به من احزان سببتها له عوامل أخرى . ان تلك الاكذوبة ، التى كانت فى حد ذاتها جرماً كبيراً لا بد وأنها كانت أفظع جرم أيضاً بما ترتب عليها من آثار جهلتها دائماً ولو أن الندم صورها لى أشد ما يمكن أن تكون قسوة . ومع ذلك ، فلو لم أدخل فى الاعتبار سوى الحالة التى كنت عليها حين ارتكبتها ، فان تلك الاكذوبة لم تكن سوى نتيجة خذى شائن ، وأبعد ما تكون عن قصد الاساءة الى من كانت ضحية لها ، ويمكننى ان اوسم امام وجه الله أنه فى اللحظة نفسها التى كان ينتزعها هذا الخذى الذى لا يقهر ، وددت لو بذلت كل دمي راضياً لأحول أثرها الى وحدى ، ان هذا لون من ألوان الهذيان لا أستطيع أن أفسره الا بقولى - كما أظننى أحسه - انه فى تلك اللحظة قهرت طبيعتى الخجول كل أمانى قلبى . ان ذكرى تلك الفعلة التعسة ، والندم الذى لا يخبو أواره الذى حلقته لى ، بثت فى نفسى من ناحية الكذب نفورا كان حرياً أن يجنب قلبى هذه الرذيلة بقية حياتى . وعندما اتخذت شعارى ، كنت أحس بأننى مهياً لان أستحقه ولم يكن لى شك فى أننى لست جديراً به حين بدأت أختبر نفسى فى جدية أكثر على ضوء مقالة الراهب « ر . . . »

وعندئذ دهشت جداً - وأنا أفحص نفسى فى عناية متزايدة - لكثرة ما اخترعت مما كنت أذكر اننى قلت على أنه الصدق ، فى الوقت نفسه الذى كنت - وانا مزهو فى قرارة نفسى بحبى للحقيقة - أضحى فى سبيلها بسلامتى ، ومصالحى ، وبشخصى ، بعدم تحيز لا أعرف له ضريباً بين البشر . وكان أشد ما أثار الدهشة فى نفسى ، هو اننى عند تذكركى لتلك

---

(١) المقصود هنا حادثة سرقة شريط ترك روسو الاتهام فيها ينصب على الخادمة ماريون Marlon ، وجاء فى « الاعترافات » فى الكتاب الثانى أن روسو كان قد سرق شريطاً « بلون الورد والفضة » ، أما ماريون التى ألقى عليها التهمة فهى طباحة لدى مدام دو فرسليس Mme de Vercellis

الأمور المختلفة ، لم أكن أحس أزاءها أى ندم حقيقى . . وأنا من ليس فى قلبه مكان للتردد فى الاشتمزاز من الزيف . أنا من قد يخوض ألوان التعذيب لو أن تجنبها ما كان يستدعى الكذب . . أى تناقض عجيب ذلك الذى كان يدفعنى الى الكذب مختاراً ودون موجب وبلا فائدة تجنى؟ وأى تعارض غير معقول ذلك الذى يجعلنى لأحس مع ذلك بأدنى أسف . . أنا من لم يكف الندم على الكذوبة واحدة عن إيلامه طيلة خمسين عاماً ؟

اننى لم أكن أبداً عنيدا ازاء أخطائى ، وكان لى فى الوازع الخلقى خير رائد . وقد احتفظ ضميرى بنقاؤه الاول ، وحتى لو ان التغيير تناوله ادعانا منه لمصالحى فكيف يتأتى له وهو محتفظ باستقامته فى الظروف التى يستطيع الانسان - وقد قهرته عواطفه - أن يعتذر على الاقل بضعفه ؟ كيف يتأتى له أن يفقد هذه الاستقامة فى ما لا اهمية له من الأمور فحسب حيث لا يكون للرديلة مبرر مطلقاً ؟ لقد وجدت أنه على حل تلك المسألة تتوقف سلامة الحكم الذى كان على أن أطبقه هنا على شخصى . وهماهى ذى الوسيلة التى مكنتنى من تفسيرها لنفسى بعد أن درست تلك المسألة دراسة وافية

أذكر أننى قرأت فى كتاب للفلسفة أن الكذب هو اخفاء حقيقة يجب اظهارها . ويترتب تماماً على هذا التعريف أن السكوت عن قول الحق الذى لا يكون المرء مضطراً للجهر به لا يعد كذباً ، ولكن من لا يقنع فى مثل تلك الحالة بسكوته عن قول الحقيقة فيذكر ما يخالفها ، أكون عندئذ كاذباً أم غير كاذب ؟ انه - طبقاً للتعريف - لا يمكن أن يقال انه كاذب ، ذلك لانه اذا أعطى عملة زائفة لشخص هو ليس مدينا له بشئ فانه يخدع ذلك الشخص - مافى ذلك من شك - ولكنه لا يسرقه . ويعرض هنا سؤالان كلاهما بالغ الأهمية يستدعيان البحث . أما السؤال الاول فهو : متى وكيف يجب قول الحقيقة للآخرين مادام ليس من الواجب قولها دائماً ؟ وأما السؤال الثانى فهو ما اذا كانت هناك حالات يمكن أن يخدع المرء فيها غيره بحسن نية .

ان هذا السؤال الثانى أمر قطع فيه - وأنا أعلم ذلك تماماً - نفياً فى الكتب حيث لا يكلف أشد مبادئ الاخلاق تزمناً المؤلف شيئاً ، وإيجاباً فى المجتمع ، حيث لاتعدو مبادئ الاخلاق التى تنادى بها الكتب أن تكون ثرثرة تستحيل ممارستها . فلأدع اذن جهات الاختصاص هذه فى تضاربها ولابحث لنفسى عن حل لهذه الاستئلة عن طريق مبادئ الشخصية .

ان الحقيقة العامة المجردة هي أعلى ما يملكه المرء . فبدونها يغدو أعشى ،  
انها العين المبصرة للعقل ، عن طريقها يتعلم المرء السلوك ، ويصبح  
ما يجب أن يكونه ، ويعمل ما يجب عليه عمله ، وكيف يصل الى هدفه  
الحقيقي . اما الحقيقة الخاصة والفردية فليست خيرا دائما ، فقد تكون في  
بعض الاحيان شرا ، وهي في أغاب الأمر شيء لا هو خير ولا هو شر .  
أن الامور التي تهم المرء معرفتها ، والتي تكون الدراية بها ضرورية لاسعاده،  
قد لا تكون كثيرة العدد ، ولكن مهما يكن من أمر عددها فانها تعتبر ملكه  
الخاص ، له الحق في المطالبة به حينما يجده ، ولا يمكن لأحد أن يهضمه  
هذا الحق دون أن يرتكب أحسن أنواع السرقات ، اذانها - أى تلك الامور -  
من تلك الملكيات التي يشترك فيها الجميع والتي لا يحرم شيوعها البتة  
واهبها هذا الحق .

أما بالنسبة للحقائق التي ليست لها منفعة من أى نوع ، لا علما  
ولا عملا ، فكيف يمكن أن تعد ملكا واجبا مادامت ليست لها حتى صفة  
الملك ؟ ومادامت الملكية لا تقوم الا على أساس المنفعة ، فحيث تنعدم المنفعة  
لا يمكن أن تكون هناك ملكية .

ان المرء يستطيع ان يطالب بقطعة أرض ولو كانت مجذبة لانه يمكنه  
على الاقل أن يقيم عليها ، ولكن أن تكون واقعة ما ، عقيمة ليست ذات بال  
من كافة الاعتبارات وليس لها من أثر على أى انسان ، أن تكون صحيحة  
أو زائفة فان هذا لا يهم كائنا من كان . وليس هناك في مجال المعنويات  
شيء غير ذى منفعة ويستوى في ذلك مجال الماديات ، اذ لا يمكن أن يعد  
حقا واجبا مالا ترجى فائدة من ورائه ، ولكي يصبح الشيء واجبا . . يجب  
أن يكون - أو أنه يمكن أن يكون - نافعا . وهكذا تكون الحقيقة الواجبة هي  
تلك التي تفيد العدالة ، وانه لتدئيس - لسمى الحقيقة المقدس - أن نطلقه  
على العقيم من الامور التي لا يهم الجميع وجودها ، كما أن معرفتها غير مجدية  
في أية ناحية . والحقيقة ان تجردت من أية فائدة ، ولو كانت ممكنة  
لا يجوز أن تكون اذن شيئا واجبا ، وبالتالي لا يكون من يسكت عنها او  
يموهها كاذبا البتة .

ولكن وهناك من الحقائق ما هي عقيمة تماما بحيث تكون عديمة النفع  
في أى شيء ومن جميع الوجوه ؟ ان هذه مسألة أخرى تستحق المناقشة،  
وسأعود اليها فورا . أما الآن فلننتقل الى السؤال الثاني .

إن عدم ذكرها - مع أنه حق - والجهر بالكذب أمران مختلفان جد  
الاختلاف ، ولكن يجوز أن ينجم عنهما مع ذلك الأثر نفسه، ذلك لأن هذه

النتيجة هي بالتأكيد النتيجة نفسها كلما كان هذا الاثر معدوما . وحيثما لا يهيم قول الحقيقة فان قول الخطأ الذي يقابله لا يكون مهما كذلك ، ومن ثم فانه في مثل تلك الحالة لا يعد من يخدع الناس بقول ما يناقض الحقيقة أشد ظلما من ذلك الذي يخدعهم وهو لا يجهر بها لانه في حالة الحقائق غير المجدية لا يكون الخطأ أسوأ من الجهل . وانني لو اعتقدت أن لون الرمال في قاع البحر أبيض أو أحمر ، فان ذلك لا يهمني أكثر مما يهمني الجهل بلونها بالفعل . وكيف يتأتى للمرء أن يكون ظالما وهو لا يؤذى أحدا ، ما دام الظلم لا يكون الا بالاساءة للآخرين ؟ ولكن هذه الاسئلة ، وقد قطعت فيها بهذا الايجاز ، لا تستطيع أن تزودني كذلك بما يضمن لي تطبيقها من الناحية العلمية دون أن يسبقها ايضاح كثير ضروري حتى يكون التطبيق سليما في جميع الحالات التي قد تعرض، ذلك لانه اذا ماكان الالتزام بقول الحقيقة لايقوم الا على أساس النفع المرجو من ورائها ، فكيف لي أن أنصب من نفسي حكما على هذا النفع ؟ ان مايجنيه المرء من مزية يكون ضارا في أغلب الامر بغيره ، فالمصلحة الخاصة غالبا ما تتعارض مع المصلحة العامة ، فكيف يسلك الانسان في هذه الحالة ؟ ايجب أن يضحي بالنفع الذي يعود على القائب في سبيل نفع يعود على المخاطب ؟ ايجب السكوت أم الجهر بالنسبة للحقيقة التي اذ تفيذ امرا تؤذى آخر ؟ ايجب أن نزن كل مايجب قوله بميزان الصالح العام فحسب أم بميزان العدالة الفردية ؟ وهل أنا مطمئن الى أنني أعرف جيدا كل ما له صلة بهذا الامر حتى لا أتصرف فيما لدى من معلومات الا على أساس قواعد العدالة ؟ بل أكثر من ذلك : هل قمت بفحص كاف لما يجب على الانسان نحو نفسه ، وما يجب عليه ازاء الحقيقة المجردة لذاتها ، وأنا أتحرى مايجب عليه نحو الآخرين ؟ لئن لم أسبب لانسان آخر أى ضرر عن طريق الخديعة ، أفيتبع ذلك ألا يضيبني ضميرطلقا من وراء ذلك ؟ وهل يكفى ألا أكون ظالما أبدا لأكون بريئا دائما؟

كم من مناقشات محيرة يكون من الميسور التخلص منها بقولنا لأنفسنا : « فلنلزم دائما جانب الحق ، معرضين أنفسنا لكل ما قد يحدث من جراء ذلك . ان العدالة نفسها كامنة في صدق الأمور ، والكذب ظلم دائما كما ان الخطأ خداع دائما ، وذلك عندما يقول المرء ما لا يتفق وأصول ما يجب عليه عمله أو الايمان به . ومهما يكن الاثر الذي يترتب على قول الحقيقة ، فالمرء يكون دائما غير مذنب اذا ما قالها لانه لم يصف اليها شيئا من عنده » .

ولكن ذلك حسم للمسألة دون حلها . إذ لم يكن المطلوب بيان ما اذا كان من الخير دائما قول الحقيقة ، وإنما ما اذا كان الانسان ملزما كذلك

بالجهر بها دائما . ثم انه ، على ضوء التعريف الذى كان محل دراستى ،  
مفترضاً النفس ، وهو التمييز بين الحالات التى يتحتم قول  
الحقيقة فيها ، وبين تلك التى يمكن السكوت عنها دون أن يحيق الظلم  
بأحد ، وتمويهها دون أن يعد ذلك كذباً : ذلك لأننى وجدت أن مثل هذه  
الحالات قائمة فعلاً ، ومن ثم فالمطلوب هو البحث عن قاعدة مؤكدة تؤدي  
الى معرفتها وتحديدتها تحديداً دقيقاً .

ولكن من أين نستخلص تلك القاعدة والدليل على سلامتها ؟ لقد  
وجدت نفسى دائماً فى جميع المسائل الخلقية العسيرة مثل هذه ، أكثر  
استعداداً لحلها بوحى من ضميرى ، منى ، بهدى من عقلى . ولم يحدث أبداً  
أن ضللتنى غريزتى الخلقية ، فقد ظلت حتى الآن محتفظة بنقائها فى قلبى  
بالقدر الذى أستطيع معه أن أركن اليها ، ولئن سكنت أحياناً أمام انسياقى  
لعواطفى فى سلوكى ، فإنها تستعيد سيطرتها تماماً عندما أستعرض  
ذكرياتى . وعندئذ أحاسب نفسى حساباً قد يبلغ فى عسره حساب القاضى  
الاعظم بعد هذه الحياة .

ان الحكم على أحاديث الناس على ضوء ما يتخلف عنها من آثار هو  
فى أغلب الأحيان اساءة تقدير لها ، فضلاً على أن هذه الآثار ليست دائماً  
ملموسة ومن الميسور معرفتها ، فهى تتغير دائماً مثلما تتغير الملابس التى  
تلقى فيها تلك الاحاديث ومع ذلك فلا يقدر قيمتها أو يحدد مدى ما بها  
من مكر أو طيبة قلب الا قصد ملقيها وحده . فقول الخطأ لا يعد كذباً الا  
أن كان بقصد التضليل ، والقصد نفسه من التضليل ، فى بعده من أن  
يكون دائماً مضحوباً بقصد الاضرار ، يكون له أحياناً هدف معتاد تماماً .  
ولكن لكى نسم أكذوبة بالبراءة ، لا يكفى ألا يكون القصد من الاضرار  
واضحاً ، بل يجب علاوة على ذلك التأكد من أن الخطأ الذى يقع فيه  
المخاطبون ، لا يستطيع أن يسبب لهم أو لأى كان ضرراً بحال من الاحوال .  
انه لمن النادر والعسير أن يصل المرء الى ذلك التأكد ، ولذا فانه من العسير  
والنادر كذلك أن تكون هناك اكذوبة بريئة تماماً . ان الكذب الذى  
يستهدف النفع الشخصى خداع ، والكذب لنفع الغير غش ، وأما الكذب  
من أجل الايذاء فهو افك : انه أسوأ أنواع الكذب . والكذب الذى لا ينطوى  
على مصلحة أو اضرار بالنفس أو بالآخرين ليس كذباً : انه ليس أكذوبة  
بل هو توهم .

وتسمى القصص الخيالية ذات الموضوع الاخلاقى عبراً أو حكايات ،  
ولما كان موضوعها ليس - ولا يجب أن يكون - سوى غلاف يضم حقائق  
نافعة فى صور ملموسة لطيفة ، فان المرء لا يستمسك اطلاقاً فى مثل هذه



الحالة باخفاء كذب الواقعة ، الذى ليس سوى دنار للحقيقة ، ومن لا يروى  
حكاية خيالية الا من أجل الحكاية نفسها فليس بكاذب بحال من الاحوال .

وهناك قصص لخيالية أخرى بالغة أقصى التفاهة ، مثل ذلك معظم  
القصص والروايات التى لا تستهدف سوى التسلية اذ أنها تخلو من أى  
تثقيف حق ، وتلك التخيلات - وقد تجردت من أية فائدة خلقية - لا يستطيع  
ادراك قيمتها الا اذا عرف قصد مخترعها ، وهو حين يرويها مؤكدا اياها  
كأنما هى حقائق واقعة ، لا يسع المرء اطلاقا أن ينكر أنها أكاذيب حقة .  
ومع ذلك فمن ذا الذى عنى كثيرا بتلك الاكاذيب ، ومن ذا الذى وجه يوما  
الى قائلها لوما عنيفا ؟ لئن كان هناك ، على سبيل المثال ، مرعى خلقى فى  
قصة « معبد نيد (١) Le Temple de Gnide » فان هذا المرعى قد  
حجبه تماما وأفسدته التفاصيل الماجنة والصور الخليعة . ماذا فعل  
المؤلف ليغطفى ذلك بطلاء من التواضع ؟ لقد تظاهر بأن مؤلفه كان ترجمة  
نخطوط يونانى وسرد قصة اكتشاف هذا المخطوط على خير وجه يستطيع  
به اقناع قرائه بصدق روايته . فلئن لم يكن فى ذلك كذب ايجابى أكيد ،  
فلتقولوا لى ما هو الكذب اذن ؟ ومع ذلك ، فمن ذا الذى فطن الى جريمة  
المؤلف فى هذه الاكذوبة ، والى اعتباره من أجل ذلك مخادعا عبثا . ان الامر  
لا يعدو أن يكون دعابة ، وان المؤلف - وهو ماض فى تأكيده - لم يكن  
راغباً فى اقناع أحد ، بل انه فى الواقع لم يقنع أحدا ، وان الناس لم  
يشكوا لحظة واحدة فى أنه هو مؤلف الكتاب نفسه الذى زعم أنه يونانى  
والذى قدم نفسه كمترجم له . وسأرد على ذلك بأن مثل تلك الدعابة التى  
لا هدف من ورائها لم تكن سوى عمل صبيانى تافه . وبأن الكاذب لا يكون  
أقل كذبا عندما يؤكد ما يقول ، مع كونه غير مقنع ، وبأنه يجب أن نستبعد  
من الجمهور المثقف ، كثرة من القراء السذج البسطاء ، الذين اعتقدوا فى  
صدق قصة المخطوط ، وقد رواها لهم مؤلف جاد ، وباهجة واثقة ،  
والذين شربوا دون تخشية ، من كأس عتيقة الصورة ، السم الذى لو قدم  
لهم فى اثناء حديث لكان من الممكن على الاقل أن يتشككوا فيه .

وسواء وجدت تلك التفرقة فى الكتب أو لم توجد ، فانها كائنة  
فى قلب كل انسان واثق من نفسه ، لا يود أن يجيز لنفسه شيئا يستطيع  
ضميره أن يلومه بسببه ، ذلك لان قول الزور لمصلحة شخصية لا يقل  
كذبا عن الجهر به بقصد الاضرار بالغير ، وان كانت الاكذوبة أقل جرما .

(١) معبد نيد ، او معبد فينوس Le Temple de Gnide Venus هو رواية غرامية  
لمونتسكيو Montesquieu

أن منح ميزة لمن لا يستحقها اخلال بمجرى العدالة . وأن ينسب شخص  
لنفسه أو لغيره - زورا - عملا قد ينجم عنه ثيباء أو تفرع ، اتهام أو  
تبرئة ، لهو إجراء ظالم . وعلى ذلك ، فإن كل شيء بمخالفته للحقيقة  
- يخدش العدالة على أية صورة - كذب . ذلك هو الحد الدقيق ، ولكن كل  
ما يناقض الحقيقة ولا شأن له بالعدالة بآية حال ليس الا من خلق الخيال .  
وانى أعترف أن أى امرى يلوم نفسه على توهم محض ، عده كذبا ، له  
ضمير أشد حساسية من ضميرى .

ان ما يسميه الناس أكاذيب المجاملة هي أكاذيب حقيقية ، ذلك لان  
من يضلل اما لمصلحة الغير أو لمصلحة نفسه ، ليس أقل ظلماً ممن يضلل  
ملحقاضرا بنفسه . وان أى امرى يمتدح أو يلوم مخالفا للحقيقة يعد كاذبا اذا  
ما وجه ذلك الى شخص حقيقى . أما اذا كان ذلك موجها الى كائن خيالى  
فانه يستطيع أن يتحدث عنه بكل ما يريد دون أن يكذب ، على ألا يحكم  
على مغزى الوقائع التى يخلقها ، وألا يصدر عليها حكما خاطئا : إذ أنه  
عندئذ ، ولو لم يكن كاذبا في الوقائع ، فانه يرتكب الكذب ضد الحقيقة  
الاخلاقية ، تلك الحقيقة التى يجب احترامها مائة مرة أكثر من حقيقة  
الوقائع .

لقد صادفت فى الحياة أشخاصا ممن يسمون بصادقين . ان كل  
صدقهم يستنفد فى المحادثات التافهة وهم يسردون فى أمانة الامكنة  
والأوقات والأشخاص ولا يسمحون لانفسهم بأى تخيل ، ولا ينسجون أية  
ملايسة من الخيال ، ولا يبالغون فى شيء . وهم فى كل ما لا يمس  
مصلحتهم ، يلتزمون فيما يقصون الامانة المطلقة . ولكن ما أن يتطلب  
الامر معالجة مسألة تهمهم ، أو رواية واقعة ما تمسهم من قريب ، فانهم  
يستخدمون كافة الألوان ليعرضوا الاشياء على النحو الذى يكون أكثر نفعا  
بالنسبة لهم . واذا ما كان الكذب مفيدا لهم - وان كانوا يتجنبون قوله  
بأنفسهم - فهم يجيدونه فى لباقة ، ويعمادون على أن يلتزمه الآخرون  
دون أن يتمكن أحد من نسبته اليهم . هذا ما يوجبه الحرص : وداعا  
أبها الصدق .

أما الانسان الذى أسميه « صادقا » فهو يفعل عكس ذلك تماما .  
ففى الامور التى لاتعنيه بتاتا ، فان الحقيقة - التى يحترمها الغير حينئذ  
احتراما شديدا - لا تؤثر فيه الا بقدر ضئيل جدا ، كما أنه لا يعنى أبدا  
بتسليية جماعة من صحابه بوقائع مختلفة لا ينجم عنها أى حكم خاطيء ،  
لصالحه أو ضد - أى من الناس حيا كان أو ميتا . ولكن كل حديث يترتب  
عليه بالنسبة لأى شخص كسب أو خسارة ، تقدير أو اجتنار ، مدح أو

لوم ، يتنافى مع العدالة والحقيقة ، هو كذب لن يجد سبيله أبدا الى قلبه أو فيه أو يراعه . وهو راسخ فى الصدق حتى ولو ضد مصلحته ، ولو أنه قلما يدعى ذلك فى المحادثات التافهة . انه صادق فى عدم محاولته خداع أحد ، وفى أن أمانته على الحقيقة التى تتهمه ، تستوى وأمانته على الحقيقة التى تشرفه ، وفى أنه لا يضل لصالحه أو للاضرار بعسوه . فالفرق اذن بين رجل صادق وغيره هو أن رجل المجتمع يكون بعيد المغالاة فى أمانته بالنسبة لكل حقيقة لا تكلفه شيئا ، ولكنه لا يتجاوز هذا المدى ، وأما رجلنا فهو لا يخدمها أبدا بمثل تلك الأمانة اللهم الا حين يرى من واجبه أن يضحي بنفسه فى سبيلها .

ولكن قد يقال : كيف يمكن التوفيق بين هذا التساهل وهذا الحب الشديد للحقيقة الذى أمجده من أجلها ؟ واذن ، أفهذا الحب زائف ما دام يستغل كل هذه الشوائب ؟ كلا أنه لطاهر وصادق ، ولكنه ليس سوى مظهر لحب العدالة، ولا يمكنه أبدا أن يكون زائفا ، برغم أنه غالبا ما يكون خياليا . ان العدل والحق لفظان مترادفان فى ذهنه ، يحل الواحد منهما محل الآخر بدون تفرقة ، والحقيقة المقدسة التى يعبدها قلبه ، ليست وقائع لا قيمة لها ، وأسماء لا طائل وراءها ، ولكنها اعطاء كل ذى حق حقه فيما يملكه حقيقة ، وفيما ينسب اليه خيرا كان أو شرا ، وما يجزى به من تشريف أو تقريع ، من ثناء أو استهجان ، وهو ليس مخطئا لا فى حق الغير لان عدالته تمنعه من ذلك ولأنه لا يريد الاضرار بأحد ظلما ، ولا فى حق نفسه لان ضميره يدوده عن ذلك ، ولانه لا يمكن أن ينتحل لنفسه ما لا يملكه . ولكنه يفار بصفة خاصة على احترام ذاته ، فهى ملك له وآخر ما يسعه التخلي عنه . وهو قد يشعر بخسارة حقة ان هو نال احترام الآخرين على حساب احترامه لذاته . واذن فانه سيكذب أحيانا فيما لا أهمية له بدون تخرج ودون أن يعتقد أنه يكذب، ولكن هذا لا يحدث أبدا للحاق خسارة أو كسب للغير أو لنفسه . أما فى كل ما يتعلق بالحقائق التاريخية وكل ما يمت بصلة بسلوك الناس وبالعدالة وبواجب المعاشرة وبالايضاحات المفيدة ، فانه يجنب نفسه كما يجنب الآخرين الخطأ ؛ ما دام ذلك متوقفا عليه . وكل كذب فيما عدا ذلك ليس كذبا فى نظره . واذا كان « معبد نيد » Le Temple de Gnide مؤلفا ناقعا فان قصة المخطوط اليونانى ليست سوى تخيل بالغ البراءة ، ولكنها كذبة تستحق العقاب الشديد اذا كان الكتاب خطرا .

تلك كانت شريعة ضميرى فيما يتصل بالكذب والصدق . ولقد كان قلبى يتبع هذه الشريعة آليا قبل أن يعتنقها عقلى . ولكن الوازع الخلقى

هو الذى قام وحده بتطبيقها . ان الكذبة الاجرامية التى كانت «ماريون» Marion (١) التعمسة ضحية لها ، خلفت لى ندما لا يمضى ، وقانى فيما بقى لى من حياتى ، لا أية أكتوبة من هذا القبيل فحسب ، بل كافة الاكاذيب التى على تنوع صورها ، كانت تستطيع أن تمس صالح وسمعة الغير . ولما جاء الاقناع شاملا على هذا النحو فقد أحللت نفسى من موازنة النفع والضرر موازنة دقيقة ، ومن تعيين الحدود الفاصلة بين الكذب الضار وكذب المجاملة، ولما كنت أعد كليهما اثما ، فاننى حرمتهما معا على نفسى .

وسواء فى تلك المسألة أو فيما عداها ، كان لمزاجى تأثير كبير على مبادئى ، أو بالاحرى على عاداتى ، ذلك لاننى لم أتصرف بتاتا متبعا قاعدة ما أو التزمت قواعد أخرى فى أى شىء سوى دوافع طبيعتى . ولم يحدث مطلقا أن مرت بخاطرى أكتوبة مدبرة ، كما لم يحدث مطلقا أن كذبت سعيًا وراء مصلحة شخصية ، ولكننى كذبت كثيرا بسبب الحجل ، أو لالتخلص من الحرج فى أمور لا أهمية لها ، أو لم تكن تهم على الاكثر سوى وذلك حين يكون على أن أوصل حديثنا ، فيضطرني ببطء تفكيرى ونضوب حديثى للالتجاء الى التخيل حتى أجد ما أقوله . وحين يكون الكلام ضروريا ولا تعرض لذهنى سريعا حقائق تبعث على التسلية فاننى أقوم برواية حكايات خيالية حتى لا اظل أبكم ، ولكننى أعنى ، عند اختراع هذه الحكايات بقدر ما يسعنى ذلك - ألا تكون أكاذيب بمعنى أنها لا تخدش العدالة ولا الحقيقة الواجبة ، وألا تكون سوى تخيلات لا قيمة لها بالنسبة للناس جميعا ولى . ولقد كان بودى لو أننى استبدلت فيها على الأقل حقيقة الوقائع بحقيقة أخلاقية، أى بأن أصور فيها تصويرا صادقا الاحاسيس الطبيعية للقلب الانسانى ، وأن أستخلص منها دائما درسا ناعما ، وقصارى القول أن أصنع منها قصصا أخلاقية ، وعبرًا ، ولكن كان من اللازم لذلك قسط من حضور البديهة أوفر مما أملك ، ومزيد من طلاقة اللسان حتى أستطيع أن أحقق فائدة التعليم من لغو المحادثة ، ذلك لان سيرها فى سرعة تفوق سرعة أفكارى ، وهو يضطرني دائما الى النطق قبل التفكير غالبا ما أوحى الى بسخافات وتفاهات لم يكن عقلى ليرضى عنها ، وكان قاسى بنكرها فى حين أنها تغلت من شفتى ، ولكنها اذ تسبق حكمى الشخصى فانه لا يعود من الممكن اصلاحها بمراقبتها . وانه ليحدث كذلك بسبب هذا الدافع الأول العنيف لمزاجى ، فى لحظات خاطفة غير متوقعة ، أن ينتزع منى الخجل والحياء غالبا أكاذيب لا دخل لارادتى فيها ، ولكنها

(١) ماريون Marion هى الخادم التى أشرنا اليها فى هامش ص ١٢٨ واتهما

روسو ظلما بالسرقة .

تسبقها مدفوعة بضرورة الاجابة على التو . ان الانطباعة العميقة التي خلفتها ذكرى « ماريون » المسكينة يمكنها أن تمنع دائما الاكاذيب التي تضر بالغير ، ولكن لا يقوى على منع تلك التي يمكنها مساعدتى على التخلص من الحرج حين يكون الأمر متعلقا بى وحدى ، وهى لا تقل معارضة لضميرى ومبادئ من تلك الاكاذيب التي تصنع التأثير فى مصير الآخرين .

وانى لاُشهد السماء على أنه اذا كان فى استطاعتى فى اللحظة التالية للاكذوبة التي تبرئنى منها وقول الحق الذى يديننى دون أن أسبب لى نفسى مهانة جديدة بتراجعى لفعلت ذلك من كل قلبى . ولكن الحجل من اظهار نفسى على هذا النحو مخطنا يجعلنى أحجم كذلك ، وانى لأندم مخلصا جدا على خطئى دون أن أجرؤ مع ذلك على اصلاحه . ولعل مثلا يفسر خيرا من ذلك ما أريد قوله ، ويبين أننى لا أكذب سعيا وراء المصلحة ولا عن كبرياء بل وأدنى من ذلك عن حسد أو خبث ، ولكن عن حرج وخجل مزر فحسب ، بل وأنا أعلم تمام العلم فى بعض الاحيان أن هذا الكذب مفضوح ولا يمكن أن يجدى بالمره : حدث منذ حين أن دعانى السيد ف . . . (١) - بخلاف ما جرت عليه عادتى - على الخروج مع زوجتى وتناول الطعام اثناء النزهة معه ومع السيد ب . . . عند السيدة . . . وهى صاحبة مطعم ، تناولت هى وابنتاها الطعام معنا . وثناء تناول الطعام خطر للكبرى ، وهى متزوجة من وقت قصير وكانت حاملا ، أن تسألنى فجأة وهى تحديق فى ان كنت قد رزقت بأولاد . فأجبتها وقد احمر وجهى حتى الجفنين أننى لم أنل هذا الحظ ، فابتسمت فى خبث وهى تتطلع الى الجماعة ، ولم يكن كل ذلك خافيا ، حتى على .

ومن الجلى قبل كل شيء أن هذه الاجابة لم تكن أبدا ما كنت أود أن تكون ولو فيما اذا كانت لدى النية عندئذ فى التضليل ، ذلك لآتنى تبعا للاستعداد الذى شهدته فى المدعوين ، كنت واثقا تمام الثقة من أن اجابتى لم تغير شيئا من رأيهم فى هذا الامر . لقد كانوا يتوقعون هذا النفى ، بل انهم أثاروه ليستمتعوا بلذة دفعى الى الكذب . ولم أكن من الغفلة بحيث لا أدرك ذلك . وبعد دقيقتين ، لاحت لى من تلقائها الاجابة التي كان على أن أجيب بها وهى « هذا سؤال تعوزه الحصافة من سييدة شابة ، لرجل تقدمت به السن وهو أعزب » . وكنت بتجدتى على هذا النحو ، بغير كذب ودون أن يكون هناك ما يدعوى الى الحجل بسبب أى اعتراف ، كنت مستطعا أن أضم الضاحكين الى صفى ، وألقنها درسا صغيرا كان من شأنه طبعا أن يقلل من وقاحتها فى سؤالى . ولكننى لم أفعل شيئا من

(١) هو السيد فولكييه Foulquier طبقا لما جاء بطبعة Bernard Groethuysen

هذا كله ، ولم أقل أبدا ما كان يجب قوله ، بل قلت ما لم يكن ضروريا ولم يعد علي بالنفع في شيء . ومن المؤكد ، اذن انه لا عقلي ولا ارادتي أمليا على اجابتي ، بل انها كانت النتيجة الآلية للحرج الذي كنت فيه . لم اعتورني هذا الحرج قط من قبل بل كنت اعترف بأخطائي بصراحة أكثر مما كان في ذلك لأنني لم أكن أشك في أن الناس لا يرون ما يكفر عنها وما كنت أستشعره في قرارة نفسي ، ولكن نظرة الخبث تشقيني وتبخرني: لقد ازداد حياتي بازدياد شقوتي ، ولم يحدث أن كذبت الا حياء .

لم يحدث أبدا ان أحسست بنفوري الطبيعي من الكذب أشد مما أحسست به عند كتابة « اعترافاتي » ، ذلك لأن الاعراء فيها كان من الممكن أن يتكرر ويشتد مهما أبعثتني ميول عن هذه الناحية ، ولكن بدلا من أن أكتب شيئا أو أخفي شيئا مما قد يدينني ، كنت أحس وأنا أفكر بطريقة يشق علي شرحها - لعلها بسبب البعد عن كل محاكاة - كنت أحس أن ميل للكذب عكس الاتجاه المعتاد ، باتهام نفسي في مزيد من القسوة أشد منه بتبرئتها في مزيد من التسامح ويؤكد لي ضميري أن محاكمتي في يوم من الأيام ستكون أقل قسوة مما حكمت به علي نفسي . أجل ، انني أقول ذلك وأحسه باباء وعزة نفس ، ولقد حملت هذا المكتوب حسن نية وصدقا وصراحة بلغت فيها - في اعتقادي على الاقل - ما بلغه ، بل أبعده مما بلغه ، أي انسان آخر على الاطلاق (١) ، ولاحساسي بأن الخير يفوق الشر ، وجدت من مصلحتي أن أقول كل شيء ، وقد قلته .

لم يحدث أبدا أن قلت أقل مما يجب ، بل انني قلت أحيانا أكثر مما يجب ، لاني الوقائع بل في الملابس ، وهذا النوع من الكذب كان نتيجة تخبط الخيال أكثر منه فعلا اراديا ، بل انني لأحيد عن جادة الصواب أن أسميته كذبا ، ذلك لا لأن واحدة من هذه الاضافات لم تكن كذبا . لقد كنت أكتب اعترافاتي بعد أن تقدمت بي السن (٢) ، وبعد أن

---

(١) قال روسو في مستهل « الاعترافات » : « لقد صورت نفسي على حقيقتها : في نعتها وزرايتها . وفي صلاحها وحصافة عقلها ، وسموها تبعا للحال التي كنت فيها . . لقد كشفت عن اعماق اغوار نفسي ، كما كنت انت تراها ، ايها الخالد الحشد الذي لا حصر له من أبناء جنسي ، ودعمهم يصفون الى اعترافاتي ، فيرون لخستي ، ويخجلون لثألي . ثم ادع كلاً منهم الى أن يكشف بدوره - وتبعين الصراحة - أسرار قواده ، عند قوائم مرثك ، وليقل ان جرؤ : « لقد كنت خيرا من ذلك الرجل » .

(٢) - بدأ روسو كتابة « الاعترافات » Les Confessions عام ١٧٦٥ اي كان يبلغ اذ ذاك الثالثة والخمسين .

اشمأزت نفسي من المتع الباطلة في الحياة تلك المتع التي كنت مررت بها جميعا من قبل ، والتي أحس قلبي تماما بتفاهتها . كنت أكتبها من الذاكرة ، وكثيرا ما كانت تلك الذاكرة تخونني أو لا تمدني الا بذكريات ناقصة ، فكنت أسد الثغرات بتفاصيل كنت أتخيلها بالإضافة الى تلك الذكريات ، وان لم تكن متعارضة معها أبدا . كنت أحب أن أتوسع في تناول اللحظات السعيدة في حياتي ، وكنت أجملها أحيانا بمجملات كان يزودني بها أسفى عليها . كنت أردد ما أكون قد نسيتته كما كان يبدو لي أنها لا بد كانت كذلك في رأيي ، أو كما لو كان من الجائز أن يحدث في الواقع ، ولكن ليس بعكس ما كنت أتذكرها عليه أبدا . وكنت أسبغ أحيانا على الحقيقة مفاتن غريبة عليها، ولكن لم يحدث مطلقا أن أحللت الكذب مكانها لأموه على رذائلي أو لانتجل لنفسي فضائل .

وإذا ماحدث في بعض الأحيان أن أخفيت - دون أن أفكر في الأمر بدافع غير ارادى - الناحية الشوهاء ، مصورا نفسي تصويرا جانبيا ، فإن هذا الكتمان كان يستعاض عنه تماما بكتمان آخر أشد غرابة كثيرا ما جعلني أحرص على الامساك عن ذكر الخير في عناية أشد من حرصى على كتمان الشر ، وهذه غرابة في طبعى لا بد أن يغتفر للناس عدم تصديقها ، ولو أنها - على بعدها عن التصديق الا أنني أتصورها - انني كثيرا ما قلت الشر بكل حقارته ، ونادرا ما قلت الخير بكل ما فيه من جمال ، وكثيرا ما كتمته تماما لانه كان يسبغ على شرفا زائدا ، ولأننى - اذ كنت أسجل اعترافاتي - كنت خليقا أن أبدو كمادح نفسه . لقد وصفت أيام شبابي دون أن أزهى بالحصال الحميدة التي وهب اياها قلبي، بل وبحذف الوقائع التي كانت تجعلها واضحة تماما . واني لأذكر منها الآن واقعتين حدثتا في طفولتي الباكرة مرتا بذاكرتي وأنا أكتب ولكنني أغضيت عنهما للسبب الوحيد الذي ذكرته الآن .

كنت أقضى طيلة نهار أيام الأحاد تقريبا في « باكي » Paquis لدى السيد فازى Fazy الذي كان متزوجا من اخدى عماتى ، والذي كان يمتلك هناك مصنعا للشيت الهندى . وفي يوم كنت بالمنشر في حجرة الجندرة أتطلع الى اسطوانات من حديد الزهر وكان بريقها يمتع ناظرى وقد زين لي أن أضح عليها أصابعى وأخذت أمرها في استمتاع على صفحتها المصقولة ، حين جاء « فازى » الصغير وأدخل نفسه في العجلة وأدارها ثمن دورة باحكام حتى لم يأخذ الا طرفى أطول أصابع يدي، ولكن كان هذا كافيا لأن يستحق الطرفين مع بقاء الطرفين فيها ، وصرخت صرخة حادة فأرجع « فازى » العجلة للثو ولكن الأظافر بقيت بالاسطوانة،

وانسال الدم منهما من أصابعى ، وأخذ « فازى » فى ذهول يصرخ « اخرج من العجلة » وأخذ يقبلنى ، ويقسم لى أنه سيهدىء من صراخى مضيئا أنه يخس نفسه مضيعا . ومع احساسى بالألم الشديد ، فإن ألمه أثر فى ، فسكت ، وذهبتا الى المغسل حيث ساعدنى على غسل أصابعى ، وتجفيف دمي برغوة الصابون . ثم توسل الى والدالموع فى عينيه ألا أشير الى اتهامه بما حدث ، فوعده بذلك ، وبررت بوعدى حتى أنه بعد أكثر من عشرين عاما لم يكن هناك من يدرى شيئا عن ذلك الحادث الذى خلف ندبتين فى أصبعى ذلك لانهما ظللا دائما كذلك . ولقد ظللت رهين سريرى أكثر من ثلاثة أسابيع ، وقضيت أكثر من شهرين فى حالة لا تمكننى من استخدام يدى مرددا دائما أن كتلة ضخمة من الحجر سحقت أصابعى حين سقطت عليها .

(1) Magnanima menzogna : or quando è il vero  
Si bello, che si possa a te preporre ?

أيتها الاكذوبة الشامخة ، متى امكن الحقيقة  
مهما بلغت من جمال ، أن تفوقك ؟

ومع ذلك فقد جعلنى هذا الحادث شديد الحساسية للظرف الذى حدثت فيه ، لأنه جاء فى وقت التمرينات التى كانوا يقومون خلالها بتشغيل الأهلين ، وكنا قد كونا صفا من ثلاثة أطفال آخرين من سننى ، كان على - وأنا مرتد الزى الرسمى - أن أبشر التمرين مع الجماعة فى الحى الذى أظنه . وقد سمعت وأنا أتالم صوت طبول الجماعة وهى تمر تحت نافذتى ومن بينهم زملائى الثلاثة فى حين أنا طريح الفراش .

وأما قصتى الأخرى . فشبيهة تماما بهذه القصة وان دارت وقائعها فى سن متقدمة نسبيا . كنت ألعب لعبة الصوالج فى بلان باليه Plain - Palais مع واحد من رفاقى يدعى « بلانس » Plince وتشاجرنا أثناء اللعب وتضاربنا فوجه الى رأسى العارية خلال المعركة ضربة

Magnanima menzogna ; Or quando è il vero  
Si bello, che si possa a te preporre ; (1)

وقد ترجمها من الإيطالية الى الفرنسية  
Auguste Desplaces  
Magnanime mensonge, quand la vérité est-elle  
Si belle qu'elle puisse te surpasser ; فكانت :

وبالعربية : أيتها الاكذوبة المظيمة ، متى كانت الحقيقة من الجمال  
بحيث يمكنها أن تفوقك ؟



بالصولج بلغت في احكامها أنها لو سدوت من يد أشد قوة لكانت كفيلة ان تهشم رأسى . ولقد سقطت على الفور ، ولم أر في حياتى اضطرابا كاضطراب ذلك الغتتى المسكين . شهد الدم يسسيل بغزارة من شعرى فخيل اليه أنه قتلنى فاندفع نحوى يقينى ويضمنى اليه بقوة وهو يسكب دموعه ويصرخ صراخا حادا ، فأخذت أقبله كذلك بكل قوتى وأنا أبكى مثله فى عاطفة مضطربة لم تخل من بعض حنان ، وفى نهاية الأمر اخذ يجفف دمى الذى ظل يسيل ، ولما رأى أن منسدليننا لم يعودا كافيين ، أخذنى الى أمه التى كانت لها حديقة صغيرة على مقربة ، وكاد يغمى على هذه السيدة الطيبة حين رأتنى على هذه الجبال ، ولكنها استطاعت أن تماسك لتضمدى وبعد أن غسلت جرحى جيدا وضعت عليه زهور الزنبق Lxs المنقوعة فى الكحول وهو دواء شاف للجروح يكثر استعماله فى بلادنا . ولقد نفذت دموعها ودموع ابنها الى قلبى ، وحتى ظلمت أنظر إليها وقتا طويلا كام لى ، وظلمت اعتبر ابنها أخا لى ، حتى توارى الاثنان عن ناظرى فنسيتهما شيئا فشيئا .

ولقد احتفظت بسر ذلك الحادث احتفاظى بسر الحادث الآخر ، ثم مر بى فى حياتى مائة حادث آخر من النوع نفسه لم أحاول التحدث عنها فى « اعترافى » ما دمت لم أكن أسعى فيها وراء وسيلة تجعل الناس يقدرون الناحية الخيرة التى كنت استشعرها فى خلقى . كلا ، انى حين تحدثت مخالفا الحق الذى كنت اعرفه ، لم يكن ذلك الا فى أمور تافهة ، بل ان ذلك كان اما عن تخرج عن الكلام ، أو لمجرد الرغبة فى الكتابة أكثر منه بسبب أى دافع لمصلحة خاصة أو بسبب نفع أو ضرر الغير . وان أى شخص سيقراً اعترافى دون تحيز - لو قدر حدوث ذلك - سيحس أن الاعترافات التى سجلتها هناك أكثر اذلالا وأشق عند الادلاء بها ، من اعترافات باثم أشد وان كان أقل مجلبة للخزى ، والتى لم أذكرها لأننى لم أفعلها .

ويستخلص من كل هذه الخواطر أن اشهار الحقيقة الذى التزمته يستند الى أساس من مشاعر الاستقامة والعدالة أكثر من استناده الى حقيقة الامور ، وانى اتبعت من الناحية العملية التوجيهات الاخلاقية لضميرى أكثر من اتباعى الآراء المجردة عن الصواب والخطأ . وكثيراً ما قصصبت حكايات ، ولكنى نادرا جدا ما كذبت . وياتبعى هذه المبادئ يسرت للأخزين الكثير من المآخذ على ، ولكننى لم أخطيء فى حق أحد مهما يكن ولم أنسب لنفسى البتة أكثر مما استحق . ويبدو لى أن أقول

الحقيقة هنا فقط بعد فضيلة ، وأما في النواحي الأخرى فإنها ليست بالنسبة لنا سوى كائن ميتافيزيقي لا ينجم عنه خير أو شر .

ومع ذلك فإن قلبي لا يكاد يحس بالرضى لهذه التفرقة حتى يجعلني أعتقد أنني غير ملوم تماما ، وحين أزن بهذه العناية ما أدين به للآخرين أقترائني درست دراسة كافية واجبي ازاء نفسي ؟ لئن كان من الواجب على المرء أن يكون عادلا بالنسبة للغير فإن من الواجب عليه أن يكون صادقا بالنسبة لنفسه . ان ذلك لولاء على الرجل الشريف أن يؤديه لكرامته . وحين كان يكرهني جذب حديثي على أن استكملة بتخيلات بريئة كنت مخطئا ، ذلك لأنه لا يجب أبدا - رغبة في تسلية الغير - أن يخس الانسان نفسه . وعندما كنت أضيف الى أمور واقعة حواشي من اختراعي - مسوقا الي ذلك بالرغبة في الكتابة - كنت أرتكب خطأ أكثر كذلك لأن تزيين الحقيقة بالخرافات هو في الواقع تشويه لها .

ولكن ما يجعل ذنبي لا يفتقر هو ذلك الشعار الذي كنت قد اتخذته كان هذا الشعار يضطرنني أكثر من أي انسان آخر الى التزام الدقة في اشهار الحقيقة ولم يكن يكفي أن أضحي من أجله في كل شيء بمصلحتي وميولي ، بل كان يجب كذلك أن أضحي من أجله بضعفي وبطبيعتي الحينة . كان لا بد من الشجاعة والقدرة لآكون صادقا دائما وفي كل مناسبة ، وألا تخرج البتة تخيلات أو خرافات من فم ومن قلم كرهسا للحق قبل كل شيء . ذلك ما كان يجب على أن أقوله لنفسى حين اتخذت هذا الشعار الرفيع ، وأن أردده باستمرار ما دمت قادرا على الأخذ به . لم يحدث قط أن أملي الخداع أكاذيبي بل انها تجمت جميعها عن ضعف ، ولكن ليس هذا عذرا لي بالمرء يستطيع المرء ذو النفس الضعيفة أن يجتنب الرذيلة على أكثر تقدير ، ولكنه يكون متجبرا ومتهورا ان هو جرو على ان ينادى بفضائل كبيرة .

تلك خواطر كان من المحتمل ألا تعرض لذهني لو لم يوح بها الى الراهب « ر ٠٠٠ » ، وليس من شك أن الانتفاع بها بات متأخرا ، ولكن الوقت لم يمض على الاض لتقويم خطئي واخضاع ارادتي للمبدأ ، ذلك لأن هذا هو كل ما يتوقف على منذ اليوم ٠٠٠ . واذن فانه في هذا وفي كل ما يشابهه من أمور يمكن تطبيق مبدأ « سولون » بالنسبة لكل الأعمار فالقرصنة قائمة دائما كي يتعلم المرء - حتى من أعدائه - كيف يكون عاقلا ، صادقا ، متواضعا ، وأن يعرف على الأقل قدر نفسه .

## الجزء الخامسة

من بين الديار التي أقيمت فيها جميعا (١٦) ، وكانت لي من بينها ديار بديعة ، لم تسعدني حقا ولم تخلف لي كل ذلك الأسى سوى جزيرة سان بيير Saint-Pierre القائمة وسط بحيرة بين (٢) Bienne وهذه الجزيرة الصغيرة التي يطلقون عليها في نيوشاتل Neuchâtel جزيرة لاموت La Motte ليست معروفة حتى في سويسرا ، الا قليلا ، ولا يورد لها ذكرا واحدا من الرحالة ، على ما أعلم . ومع ذلك فهي لطيفة جدا ، وتفردت بموقع كليل باسعاد من يهوى الانطواء على نفسه الا أنه برغم أنني ربما كنت الوحيد في العالم من جعل قدره من نفسه (٣) أي من القدر ) قانونا له فأنني لا أستطيع أن أصدق أنني الوحيد من ذلك النوع الطبيعي ، برغم أنني لم أجده حتى الآن لدى أي شخص آخر .

وشطآن بحيرة « بين » أكثر ميلا للفظرة والشاعرية من شواطئ « بحيرة جنيف » ذلك لأن الصخور والغابات هناك أكثر قربا في مجاورتها للماء ولكنها ليست أقل بهجة . ولئن كان ما بها من زرع الحبوب وكروم ومدن ومساكن أقل ، فإنها تفوقها من ناحية الخضرة الطبيعية والمراعي ، وكثيف الايك تظللها الخمائيل ، والتباين الغالب بها والتنوعات المتقاربة . ولما لم يكن هناك على تلك الضفاف الباسمة من طرق كبيرة معبدة للعربات فان الاقليم لم يكن يؤمه المسافرون كثيرا ، وان كان يروق للمتأملين

(١) من الديار البديعة التي خلفت الذكرى الطيبة في نفس روسو اقامته وهو طفل في قرية بوسى Bossey بالريف عند القس ليرسييه Lambercier وفي الشارميت Les Charmettes عند مدام دوفواران وفي ارميتاج Ermitage في شيفاز . مدام دابنای Mme d'Epinay ، ويلاحظان تلك الديار جميعا كانت تحيط بها المناظر الطبيعية التي اجدها روسو دون سواها .

(٢) استقر روسو في جزيرة سان بيير في النصف الثاني من سبتمبر ١٧٦٥ وعاش هناك حتى ٢٥ من أكتوبر من العام نفسه ( الاعترافات الجزء الثاني عشر ) ، حين امر بمغادرة مكانه بناء على امر مجلس شيوخ « برن Berne »

المنعزلين الذين يرغبون في أن ينتشوا كما يشاءون بمفاتيح الطبيعة ، وأن ينظروا على أنفسهم في سكون لا يتخلله أى صوت سوى صرخات العقبان وشقشقة متقطعة لبعض الطيور ، وهدير السيول التي تنحدر من الجبل . ويضم هذا الحوض الجميل ذو الشكل الدائري تقريبا جزيرتين صغيرتين في وسطه ، احدهما مأهولة ومزروعة محيطها نصف فرسخ تقريبا ، والأخرى تصغرها ، وهى قفراء قاحلة وسينقضى عليها فى نهاية الأمر بسبب ماينقل من أرضها تباعا لاصلاح ما تفسده الأمواج والعواصف البحرية فى الجزيرة الكبرى . وهكذا تستغل دائما مقومات حياة الضعيف لمصلحة القوى .

ليس فى الجزيرة سوى منزل واحد ، ولكنه كبير ، ولطيف ، ومريح ، وهو ملك لمستشفى برن Berne كالجزيرة كذلك ، ويقيم فيه محصل مع أسرته وخدمه ، ويتولى هناك تربية عدد كبير من الدواجن ، كما أن هناك حظيرة للدواجن وأحواض للسماك ، والجزيرة على صغرها ، بلغت من التنوع فى أراضيها ومشاهدها ما جعلها تعرض للرائى أكل أنواع المواقع وتحتمل كل ألوان المزروعات : فيها حقول وكروم وغبابات وبساتين ومراع كثيفة تظللها الاعراش وتحفها الشجيرات من كل نوع ، ويكفل نضارتها مجاورتها للماء ، ويحف بطول الجزيرة شريط مرتفع من الأرض زرع به صفان من الاشجار ، وشيد فى وسطه بهو جميل يجتمع سكان الشواطىء المجاورة فيه حيث يأتون أيام الاحاد فى موسم قطاف الكروم .

كانت هذه الجزيرة هى المكان الذى لجأت اليه بعد رجم موتيه Motiers (1) وقد وجدت الإقامة فيها رائعة وعشت هناك حياة تنفق ومزاجى ، حتى أننى وقد عزمتم على أن تنتهى حياتى بها ، لم يساورنى أى قلق اللهم الا احتمال عدم تمكينى من تنفيذ هذا المشروع الذى لم يكن ليتفق ومشروع اجتذابى الى انجلترا ، الذى كنت قد بدأت أحس بوادزه . وفيما كان يعتورنى من أحاسيس تقلقنى ، وددت لو أنه جعل من ذلك المأوى سجنأ أبديا لى ووددت لو أننى احتبست فيه طيلة حياتى ولو أنه بسلبى كل قدرة وكل أمل فى الفكك منه حرمت على كل أنواع الاتصال بالأرض حتى اننى - يجهلى كل ما يجرى فى العالم - كنت أستطيع أن أنسى وجوده كما يستطيعون من به أن ينسوا وجودى كذلك .

(1) اعتبر أهل « موتيه Motiers » روسو خارجا على الديانة لما جاء في « اقرار ايمان كاهن من سفوا Profession de foi du Ciccire Savoyard فرجموا منزله بالحجارة . ويقول بعض الكتاب ان ذلك كان بتحريض من تيرين Thérèse لأنها لم تكن تريد الإقامة هناك .

انهم لم يدعوني قط أفضى سوى شهرين فى تلك الجزيرة ، وكنت خليقا أن أفضى بها عامين بل قرنين ، بل ولى الأبد ، دون أن ينال منى المسامحة لحظة واحدة ، برغم أنه لم يكن لى فيها مع صاحبتي من رفقة أخرى سوى رفقة المحصل وزوجه وخدمه الذين لم يكونوا جميعا - فى الحقيقة - سوى قوم طبيين . ولكن كان هذا بالضبط ما أنا بحاجة اليه . اننى أعد هذين الشهرين أسعد وقت مربى فى حياتى ، بل بلغت فيه درجة من السعادة كانت تكفينى طوال عمرى دون أن تولد فى نفسى ولو للحظة واحدة الرغبة فى حال أخرى .

أنى كانت اذن هذه السعادة ؟ وفيم كانت متعتها ؟ ساعد من يعيشون فى هذا القرن يخمنون وصف الحياة التى كنت أجيهاها هناك . كان الفراغ الناعم far niente أول وأهم هذه المتع التى وددت التلذذ بتذوقها بكل ما فيها من حلاوة فلم يكن فى الواقع كل ما فعلته طيلة اقامتى سوى ذلك الانهماك اللذيذ الذى يلزم رجلا كرس نفسه للبطالة .

كان الأمل فى ألا يطلب أكثر من أن أترك فى هذا المقام المنعزل حيث قيدت نفسى بنفسى ، والذى كان من المستحيل الخروج منه دون عون وبغير أن ينتبه الى ، وحيث لم أكن أستطيع أن يكون لى اتصال أو مراسلة إلا بمساعدة من كانوا يحيطون بى أقول ان هذا الأمل كان يبعث فى أملا آخر هو قضاء أيامى فى هدوء أكثر من ذى قبل . وكانت فكرة أنه كان أمامى متسع من الوقت لتدبير كل أمورى عندما يطيب لى ذلك ، قد جعلتنى لا أبدأ فى القيام بعمل أى ترتيب . ولما كنت قد نقلت الى هناك فجأة ، وحيدا ومجردا ، فقد أحضرت تبعا مدبرة بيتى وكتبى وأمتعتى القليلة التى وجدت لذة فى عدم فتحها تاركا حقائبى وصناديقى ، على حالها حين وصولها ، ومقيما بالمسكن الذى عولت على قضاء آخر أيامى به كما لو كنت أعيش فى فندق يتعين على مغادرته فى الغد . وظلت الأشياء جميعا وهى على ما هى عليه ، فى حالة طيبة حتى أن الرغبة فى ترتيبها خيرا من ذلك كانت بمثابة افساد جانب منها . وكان من أكبر المتع لدى أن أدع كتبى دائما محفوظة فى الصناديق وألا تكون لدى محبرة على الاطلاق . وحين كانت تضطرنى خطابات منكودة الى تناول القلم للرد عليها كنت أستعير - وأنا ضجر - محبرة المحصل وكنت أسارع بردها اليه بأمل عقيم فى ألا تدفعنى الحاجة الى استعارتها فيما بعد . وقد شغلت حجرتى بدلا من تلك الاوراق الكثيبة وكل هذه الكتب القديمة بالزهور والنباتات ذلك لأننى كنت اذ ذاك فى بداية شغفى بدراسة النبات التى

بث الميل إليها في نفسى الدكتور ديڤرنوا D'Ivernois (١) حتى غدا هذا الميل شغفا . ولما كنت لا أرغب في القيام بعمل جاد فإنه كان يلزمنى عمل مسلي يروقني ولا يسبب لى جهدا أكثر مما يرتضيه كسول لنفسه . وشرعت في تصنيف أزهار الجزيرة الصخرية *Flora petrinsularis* (٢) وفي وصف كل نباتات الجزيرة دون اغفال واحد منها وذلك بتفصيل يكفى ليشغلنى بقية أيام حياتى . ويقال ان ألمانيا ألقت كتابا عن قشرة ليمونة ، وكان فى استطاعتى تأليف واحد عن كل بقل من بقول المراعى وعن كل طحلب من طحالب الغابات وعن كل حزاز يمكن أن يوشى الصخور ، وقصارى القول اننى لم أكن أريد أن أترك خيطا من العشب أو ذرة من النبات دون أن أتناولها بالوصف الشامل ، وتمشيامع هذا المشروع البديع كنت أذهب كل صباح ، بعد الافطار الذى كنا نتناوله مجتمعين ، كنت أذهب وبيدى عدسة وأنا متأبط كتابى «نظام التقسيم الطبيعى للنباتات» *Systema naturae* (٣) كى أزود ناحية من الجزيرة التى كنت قد قسمتها لهذا الغرض الى مربعات صغيرة مستهدفا التجول فيها الواحد بعد الآخر فى كل فصل . وليس هناك أغرب من تلك المفاتن والنشوات التى كنت أستشعرها عند كل ملاحظة أقوم بها فيما يتصل بالتركيب والتنظيم النباتى وفيما يتصل بدور الاعضاء الجنسية فى التلقيح الذى كان نظامه اذ ذاك جديدا تماما بالنسبة الى ، وكانت التفرقة بين المميزات النوعية التى لم يكن لدى من قبل أدنى فكرة عنها تستحوذ على مشاعرى عند تطبيقها على الانواع الشائعة وأنا أتوقع بأن تعرض لى أنواع أكثر ندرة .

وكان الشق الموجود فى نصلى Brunelle القلاع البرى الطويلين وبروز نصال *Ortie* اللسيح ( القريص . ابرة العجوز ) وحشيشة الزجاج *Pariétaire* ( حشيشة الرمل ) وتفتح ثمرة البهاء البلسمينة ( النعناع الرومى ) *Balsamine* وجوزة البقس والى حيلة للتلقيح كنت ألحظها لأول مرة فتفعمنى سرورا . وكنت أذهب لاتساءل ان كان الناس قد شهدوا القلاع البرى Brunelle كما كان يسألهم «لافونتين»

(١) ديڤرنوا D'Ivernois جان انتوان (١٧٠٣ - ١٧٦٥) هو طبيب كان أول من

تلقى روسو على يديه الميل الى دراسة النبات .

(٢) عمل روسو تصنيفا للازهار التى تثبت فوق الصخور فى الجزيرة .

(٣) كتاب نظام التقسيم الطبيعى للنباتات *Systema naturae* هو من تأليف عالم

النبات السويدى لينيه Linné ( ١٧٠٧ - ١٧٧٨ ) نشر الكتاب عام ١٧٣٥ ،

وكان روسو معجبا به .

La Fontaine ان كانوا قد قرءوا « حبقوق » (١) Habacuc

وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات كنت أعود من هناك محملا بمحصول وفير هو زادى من التسلية بعد الغداء بالمنزل فيما لو أمطرت السماء . وكنت أقضى بقية فترة الصباح فى الذهاب مع المحصل وزوجه ومعنا تيريز ، لزيارة عمالهما ومحصولاتهما وكثيرا ما كنت اسهم فى العمل معهم بل وكثيرا ما وجدنى بعض أهالى « برن » الذين كانوا يأتون لرؤيتى معتليا أشجارا كبيرة وقد شد الى وسطى كيس كنت أملؤه بالفاكهة ثم أدليه الى الأرض بعد ذلك بواسطة حبل . وكان العمل الذى أقوم به فى الصباح ، والانشراح الذى يصحبه ، يجعلان الاستراحة عقب الغداء ممتعة جدا . ولكن حين كان الأمر يطول كثيرا بسبب اغراء الجو الجميل لم أكن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، وبينما كانوا لا يزالون جلوسا الى المائدة كنت أتسلل وحدى لألقى بنفسى فى قارب أقوده الى وسط البحيرة ، حين يكون الماء ساكنا ، وهناك ، وأنا مستلق بجسمى كله فى القارب وعيناي متجهتان الى السماء ، كنت أدع نفسى أروح وأجىء مع التيار وفق هواء ، وكان ذلك يمتد أحيانا لساعات كثيرة أظل خلالها مستغرقا فى ألف حلم من أحلام اليقظة المبهمة ، الممتعة مع ذلك ، التى كانت فى رأى أفضل مائة مرة من كل ما لقيته من أحلى المتع فيما يطلقون عليه مباحج الحياة وان لم يكن لها موضوع محدد أو ثابت . وكثيرا ما نهينى غروب الشمس أن قد آذن وقت عودتى فأراني وقد بعدت كثيرا عن الجزيرة مضطرا الى أن أسعى جاهدا للوصول قبل أن يرخى الليل سدوله . وكنت فى مرات أخرى أجد لذة فى محاذاة شطآن الجزيرة الخضراء التى كثيرا ما أغرتنى مياهها الصافية وظلها الرطيب بالاستحمام فيها ، وذلك بدلا من أن أوغل فى وسط الماء . ولكن أكثر تنقلاتى البحرية حدوثا كانت الذهاب من الجزيرة الكبرى الى الجزيرة الصغرى ، فأرسو هناك وأقضى بها فترة ما بعد الغداء طورا فى جولات محدودة جدا خلال أشجار الصنقصاف والخوخ والفرزخ ( نوع من الخوخ ) وخلال الشجيرات من كافة الأنواع ، وتارة جالساً فوق قمة كثيب رملى تغطيه الحشائش ( النجيل ) والنمام والزهور بل وجلبان الحية ( السلة ) والبرسنيم التى يبدو أنها كانت قد بذرت عليه من قبل وهى مناسبة تماما لاقامة الارانب

(١) يخطئ روسو فيذكر حبقوق Habacuc وهو نبى له سفر في العهد القديم ، بدلا من باروش Baruch الذى كان لافونتين La Fontaine قد قرأ سفره له فأعجبه وظل بعد ذلك يسأل كل من يصادفه اذا كان قد قرأ ذلك . وهى نكتة أدبية .

التي كان يمكنها أن تتكاثر هناك في أماكن دون أن تخشى شيئا ودون أن تسبب ضرا لشيء . وقد أبديت هذه الفكرة للمحصل الذي طلب أن تستحضر من نيوشاتل أرانب ذكورا وأنانا . وقد توجهنا في مظاهرة كبيرة : زوجته وإحدى أخواته وأنا لنضعها في الجزيرة الصغيرة حيث بدأت تعمرها قبل رحيلي وحيث كان من الممكن أن تتكاثر بغير شك لو انها استطاعت احتمال قسوة الشتاء . ولقد كان تأسيس تلك المستعمرة الصغيرة عيـدا . ولم يكن قبطان الارجننوت (١) Argonautes بأكثر منى فخرا وأنا أقود منتصرا الجماعة والأرانب من الجزيرة الكبرى الى الجزيرة الصغرى . وكنت ألحظ في خيلاء أن زوجة المحصل التي كانت تخشى الماء الى أبعد حد وتحس بتأثير دواره عليها دائما ، قد أبحرت تحت قيادتي في ثقة ، ولم تظهر أى خوف أثناء الرحلة . أما حين كان يضطرب ماء البحيرة بحيث لايسمح لي بالملاحظة، فاننى كنت أقضى فترة مابعدالظهيرية في التجول بالجزيرة ألتقط الاعشاب من يمين ومن شمال جالسا طورا فى النواحي الأكثر بهجة المعنة فى العزلة لأطلق فيها أحلامي كما يحلو لى ، وتارة فوق القلاع والقمم لأجول بعينى فى المناظر الرائعة الخلابة للبحيرة وشطآنها التي تتوجهها من ناحية الجبال القريبة والتي تتفرج من ناحية أخرى على سهول غنية خصبة ، يستطيع البصر أن ينطلق خلالها حتى الجبال البعيدة التي تحدها والتي يميل لونها الى الزرقة .

وحين يقترب المساء كنت أهبط من فنن مرتفعات الجزيرة ، وأذهب راضيا للجلوس على حافة البحيرة ، على الحصى ، فى أى ملاذ خبيء ، وهناك كان هدير الأمواج واضطراب الماء وهما يهدئان من نائرة حواسى ويطردان من نفسى أى اضطراب آخر ، يغرقانها فى حلم لذيذ ، كثيرا ماكان الليل يدهمنى خلاله دون أن أنتبه الى ذلك . وكان مد الماء وجزره ، وخريره المتصل ، الذى كان يعلو فى فترات متقطعة ، ويصك مسمعى ويبهـر عيني دون توقف ويزيدان من الانفعالات الداخلية التي كان من دأب حلم اليقظة أن يخمدها فى نفسى ، ويكفيان لاشعارى بلذة وجودى دون أن أحس عناء التفكير . وكان يومض من آن لآخر خاطر باهت خاطف حول عدم استقرار أمور هذا العالم الذى كان سطح الماء يعكس صورته لى . ولكن سرعان ما كانت تتلاشى تلك الانطباعات الخفيفة فى الحركة الرتيبة المتصلة التي كانت تهدهدنى ، والتي كانت دون أن تتجاوب معها روحى

(١) الارجننوت Les Argonautes من أبطال الاساطير اليونانية الذين يزعم أنهم كانوا اِخمين من الإبطال تحت قيادة جازون Jason خرجوا في غزوة وعادوا منها منتصحين



- تقيدنى اليها لدرجة أنه حين كانت تدعونى الساعة والعلامة المتفق عليها لا أستطيع أن أنتزع نفسى من هناك دون مشقة .

أما بعد العشاء ، وحين تكون الأمسية جميلة فكنا نذهب كلنا سويا لنقوم بجولة على المرتفع كى نستنشق هواء البحيرة والنسيم العليل ، وكنا نستريح فى الفضاء ، ونضحك ، ونتحدث ، ونغنى أغنية قديمة تفوق الأغانى الحديثة المعقدة ثم نذهب أخيرا لننام ، راضين عن يومنا ، لانرغب الا فى أن يصبح الغد على غراره .

وعلى هذا المنوال ، بغض النظر عن الزيارات المفاجئة الثقيلة ، قضيت وقتى فى هذه الجزيرة خلال اقامتى بها . والآن فليقل لى الناس ما فى ذلك من أشياء جذابة تثير فى قلبى تلك الحسرات العميقة الرقيقة المقيمة ، حتى أننى بعد خمسة عشر عاما ، لا يزال من المستحيل أن أفكر فى تلك الدار الحبيبة دون أن أستشعر كل مرة أننى انتقلت اليها مرة أخرى على أجنحة الرغبة .

وقد لاحظت خلال مراحل حياة طويلة أن الفترات التى تزخر بأحلى ما فى الحياة من متع وأبلغ ما فيها من مسرات ليست مع ذلك هى التى تجذبنى ذكراها وتؤثر فى نفسى أبلغ الأثر .

فهذه اللحظات القصار من الهذيان والانفعال بكل ما فيها من قوة ليست مع ذلك ، وبهذه القوة نفسها ، سوى نقط تنتشر جلية على خط الحياة . انها لشديدة الندرة والسرعة بحيث لا تستطيع أن تنشئ حالة ما ، أما السعادة التى يأسى عليها قلبى فليس قوامها مطلقا لحظات عابرة وانما هى حالة بسيطة ودائمة ليس لها فى ذاتها أية حيوية ولكن استمرارها يزيد فى سحرها حتى لأجد فيها فى نهاية الامر السعادة العظمى .

لكل شئ فى هذه الدنيا دورته ، وليس بها من شئ يحتفظ بصورة مستمرة ثابتة . ان مشاعرنا المتعلقة بالأمور الخارجية لا بد وأن تنقضى وتتغير مثلها - وهى قائمة دائما - من أمامنا ومن ورائنا تذكرنا بالماضى الذى انقضى أو تنبئنا بالمستقبل الذى ليست هناك غالبا من ضرورة لوجوده ، فليس بها من ثبات يستطيع قلب المرء أن يتعلق به ، وليس لنا فى هذه الحياة ، على ذلك ، سوى لذة تنقضى أما السعادة التى تدوم فاننى أشك فى أن تكون معروفة فيها ، ولا تكاد توجد - ونحن فى أوج متعتنا - لحظة يستطيع القلب أن يقول لنا بحق « وددت لو أن هذه اللحظة ظلت أبدا ! »

وكيف يستطيع المرء أن يسمى سعادة ، حالة عابرة تخلفنا والقلب لا يزال  
قلقا فارغا ، فتجعلنا نتحسر على شيء انقضى أو نظل نشتهي هذا الشيء  
فيما بعد .

ولكن ان كانت هناك حالة تجد النفس معها مستقرا وطيدا تستطيع  
أن تتركز عليه بكليتها وتجمع فيه شتات كيائها دون أن تحس بحاجة  
لتذكر الماضي أو تفكر نحو المستقبل حيث لا يكون للزمن بالنسبة لها  
أى اعتبار وحيث يظل الحاضر قائما دون أن نلاحظ مع ذلك استمراره  
أو أى أثر لتتابعه ودون أن نستشعر مع ذلك ، حرمانا أو استمتاعا ،  
لذة أو ألما ، رغبة أو رهبة ، اللهم إلا الاحساس بوجودنا وبأن هذا الاحساس  
وحده يستطيع أن يملأ هذا الوجود كله . وما دامت تلك الحال قائمة  
فان صاحبها يستطيع أن يسمى نفسه سعيدا : لا سعادة منقوصة ضئيلة  
ونسبية كتلك التى تصحب مباحج الحياة ، ولكن سعادة كافية مكتملة  
مطلقة لا تترك أى فراغ فى النفس يمكن أن تحس حاجتها الى ملئه . تلك  
هى الحال التى كثيرا ما وجدتني عليها فى جزيرة سان بيير خلال أحلام  
عزلتى سواء كنت مستلقيا فى قاربي الذى كنت أدعه يسير وفق هوى  
التيار أو جالسا على ضفاف البحيرة المضطربة ، وسواء أكنت فى مكان  
آخر على حافة نهر جميل أو جدول يهدر على الحصباء .

بم يستمتع المرء فى مثل تلك الحال ؟ بلا شيء خارج ذاته وبلا شيء  
اللهم الا ذاته وكيانه الشخصى وما دامت تلك الحال قائمة فان المرء يكتفى  
بنفسه شأنه فى هذا شأن الله . ان الاحساس بالموجود مجردا من كل عاطفة  
أخرى هو فى حد ذاته احتساس قيم بالقناعة والسلام يكفى وحده ليجعل  
من هذا الوجود شيئا محببا حلوا يستطيع عن طريقه أن ينأى بنفسه  
عن كل المشاعر الحسية الدنيا التى لا تفتأ تلهينا عنه وتفسد علينا  
حلاوته . ولكن أغلب الناس الذين تستثيرهم شهوات مستمرة لا يدركون  
تلك الحال الا قليلا ، وما داموا لم يتذوقوها الا جزئيا فى لحظات قليلة  
فانهم لا يحتفظون منها سوى بفكرة غامضة مضطربة المعالم لا تدعهم  
يحسون سحرها . بل انه قد لا يكون من الخير فى شيء - والامور على  
ما هى عليه - أن ينفروا بتلهمهم على تلك النشوة الحلوة ، من الحياة  
العاملة التى تملى واجبهم نحوها ضروراتها المتجددة دائما . ولكن امرا  
سييء الطالع أقصى من المجتمع ولا يسعه أن يقدم هنا على أمر فيه نفع  
أو خير للآخرين أو لنفسه ، يستطيع أن يجد فى مثل هذه الحال تعويضا  
عما يستمتع به الناس ، مما لا يمكن القدر والبشر أن يسلبوه اياه .

والحق أن ذلك التعويض لا تستطيع أن تحس به كل النفوس أو بتوافر في كل الاحوال فمن الضروري أن يكون القلب في سلام وألا تعكر صفو هدوئه أية عاطفة ، ومن الضروري أن يكون هناك استعداد لدى الشخص الذى يحس به وهو استعداد ضرورى كذلك عندما تتزاحم الأمور من حوله . ولا يستلزم ذلك راحة مطلقة أو اضطرابا زائدا. ولكن حركة رتيبة معتدلة لا تكنفها هزات أو فترات ركود . ان الحياة ليست سوى سبات ان خلت من الحركة . أما ان تفاوتت الحركة أو اشستدت فانها توقظ ، وهى حين تنبهنا الى الأمور من حولنا تهدم سحر الحلم وتتزعنا من صميم أنفسنا لتضعنا فورا تحت وطأة القدر والبشر وتسلمنا الى الاحساس بشقوتنا . ان السكون المطلق يسلم للحزن . انه يعرض صورة الموت . واذن فعون الخيال الباسم أمر ضرورى وهو يعرض بصورة طبيعية لأولئك الذين تنعم عليهم السماء به . ان الحركة التى لا تأتى من الخارج تعتمل اذن فى داخل نفوسنا . حقا ان الراحة أقل ، ولكنها كذلك ، أشد امتاعا حين تلامس - كما يقال - خواطر خفيفة حلوة صفحة النفس دون أن تثير أعماقها . ولا يلزم منها الا ما يكفي ليتذكر الانسان نفسه متناسيا آلامه ، جميعا ، وهذا النوع من الاحلام يستطاع تذوقه حيثما يمكن أن يكون المرء هائنا وطالما فكرت فى أننى فى « الباستيل » بل وفى « زنزانه » لا ترى عينى فيها شيئا ، كان يمكننى مع ذلك أن أستغرق فى أحلام جميلة .

ولكن يجب أن أعترف بأن هذا كان يحدث على صورة خير من هذه وأفضل فى جزيرة خصبة منعزلة لها حدودها الطبيعية ومنفصلة عن بقية العالم حيث لا تعرض لى الا صور ضاحكة ، وحيث لا شئ يجعلنى أستعيد ذكريات محزنة ، وحيث كان المجتمع المكون من عدد قليل من السكان متألفا طبيبا دون أن يكون ذا شأن لدرجة يجعلنى أشغل باستمرار ، وحيث كان يمكننى أخيرا أن أستسلم طيلة اليوم دون ما عقبة أو شاغل لأعمال تتفق ومزاجى ، أو الى فراغ مترف . لقد كانت الفرصة مواتية من غير شك لحالم ، عرف كيف يتزود بأوهام حلوة وسط أشياء أشد تنفيرا فاستطاع أن يرتوى منها كما يحلو له وذلك باستجماعه كل ما أثر على حواسه فعلا . وكنت بعد أن أخرج من حلم طويل جميل وأشهد نفسى محاطا بالخضرة والزهور والطيور سارحا بنظرى بعيدا فى الشيطان الخيالية التى تحف امتداد المياه الشاسعة الصافية المتلألئة كنت أغذى خيالاتى بكل تلك الأشياء المحببة . حين أرانى فى نهاية الامر أرجع تدريجيا الى نفسى والى ما يحيط بى لم أكن أستطيع أن أميز الحد الفاصل

بين الخيال والحقيقة ما دامت تسهم جميعا كذلك فى أن ترفع من قيمة الحياة الانطوائية المنعزلة التى كنت أحيها خلال تلك الاقامة الجميلة ألا لييتها تبعث من جديد ! ألا ليتنى أستطيع أن أقضى آخر أيامى فى تلك الجزيرة الحبيبة دون أن أبرحها أبدا أو دون أن أشهد بها البتة ايا من سكان القارة يستطيع أن يعيد الى ذكرى الكوارث من كل نوع التى طالما راق لهم أن يهيلوها على منذ أعوام كثيرة ! اننى بذلك سرعان ما كنت أنساهم الى الأبد ، ولكن ليس من شك فى أنهم ما كانوا لينسونى . ولكن ماذا كان يهمنى ما داموا لن يجدوا سبيلا لاقلاق راحتى ؟ اننى وقد تخلصت من كل شهوات الدنيا التى هى وليدة صخب الحياة الاجتماعية سوف تتسامى روحى مزارا متخطية ذلك الجو وتتصل سلفا بالادراك العلوى الذى تأمل فى الاستزادة منه فى مدى قصير . واننى لأعلم أن الناس سوف يحولون دون أن أستمتع بمثل هذا الملاذ الهنىء الذى لم يشاءوا أن يدعونى فيه . ولكنهم لن يمنعونى على الأقل من أن أنتقل اليه يوميا على أجنحة الخيال ، ومن أن أتذوق فيه مدى بضع ساعات نفس اللذة كما لو كنت لا أزال أقيم به . وان أمتع ما كنت أفعله هناك هو أن أحلم كما يروق لى . أو لست أفعل نفس الشيء حين أحلم بأننى هناك ؟ بلى اننى أفعل أكثر من ذلك . اننى حين يجذبنى حلم معنوى يسير على وتيرة واحدة أردف له صورا رائعة تبعث فيه الحياة ، وغالبا ما كانت موضوعاتها تنفلت من حواسى أثناء انتشائى . أما الآن فكلما ازداد حلم يقظتى عمقا . . صورها لى بحيوية أكثر ، واننى غالبا ما أحس بنفسى محوطا بها مستمتعا بلذة أكبر مما عليه عندما كنت هناك فى الواقع ، والمؤسف فى الأمر أنه كلما فتر الخيال كان ذلك يتأتى فى جهد أشد ولا يستغرق طويلا . واأسفاه ! ان المرء ليشعر أنه أكثر ما يكون رزوحا بجسده حين يشرع فى التجرد منه !

## الجولة السادسة

ليست هناك أية حركة آلية لا نستطيع أن نجد لها تعليلا في قلبنا  
إذا ما نحن عرفنا كيف نتغلغل فيه بحثا عن ذلك التعليل .

بالأمس أثناء مروري بالطريق الجديد ذاهبا للاستعشاب على ضفة  
« البييفر » Bièvre في ناحية جنتيبي Gentilly أنعطف يمينا مقتربا  
من سور دانفير d'Enfer وعندما توغلت مبعدا في الحقول توجهت عن طريق  
« فونتنبلو » Fontainebleau كى أصل الى المرتفعات التى تجاور ذلك  
النهر . ولم يكن ذلك المسير ليعنى شيئا بالمرة في حد ذاته ، ولكن حين  
تذكرت أنى قمت بنفس الدورة تلقائيا مرارا من قبل فقد بحثت عن  
الدافع عن ذلك في نفسى ، ولم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك بعد  
أن تبينته .

فى ركن من الطريق ، عند مخرج سور دانفير D'Enfer تقف  
يوميا فى فصل الصيف امرأة تبيع الاعشاب الطبية tisane  
وأرغفة الخبز الممتاز ولهذه المرأة ولد صغير لطيف جدا لكنه أعرج يروح  
يلتمس الاحسان من المارة بشيء من الظرف وهو يتعارج على مكازيه .  
وكان لى بهذا الغلام الصغير بعض المعرفة . ولم يكن يفوته كلما مرت به  
أن يتقدم ليحيينى تحيته البسيطة التى كانت تتلوها دائما هبتى الصغيرة  
وقد سرتنى رؤيته فى المرات الأولى فكنت أمنحه بارتياح كبير ، وظلمت  
أفعل ذلك بعض الوقت بنفس السرور بل فان يلد لى الى جانب ذلك فى  
أغلب الأحيان أن أدفعه الى ثرثرته الصغيرة التى كانت تروقنى .

وقد تحولت - ولست أدرى كيف تحولت - هذه المتعة التى بادت  
عادة بالتدرج الى نوع من الواجب ما لبثت أن أحسست بالضيق منه ،  
وخاصة بسبب تلك الخطبة الافتتاحية التى كان لابد من الاستماع إليها ،  
والتى لم يكن يفوته أبدا أن يدعونى فيها بالسيد روسو ليظهر أنه كان  
يعرفنى معرفة كافية ، مما كان يجعلنى على العكس من ذلك أدرك أنه لم  
يكن يعرفنى أكثر ممن لقنوه ذلك . ومنذ ذلك الحين كنت أمر من هناك

أقل رغبة ، وأخيرا اعتدت تلقائيا أن أنعطف في أغلب الاحايين حين كنت أقترب من ذلك الحاجز . ذلك ما اكتشفته وأنا أمعن الفكر فيه لأنه لم يكن قد عرض لذهنى بوضوح شيء من هذا كله حتى ذلك الوقت . وقد ذكرتني تلك الملاحظة على التوالي بكثيرات أخر أيدت لى تماما أن الدوافع الحقيقية الأولى لمعظم تصرفاتى لم تكن كذلك واضحة بالنسبة لى كما تصورتها طويلا . اننى أعرف وأدرك أن عمل الخير هو أقصى مراحل السعادة الحقة التى يستطيع أن يتذوقها القلب البشرى . ولكن مر دهر طويل منذ أن بوعد بين تلك السعادة وبينى ، ولا يستطيع من له مثل حظى المنكود أن يأمل فى أن يفيد مختارا موفقا من عمل واحد طيب حقا . ومادام قصارى جهد أولئك الذين يرسمون خطوط قدرى ألا يكون لى الا المظهر الباطل الخداع فإن حافظا الى الفضيلة لم يكن مطلقا سوى خدعة تقدم لى لاجتذابى نحو فتح يراد اطاقه على . اننى أدرك ذلك ، اننى أدرك أن الخير الوحيد الذى هو فى مقدورى منذ الآن هو أن امتنع عن العمل خشية أن أسىء دون قصد ودون دراية .

ولكن كانت هناك فترات أكثر سعادة كنت أستطيع خلالها أحيانا – مستجيبا الى خلجات قلبى – أن أدخل السرور الى قلب آخر ، وانى لأدين لنفسى بالشهادة المشرفة وهى أنه فى كل مرة استطعت أن أتذوق هذه المتعة وجدتها أعذب من أى متعة أخرى . كان هذا الميل قويا وصادقا وطاهرا ، ولم يحدث البتة أن نقصه شيء فى أعماق كوامن نفسى ، ومع ذلك فغالبا ما أحسست بثقل أعمالى الخيرة بسبب سلسلة الواجبات التى كانت تستتبعها ، ومن ثم فقد اختفت المتعة ولم أجد فى استمرار الرعاية نفسها – التى كانت تفتننى فى أول الأمر – سوى ضيق يكاد يكون غير محتمل . كان كثير من الناس يلجأون الى خلال أيام رخائى القصيرة ، ولم يحدث أبدا فى كل الخدمات التى استطعت أداءها لهم أن صدت أيا منهم ولكن على أثر تلك الحسنات التى كنت أسديها بانشرح كانت تنشأ سلسلة التزامات متتابعة لم أكن أتوقعها ولم أعد أستطيع التخلص من نيرها . لم تكن خدماتى الأولى فى نظر أولئك الذين كانت تسدى اليهم سوى عربون لما يجب أن يتلوهها من خدمات ، وما ان كان يتسلط على يائس ما من أجل معروف أسدى اليه حتى ينتهى أمره عندئذ ، وتصبح هذه الحسنة الأولى – الخالصة الصادرة عن طواعية – حقا مطلقا لكل من يحتمل أن يحس الحاجة اليها فيما بعد دون أن يكفى لاعفائى منه ، حتى عدم القدرة على أدائه . وهكذا كانت متع بالغة الروعة تستحيل بالنسبة الى الى استعباد فادح فيما بعد .

ومع ذلك فلم تبد لى تلك القيسود ثقيلة جدا ، فطالما كان الناس يجعلوننى كنت أعيش مغمورا ، ولكن ما أن اعلنت كتاباتى عن شخصى - وهو خطأ خطير ما فى ذلك من شك ، ولو أن رزاياى قد كفرت عنه وأكثر - حتى أصبحت منذ ذلك الوقت المكتب العام الذى يرأسه المعوزون ، أو من يزعمون أنهم كذلك ، والمغامرون الذين يبحثون عن مغفلين ، وكل من يرغبون فى فرض سلطانهم على بوسيلة أو بأخرى تحت ستار الثقة الكبيرة التى كانوا يتظاهرون بأنهم يولوننى اياها . اذ ذاك أمكنتنى أن أدرك أن كل ميول للطبيعة - دون أن يستثنى منها عمل الخير نفسه - وسواء انطوت عليها جوانح أصحابها أو هم أتبعوها فى المجتمع دون حذر . وكما اتفق ، فانها تتغير فى طبيعتها بل غالبا ما تصبح ضارة بقدر ما كانت نافعة فى وجهتها الأولى ، كم من تجارب قاسية غيرت شيئا فشيئا من استعداداتى الاولى ، أو بالأحرى ، علمتنى ، وهى تحتجزها فى نهاية الأمر داخل حدودها الحقيقية ، أن أتبع - بعدم تبصر أقل - ميلي لعجل الخير حين لا يكون من شأنه سوى اذكاء روح الشر عند الآخرين .

ولكننى لا آسف مطلقا على تلك التجارب نفسها ما دامت قد زودتنى عن طريق التفكير ، بأضواء جديدة من أجل معرفتى بذاتى وبالذوايق الحقيقية لسلوكى فى ألف من الملابس التى كثيرا ما خدعت فيها . ولقد وجدت أنه - لكى أستمتع باسداء الخير - كان يلزمنى التصرف بحرية دون اكراه ، وأنه ، لكى أسلب كل لذة من وراء عمل طيب كان يكفى أن يصبح هذا العمل التزاما ، ومن ثم كان ثقل الالتزام يغلب أحلى المتع عبثا . وكما قلت فى كتاب ال « اميل » Emile (1) على ما أعتقد ، أنتنى كان من الممكن أن أعد لدى الأتراك زوجا فاشلا حين يدعوهم « المنادى» الى أن يؤدوا واجباتهم كأزواج .

ذلك هو ما يعدل كثيرا الراى الذى كونته منذ زمن بعيد عن فضائل الشخصية لأنه ليس من الفضيلة فى شىء أن ينساق المرء وراء ميوله ، وأن يتفانى فى الخير عندما تدفعنا هذه الميول الى ذلك . ولكن تلك الفضيلة تمكن فى التغلب عليها حين يتطلب الواجب ذلك لنؤدى ما يملية علينا ، وهذا هو أقل ما استطعت عمله كرجل مجتمع . اننى وقد ولدت حساسا طيبا ، تنطوى نفسى على الرحمة الى حد الضعيف ، وأستشعر انتشاء

لم يقل روسو ذلك فى اميل Emile « ولكن فى « الاعترافات Les Confessions » عند الحديث عن آنسة من الراهبات كان يعطيها دروسا فى الموسيقى . واما هذا القول الذى لا أساس له من الصحة اطلاقا فهو يدل على جهل فاضح من روسو بتعاليم الديانة الاسلامية .

الروح بكل ما يتصل بالكريم ، غدوت انسانا خيرا ، معيننا للناس ، عن ميل ، بل وعن شعف ، ما دام الأمر لا يهم سوى قلبي . وقد كنت أصبح خير الناس وأكثرهم رحمة إذا ما قدر لي أن أكون أقواهم . ولكي أخدم في نفس كل رغبة في الانتقام ، كان يكفيني أنني أستطيع أن أنتقم . وكان من الجائز أن أكون عادلا كذلك بغير عناء ، وإن تعارض ذلك مع مصلحتي الخاصة ولكنني لم أكن لأستطيع أن أقنع نفسي بأن أكون كذلك ضد مصلحة من كنت أعدهم أعزاء علي . وحين كان يتعارض واجبي مع قلبي فانه نادرا ما كانت تكتب الغلبة للأول اللهم الا اذا كان الأمر لا يتطلب سوى الامتناع من جانبى ، وعندئذ ، أكون قويا في أغلب الأحيان . وأما التصرف ضد ميلي فكان مستحيلا دائما بالنسبة لي . وسواء كان الأمر صادرا عن الناس أو الواجب أو الضرورة حين يصمت قلبي ، فان ارادتي تظل صماء ولا أعود قادرا على الطاعة . اننى أرى الشر الذى يتهددنى ، وأدعه يأخذ طريقه الى بدلا من أن أتحرك لتوقيه ، واننى لأبدأ أحيانا في جهد ، ولكن هذا الجهد يرهقنى ويستنزف قواى بسرعة فائقة فلا أقوى على الاستمرار . وفى كل ما يتصوره العقل يستحيل على أداء ما لا أجد متعة فى القيام به .

وهناك ما هو أكثر من ذلك : فالأكراه ، وان اتفق مع رغبتى ، كفيل بالقضاء عليها وتحويلها الى نفور ، بل والى اشمئزاز مهما كان تجاوزه لحد العنف ضئيلا . وهذا هو ما يجعل العمل الطيب الذى يقوم به الانسان أمرا شاقا ، وهو ما كنت أؤديه طواعية حين لم يكن يفرضه أحد . ان عملا خيرا بغير مقابل مطلقا هو بالتأكيد عمل أرحب بأدائه ، ولكن حين يتخذ صاحب هذا العمل منه سندا كى يفرض استمراره والا تعرضت لكرهائته ، وحين يلزمنى أن أكون صاحب فضل عليه الى الأبد لأننى وجدت لذة فى ذلك فى أول الأمر ، حينئذ يبدأ الضيق وتلاشى اللذة ، ويكون ما أفعله حين أستسلم ، ضعفا وعارا كريها ، لا مكان فيه من بعد للرغبة الصادقة ، وبدلا من أن أتهلل لما أفعل أعتب على نفسى فى سريرتى لأننى فعلت الخير مكرها .

اننى أدرك أن هناك نوعا من العقود ، بل هو أكثرها قداسة : وهو المبرم بين المحسن وبين المحسن اليه ، وهو نوع من أنواع الشركة يكونها الأول مع الثانى ، أشد أحكاما مما يربط بين الافراد عامة ، ولئن التزم المحسن اليه ضمنا بالإعتراف بالجميل فان المحسن يلتزم كذلك بأن يحفظ للآخر - طالما هو لا يبدو غير أهل له - نفس الرغبة الصادقة التى سبق أن أبدأها نحوه ، وأن يجدد له نفس الافعال فى كل المرات التى



يستطيع فيها ذلك والتي يطلب منه أداؤها . وهذه ليست شروطا صريحة، ولكنها آثار طبيعية للصلة التي قامت بينهما . وان من يرفض للمرة الأولى أن يسدى خدمة يطلب اليه أداؤها بغير مقابل لا يخول حق الشكوى لمن رفض أن تسدى اليه ، ولكن من يأبى في حالة مشابهة أن يتفضل على نفس الشخص بمثل ما تفضل عليه به من قبل فهو يخيب اذا أهلا سمح له أن يراوده بل هو يخلف ويخيب أمنية ولدها في نفسه . ان المرء ليحس في هذا الرفض شيئا من الظلم بل من الامعان في القسوة أكثر مما في الآخر ، ولكنه مع ذلك ليس الا نتيجة استقلال يحبه القلب ولا يستطيع أن يتنازل عنه بغير جهد . اننى حين أرد دينا فان هذا واجب أؤديه ، وحين أعطى منحة فانما هي متعة أوفرها لنفسي ، واذن فالنتيجة في أداء المرء لواجباته هي من تلك المتع التي يبعثها الاعتياد وحده لممارسة الفضيلة، أما تلك التي تأتينا من الطبيعة مباشرة فلا تتسامى الى ذلك الحد .

لقد تعلمت بعد تلك التجارب المريرة أن أتبصر من بعيد عواقب استجابتي لنزعاتي الأولى وغالبا ما امتنعت عن أداء عمل خير كنت أحس رغبتى فيه وقدرتى على أدائه متخوفا مما سوف يرفضه على من سلطان ان أنا استسلمت اليه بغير روية . ولم أستشعر تلك الرهبة دائما بل على العكس من ذلك كنت أتعلق في شبابي بأعمال الحيرة وغالبا ما كنت أحس كذلك أن أولئك الذين كنت أسدى اليهم معروفا انما كانوا يتعلقون بشخصي عرفانا بالجميل أكثر منه سعيا وراء مصلحة . ولكن الامور قد تغير وجهها تماما في هذه الناحية ، كما في غيرها ، بمجرد أن بدأت المصائب تجل بي ، وقد عشت منذ ذلك الوقت في حقبة جديدة لا تشابه الاولى في شيء ، وقد اعترت مشاعري تجاه الآخرين تغيرات وجدت صداها لديهم . ان نفس الاشخاص الذين لقيتهم على التوالي في هذين الجيلين ، على اختلافهما ، قد تشابهوا جدا - على حد القول - ببعضهم البعض على التوالي كذلك ، فمن صادقين مخلصين كما كانوا في اول الأمر أصبحوا ما هم عليه الآن ، شأنهم في ذلك شأن الآخرين جميعا . وفي هذا وحده تغير الزمن ، وتغير الناس كما تغير ٠٠٠ ايه ٠٠ كيف أستطيع أن أحتفظ بنفس المشاعر نحو أولئك الذين لقيت فيهم عكس ما ولد تلك المشاعر ٠٠٠ اننى لا أكرههم قط لأننى لا أعرف كيف أكره ٠٠٠ ولكننى لا أستطيع منع نفسى من الاحتقار الذى يستحقونه ولا ان أردنا عن اظهاره لهم .

ربما - دون أن ألاحظ ذلك - تغيرت أنا نفسى أكثر مما يجب : وائى

طبع يستطيع أن يثبت دون أن يتغير وهو يمر بحالة مثل حالتى ؟ اننى ، وقد اقتنعتنى عشرون سنة (1) من التجربة بأن ما غرسته الطبيعية فى قلبى من استعدادات طيبة قد تحول - بسبب ما خط لى فى لوح القدر وبسبب من يتحكمون فى - الى اضرار بنفسى أو بالغير ، لم أعد أستطيع أن أنظر الى أى عمل خير يعرض على أداءه الا كشرى ينصب لى ويخفى تحته شرا ما . واننى لأدرك أنه مهما يكن أثر العمل فان جزائى عن نيتى الطيبة لن يكون أقل . أجل . . ان هذا الجزاء قائم هناك دائما من غير شك ولكن السحر الكامن فيه لم يعد موجودا . وما ان ينقض ذلك الحافز حتى استشعر عدم المبالاة والبرودة فى داخل نفسى ، وحين يتأكد لى اننى بدلا من أن أقوم بعمل نافع حقا لم أفعل سوى ما يفعله كل مغفل فان ثورة الكرامة - مضاعفا الى انكار العقل - لا تبعث فى الا نفورا وعنادا حيث كان من المحتمل أن أكون ممثلا حمية وحماسا فى حالتى الطبيعية .

هناك ألوان من المحن تسمو بالروح وتقويها ، ولكن من بينها كذلك ما يحطها ويقضى عليها ، كتلك التى أنا فريسة لها . فهما يكن قليلا ما فى محنتى من خميرة فاسدة فان هذا القدر كان كفيلا بأن يجعلها تختمر الى أقصى حد فتتهيجنى ، ولكنها لم تجعل منى الا عدما ، واننى لأمتنع عن التصرف حين لا أستطيع أن أقدم خيرا لنفسى أو للآخرين ، وتلك الحال التى لا تستمد براءتها الا من كونها اضطرارية ، تجعلنى أحس شبيها من الارتياح فى الاستسلام كلية ، دون لوم ليلى الطبيعى ، ولا شك فى اننى أذهب بعيدا جدا ما دمت أتحاشى فرص التصرف حتى حيث لا أرى سوى خير يستطيع أداءه ، ولكننى ، وقد ثبت لى أن الناس لا يدعوننى أرى الأمور كما هى عليه ، فاننى أمتنع عن الحكم بالظواهر التى يصفونها على تلك الامور . ومهما يكن الزيف الذى يحجب دوافع التصرف فانه يكفى أن تكون هذه الدوافع فى متناول يدى حتى أتأكد من أنهم مخادعون .

ويبدو قدرى وكأنما نصب لى منذ طفولتى الشرك الأول الذى يسر لفترة طويلة وقوعى فى الشرك الأخرى جميعا . لقد ولدت وأنا أشهد الناس ثقة ، ولم يحدث مدى أربعين حولا كاملا أن غرر بتلك الثقة مرة واحدة ، أما وقد ألقى بى فجأة بين طراز آخر من الناس ومن الامور فقد سقطت فى ألف كمين دون أن ألحظ مطلقا من بينها واحدا ، وكانت عشرون عاما من التجربة تكفى بالتأكيد لتلقى الاضواء على مصيرى . وما أن اقتنعت أن ليس وراء اسرافهم فى منافقتى سوى كذب وزيف ، حتى تحولت سريرا

(1) يشير روسو هنا الى خصامه مع ديدرو عام 1757 .

الى النقيض ذلك لأنه ما أن يخرج المرء عن طبيعته حتى لا تعود هناك حدود تعوقنا . ومنذ ذلك الوقت أشمأزت نفسى من الناس ، وأما إرادتى التى تتنافس وارادتهم فى هذا المضمار فأتها لا تزال تقف بى بعيدا عنهم أكثر مما تفعل حيلهم جميعا .

ومهما يفعلوا فلن يستطيع هذا النفور أبدا أن يبلغ حد الكراهية . اننى حين أفكر فى التبعية التى وضعوا أنفسهم فيها بالنسبة لى مستهدفين أن تكون حالى بالنسبة لهم كذلك . فانهم بهذا يستدرون شفقتى الحقة . ولئن لم أكن تعسا فانهم لكذلك ، وفى كل مرة أرجع الى نفسى أجدهم يستحقون الرثاء دائما . ان الزهو قد يخالط كذلك هذه الاحكام ، فاننى لأحس بأننى أسمى منهم حتى أكرههم . ان كل ما يستطيعون على الأكثر أن يثيروه فى نفسى من اهتمام هو احتقارى لهم ، ولكن لن يبلغ ذلك حد الكراهية أبدا . وأخيرا ان حبى لنفسى من القوة بحيث لا أستطيع معه أن أستشعر الكراهية نحو كائن ما والا فاننى أكون كمن يحصر ويضغط كيانه بينا أنا أود لو وسع الكون كله .

اننى أفضل أن أهرب منهم عن أن أكرههم . ذلك لأن مرآهم يثير فى حواسى ، وعن طريقها فى قلبى ، انطباعات تجعلها ألف نظرة قاسية شاقة على نفسى ، ولكن لا يلبث الضيق أن يتوقف بمجرد أن تختفى دواعيه وانى لأشغل نفسى بهم على الرغم منى تماما فى حضورهم ، ولكن ذلك لا يحدث أبدا بتذكرى إياهم ، فعندما لا أراهم يغدون فى نظرى وكأنما لم يكن لهم وجود مطلقا .

انهم لا قيمة لهم كذلك بالنسبة لى الا فيما يتصل بى من أمور ، ذلك أنهم فيما يقوم بينهم من علاقات يستطيعون كذلك أن يثيروا اهتمامى وأن يؤثروا فى كما قد تؤثر فى شخصيات مسرحية أشهدها . لقد كان من الضرورى - كى تكون العدالة غير ذات بال بالنسبة الى - أن يقضى على كيانى المعنوى . ان منظر الظلم والشر لا يزال كذلك يدفع الدم الى الغليان فى عروقى غضبا ، أما الأعمال الصالحة التى لا أرى فيها أثرا للعنف أو المباهاة فأتها تجعلنى دائما أهتز فرحا ، وتنتزع كذلك الدموع الرقيقة من عينى . ومع ذلك ، فانه يجب ان أشهد تلك الافعال وأن أقدرها قدرها بنفسى ، ذلك انه بعد ما حدث لى شخصيا لا بد وأن أغدو مخبولا لأعشق - فى أى أمر من الامور - آراء الناس ولأصدق أى شىء على عهدة الآخرين .

لو أن وجهى وملامحى كانت مجهولة تماما لدى الناس ، كخلقي وطبعى ، إذن لعشت بينهم كذلك فى غير مشقة . ولكن من الجائز أن تروق

لى صـحبتهم ما دمت غريباً عنهم تماما . لقد كنت أحبهم كذلك لو لم يشغلوا أنفسهم بى أن أنا استسلمت دون ضغط ميولى الطبيعية . لقد كنت أسبغ عليهم رعاية شاملة غير مفرضة إطلاقاً ولكن دون أن أنشئ علاقة خاصة ودون أن أخضع لآى التزام ، وكنت أقدم لهم - بكامل حريتى وعن طواعية - كل ما يلقون عناء كبيراً فى تقديمه مدفوعين بأثرهم مكرهين على أدائه بحكم شرائعهم جميعاً .

لو أننى ظللت حراً ، منسياً ، منعزلاً - كما خلقت لأكون - لما فعلت الا خيراً ، ذلك لأنه لىست بقلبى نواة لآى ميل للأذى . ولئن كنت محجوباً قديراً مثل الله لأصبحت خيراً كريماً مثله . ان القوة والحرية هما اللتان تخلقان الرجال الممتازين ، أما الضعف والعبودية فلم يخلقها الا أشراراً . ولو كنت أمك خاتم « جيجيس » (1) Gyges لخلصنى من تبعيتى للناس ولجعلهم تابعين لى . اننى كثيراً ما تساءلت فى « قصورى التى أبنيها على الرمال » فيم كنت أستخدم ذلك الخاتم ، ذلك لأن هنا يكون اغراء اساءة استعماله ممكناً . واذا ما أصبح فى مقدورى أن أشبع رغباتى وأن أقوم بعمل كل شىء دون احتمال أن يخدعنى أحد فماذا كنت أستطيع أن أشتهى بعد ؟ شيئاً واحداً : هو أن أرى القلوب جميعاً راضية . ان مظهر الهناء الشاملة هو وحده الذى كان من الممكن أن يمس قلبى بخنان دائم ، كما أن الرغبة الحائرة فى أن أسهم فى ذلك كانت عاطفتى المقيمة دواماً . ولما كنت عادلاً دائماً بغير تحيز ، خيراً دائماً فى غير ضعف ، فاننى كنت خائفاً أن اجنب نفسى الشكوك العمياء والكراهية المقيتة ، لاننى وقد رأيت الناس على ما هم عليه ، مستطعاً فى سر ما فى أعماق قلوبهم قلما كنت أجد من بينهم من بلغوا من اللطف حداً يستحقون معه كل محبتى ، أو بلغوا من القبح حداً يستحقون معه كراهيتى ، وأن نزعة الشر فيهم ذاتها تهيننى للاشفاق عليهم لمعرفتى الاكيدة بالضر الذى يصنعونه بأنفسهم وهو يودون اصابة الغير به . ربما كنت أستطيع فى لحظات المرح أن أعبت عبثاً صبيانياً فى بعض الاحايين باتيانى أموراً معجزة ، ولكن ، لما كنت لا أستهدف أبداً أية منفعة شخصية وليست هناك من شريعة لى سوى ميولى الطبيعية، فاننى كنت أقوم بألف عمل من أعمال الرحمة والانصاف مقابل بعض الأفعال التى تتسم بالعدالة الصارمة . وكرسول للعناية الالهية وكناشر لقوانينها - على قدر استطاعتى - كنت أقوم بعمل

---

(1) جيجيس Gyges هو راع صغير من لىديا (من اقاليم آسيا الصغرى قديماً) عاش فى القرن السابع قبل الميلاد كان له خاتم سحرى يستطيع بواسطته ان يصبح غير مرئى واستطاع بذلك ان يصل الى العرش وان يؤسس أسرة حاكمة هناك .

معجزات أكثر حكمة وأشيد نفعا من معجزات الاسطورة الذهبية  
Légende dorée (١) وقبر القديس ميدار Saint-Médard (٢) .

ليست هناك سوى ناحية واحدة كان من الممكن أن تدفعني الى  
الدخول ، متخفيا ، الى أى مكان للبحث عن مغريات ربما  
ضعفت مقاومتي ازاها . ولئن دخلت مرة قبي تلك الطرق المضللة فترى  
الى أين تؤدي بي ؟ انه يكون من الجهل المطلق بالطبيعة وبذاتي أن أتغلل  
بان تلك التسهيلات لم تكن لتغريني مطلقا ، أو أن العقل كان يستوقفتني  
عند ذلك المنحدر المشئوم . ومع ثقفتي في نفسي في كل أمر آخر ، إلا  
أننى ضيعت بسبب ذلك وحده . ان من ترتفع به قدرته فوق مستوى  
البشر يجب أن يكون فوق مواطن الضعف الانساني ، والا فان هذا  
الفيض من القوة لن يجدى في الواقع الا في النزول به الى مستوى أدنى  
من مستوى الآخرين ومن المستوى الذى كان من الجائز أن يلتزمه هو  
نفسه ان ظل مساويا لهم .

وبعد أن تممعت جيدا في الأمر كله، فاننى اعتقد اننى أفلح خيرا لو أننى  
ألقيت بخاتمي السحري قبل أن يدفعني الى الاقدام على حماقة ما . ولئن  
كان الناس يصرون على رؤيتي على صورة تخالف تماما ما أنا عليه ، وإذا  
كان مظهرى يثير ظلمهم فمن الواجب التهرب منهم كى أحجب عنهم هذا  
المنظر لا أن أتوارى بينهم . انهم هم الذين يجب أن يختفوا من أمامى  
وأن يحجبوا عنى حيلهم وأن يفروا من ضوء النهار وأن يغوصوا فى الأرض  
كالخلد . وأما بالنسبة لى فلئن رأونى - ان استطاعوا الى ذلك سبيلا -  
كان ذلك خيرا ، ولكن هذا مستحيل بالنسبة لهم فانهم لن يروا أبدا فى  
مكانى سوى الـ « جان جاك » الذى صاغوه لأنفسهم وشكلوه وفق هواهم  
ليكرهوه كما يشاءون ، واذن ، فاننى أكون مخطئا لو أننى تأثرت من  
الطريقة التى يرونى بها ، اذ لا يجب أن أعيرها أى اهتمام حقيقى ، لأننى  
لست أنا من يرونه على هذه الصورة .

ان النتيجة التى أستطيع أن أستخلصها من هذه الخواطر جميعا  
هى اننى لم أكن أبدا خليقا حقا بالمجتمع المتمدين حيث ليس هناك سوى

(١) الاسطورة الذهبية La Légende dorée هى مجموعة ضخمة من حياة القديسين

الفها « جاك دونوراجين Jacques de Voragine » فى القرن الخامس عشر

(٢) يقصد بمقبرة سان ميدار Saint-Médard « المقبرة التى دفن بها الشمس «باريس»

المتوفى فى عام ١٧٢٧ - وكان الباريسيون يتوجهون اليها لاعتقادهم فى امكان شفاء

المرضى عن طريق صاحبها . وقد أغلقت المقبرة بأمر السلطات العامة فى عام ١٧٢٣ .

المرح والالتزام والواجب وأن طبعى الاستقلالى جعلنى عاجزا على النوم  
عن الرضوح اللازم لمن يريد أن يعيش بين الناس . وما دمت أتصرف فى  
حرية فأننى خير لا أفعل الا خيرا . ولكن ما أن أحس بالتسلط : تسلط  
الحاجة أو تسلط الناس ، حتى أغدو متمردا أو بالأحرى ، جموحا : وعندئذ  
أكون لا شىء . حين يكون لزاما على أن أفعل ما يناقض رغبتى فأننى  
لا أفعله البتة مهما يحدث ، بل اننى لا أفعل كذلك ما يطابق رغبتى نفسها  
لأننى ضعيف . اننى أمتنع عن العمل ذلك لأن كل ضعفى فى مباشرته ،  
ولأن كل قواى سلبية ، ولأن كل زلاتى ناجمة عن الاحجام ، ونادرا عن  
الاقدام . اننى لم أعتقد مطلقا أن حرية المرء تعنى انجاز ما يود ولكنها  
فى الا يصنع مطلقا ما يريد أن يصنعه ، ذلك هو ما طالبت به دائما  
وما التزمته غالبا وما كنت من أجله منددا بى لدى معاصرى : ذلك انه  
بالنسبة لهم كعاملين نشيطين طموحين ، كارهين الحرية لدى الغير ، غير  
راغبين فيها بالمرة لأنفسهم ، ماداموا يفعلون أحيانا ما يشاءون أو بالأحرى  
يسيطرون على مشيئة الآخرين . . . يضيقون طيلة حياتهم بأداء مايكرهون  
ولا يتورعون عن الاستعباد مستهدفين السيطرة . واذن فان خطأهم لم  
يكن فى أن يبعثونى عن المجتمع كعضو لا جدوى منه بل أن ينبئونى  
كعضو خبيث ، ذلك لأننى قلما فعلت الخير وأنا مقر بذلك ، أما عن الشر ،  
فانه لم يدخل فى نطاق رغبتى فى حياتى ، واننى أشك فى أن هناك انسانا  
فى العالم أقترف منه حقا أقل مما فعلت .

## الرحلة السابعة

لم يكد يبدأ سجل أحلامي الطويلة حتى أحسست بها تشارف خاتمها وتتبعها متعة أخرى تستفرقتني حتى لتسلبني فترة الحلم . اننى لأستسلم لها فى ولع مفرط يضحكنى أنا نفسى حين أمعن التفكير فيها ، ولكننى لا أقلل من أستسلامى لها ، ذلك لاننى - فى الوضع الذى انا به - لم تعد لدى قاعدة أخرى للسلوك اللهم الا أن أتابع ميولى فى كل الامور بغير اكرام . اننى لا أملك شيئاً حيال قدرى ، وليس لى سوى ميول بريئة ، ومادامت آراء الناس ليست شيئاً بالنسبة لى منذ اليوم فان الحكمة نفسها تقتضى أن أقوم بعمل ما يرضينى فيما لا يزال فى متناولى، سواء أكان ذلك أمام الناس أم بينى وبين نفسى ، دون أن ألتزم قاعدة سوى ما يروق لى ، ودون معيار سوى ما بقى لى من قوة ضئيلة . أما بعد ، فهأنذا والاعشاب الجافة كل زادى ودراسة النبات كل شغلى . أما وقد تقدمت بى السن فاننى كنت قد تلقيت الانطباعة الاولى لعلم النبات فى سويسرا بالقرب من العالم ديفرنوا d'Ivernois وكنت قد جمعت الاعشاب خلال أسفارى بتوفيق يكفى للمام لا بأس به بمملكة النبات . أما وقد جاوزت الستين ، وأقيم فى باريس ، وقواى آخذة فى الاضمحلال بحيث تمنعنى من ممارسة الاستعشاب على نطاق واسع ، ومع هذا متفرع الى حد كبير لكتابة الموسيقى حتى لا أغدو وفى حاجة لأن أشغل بعمل آخر ، فقد هجرت هذه المتعة التى لم تعد ضرورة بالنسبة لى . لقد بعث معشبي وبعث كتبى قانعا بأن أعاود أحيانا مشاهدة النباتات الشائعة التى كنت أعثر عليها حول باريس خلال تجولاتى . وخلال هذه الفترة كاد يمحي من ذاكرتى تماماً القليل الذى كنت أعرفه ، بل انه انمحي فى سرعة تفوق ما استغرق نقشه عليها .

وفجأة ، وبعد أن انقضت خمسة وستون عاماً من عمري محروماً من الذاكرة الضئيلة التى كنت أستمتع بها وما كان متبقياً لى من قوى للتجول فى الريف بغير مرشد وبغير كتاب وبغير حديقة وبغير معشب ،

أرائى وقد عاودنى هذا التهوس ولكن فى عنف أشد . كذلك مما انتابنى عندما استسلمت له فى المرة الاولى . هأنذا مشغول جدبا بمشروع حكيم هو استظهار مؤلف « مورى » Murray (١) عن المملكة النباتية Regnum vegetable والتعرف الى كافة أنواع النبات المعروفة على سطح الأرض . ولما كنت فى حالة لا تسمح بمعاودة شراء كتب النبات فقد أخذت على عاتقى أن أنسخ ما كانوا يعيروننى اياه . ولما كنت أعترم إعادة انشاء معشب أغنى فى محتوياته من الاول ، وبأمل أن أضع فيه كل نباتات البحر والألب وكل أشجار الهند ، فأننى أبدأ كعادتى بالرخيص مثل « الرتم » ( عين القط ) Mouron (٢) و « الكريزة الخضراء » ( المقدونس الافرنجى ) cerfeuil و « لسان الثور » Bourrache « والمرار (حشيشة يعقوب) Senegon وأنا أجمع العشب عن خبرة فوق قفص طيورى . وكلما عثرت على نبتة جديدة من العشب كنت أقول لنفسى فى ارتياح « هاك أيضا نبات آخى » .

لست أحاول أن أبرر اختياري لمتابعة تلك الهواية . اننى أجدها معقولة جدا ، وأنا موقن ، فى وضعى الراهن ، أن استسلامى للمتعة التى ترضينى هو حكمة كبيرة بل هو فضيلة كبيرة كذلك : ان هذه الوسيلة التى لا تدع أية جرثومة للانتقام أو الكراهية تتوالد فى قلبى ولكى أجد فى حياتى طعما لتسليية ما ، يتعين على من غير شك أن يكون هناك طبع مصفى تماما من كل انفعالات الحنق . ان هذا لهو بمثابة انتقام من مضطهدى على طريقتى : ولم أك لأستطيع أن أنزل بهم من العقاب ما هو أقسى من أن أكون سعيدا بالرغم منهم .

أجل ، من غير شك ، أن الحكمة تبيح لى بل تملى على أن أستسلم لكل ميل يستهوينى ولا يعوقنى شىء عن الانسياق وراءه ، ولكنها لا ترشدنى عن سبب استهواء هذا الميل لى وعن أى اغراء أستطيع أن أجده فى دراسة عقيمة لا جدوى من ورائها ولا تقدم يرجى لها . وتعود بى الى تمرينات الشباب والى دروس التلاميذ بينا أنا عاجوز مخرف . وقد أصبحت متهالكا ثقيل الحركة قد ذهبت مرونتى وذاكرتى جميعا ، واذن فهذه مسألة بها من الغرابة ما أحب أن أفسره لنفسى . ذلك أنه يخيل لى ، حين تنجلي

(١) مورى « جوان - أندريا » Joannes-Andreas ، Murray طبيب وعالم نبات سويدي ولد فى استكهلم سنة ١٧٤٠ ومات فى جوتنجه بألمانيا سنة ١٧٩١ وهو واحد من تلاميذ لينية Linné المقربين .

(٢) من «العجم المصور لاسماء النباتات» : القاهرة : ١٩٣٦ - لارمناك .ك .بديفان .



تماما ، أنها تستطيع أن تلقي ضوءا جديدا على هذه المعرفة لذاتي ، تلك المعرفة التي كرسيت لتحصيلها أيام فراغى الأخيرة .

لقد فكرت أحيانا تفكيراً عميقاً ، ولكن نادراً ما كنت راضياً ، بل كان ذلك فى أغلب الاحيان على غير رغبة منى وكانما بالاكراه . ان أحلام اليقظة تريحنى وتسرى عنى ، وأما امعان الفكر فيجهدنى ويحزننى . ان التفكير كان بالنسبة لى على السوام شاغلاً شاقاً لا سحر فيه . وقد تنتهى أحلام يقظتى أحيانا بالتأمل ، ولكن تأملاتى فى أغلب الامر تنتهى بحلم يقظة . وخلال هذا الشرود تهيم روحى وتسبح فى العالم على أجنحة الخيال فى نشوات تفوق كل متعة اخرى .

اننى كلما تذوقتها فى كل صفائها غدا كل شاغل آخر لا طعم له دائماً بالنسبة لى ، ولكن ما أن كان يلقي بى فى المجال الأدبى بسبب دوافع غريبة حتى أحس بالاجهاد من جراء العمل الذهني ومن عبء شهرة منكودة وحتى أحس فى الوقت نفسه بأحلام يقظتى الحلوة تسقم وتفتت ، وحالما أضطر لاشغل بارغم منى بوضعى المرير لا أعود أستطيع العثور من جديد - الا فى القليل النادر - على هذه النشوات العريضة التى ظلت خلال خمسين عاماً تحتل منى مكانة الثراء والمجد ، والتى - من غير أن تقتضينى سوى الوقت - جعلتنى فى فراغى أسعد الاحياء طراً .

لقد كان ما أخشاه كذلك فى أحلام يقظتى أن يجنح خيالى بنشاطه فى نهاية الامر الى هذه الناحية مذعوراً من نكباتى . وان الشعور المستمر بالامى وهى تعصر قلبى تدريجياً ينوء على فى نهاية الأمر بكل وطأتها . وفى هذه الحالة فرضت غريزة طبيعية لدى - تجعلنى أتحاشى كل فكرة مقبضة - السكينة على خيالى ، وجعلتنى - بتركيز انتباهى على كل ما يحيط بى من أمور - أتناول بالتفصيل للمرة الاولى مشهد الطبيعة الذى لم اكن قد تأملته اطلاقاً حتى اذ ذاك الا ككل متكامل .

ان الأشجار والشجيرات والنباتات هى زينة الأرض ودثارها ، وليس من شىء يدعو الى الأسى كمشهد ريف عار أجرد ، لا تعرض للعين منه سوى أحجار وطمى ورمال . ولكن ما أن تجيبى الطبيعة الارض فتعاود ارتداء ثوب عرسها بين خريير الماء وأهازيج الطيور حتى تقدم للانسان بين تناسق الممالك الثلاث مشهداً زاخراً بالحياة والاثارة والفتنة هو المشهد الوحيد فى العالم الذى لا تكلم منه عيناه وقلبه أبداً .

وكلما كانت للمتأمل روح حساسة كلما استسلم لنشواته التى تثير فيه هذا التوافق . عندئذ يستحوذ على حواسنه حلم يقظة حلو عميق

فيضل بخدر لذد في سعة هذا الكون الرائع الذي يحس انه امتزج به ،  
وعندئذ تشرد منه التفصيلات فلا يرى ولا يحس شيئا سوى ما يداخل  
المجموعة . ولا بد من ظرف خاص يلم أفكاره ويحصر خياله حتى يستطيع  
أن يلاحظ - مجزءا - هذا العالم الذي كان يجهد نفسه في الإحاطة به .

ان هذا هو ما حدث لى بطبيعة الحال عند ما كان قلبى - وقد حاق  
به الضيق - بقارب ما بين ويركز كل انتفاضة من حوله كى يحتفظ  
بهذه البقية من الحرارة على أهبة التبخر والضباع فى ثنايا الانهيار الذى  
كنت انحدر اليه تدريجيا . اننى كنت أتسع متجولا في تكاسل في  
الغايات والجبال ، لا أجسر على التفكير خشية استثارة أوجاعى . وكان  
خيالى الذى يتأبى عند الشاق من الامور يدع حواسى تستسلم للانطباعات  
الحفيفة ، الحلوة مع ذلك ، لما يحيط بى منها . وكانت عيناي تجولان  
باستمرار من شىء الى آخر ، ولم يكن من المستطاع وسط مثل هذا التباين  
الكبير ألا يوجد فيه ما يزيد من تركيز انتباهها واستيقافها مدة أطول .

لقد راقت لى رياضة العيون هذه التى تريح وتسلى وتروح عن الذهن  
وتوقف الاحساس بالآلام حين يستشعر المرء الشقاء . ان طبيعة الأشياء  
تساعد كثيرا على هذه السلوى وتجعلها أشد اغراء . ان الروائح الشديدة  
والألوان الزاهية والصور البالغة الرشاقة تبدو وكأنما تتنازع حق استرعاء  
انتباهنا . وما علينا الا أن نحب المتعة كى نستسلم الى أحاسيس بهذه  
الدرجة من الحلوة ولو أن هذا الاثر لم يبد على كل من صادفتهم تلك  
المتعة فان ذلك يرجع لدى البعض الى انعدام الحساسية الطبيعية ، وهو  
لدى الأغلبية يرجع الى أن أذهانهم وقد شغلت بأفكار أخرى لم تعد  
تنصرف الا خلسة الى الامور التى تصك حواسهم .

وهناك أمر آخر يسهم كذلك فى ابعاد انتباه ذوى الذوق السليم  
عن المملكة النباتية ذلك هو اعتياد عدم البحث فى النبات عن غير  
العقاقير والادوية . ولقد تناول «ثيوفراست» (١) Théophraste ذلك  
من زاوية أخرى . ويمكن اعتبار هذا الفيلسوف كأنما هو عالم النبات  
الوحيد فى العصور القديمة ، ولذا فهو لا يكاد يكون معروفا بيننا ، ولكن  
بفضل من يدعى «ديوسكوريد» Dioscoride وهو مصنف مشهور لالوصفات  
الطبية ، وبفضل شراحه ، استطاع الطب أن يستحوذ على نباتات محولة  
الى عقاقير حتى لا يرى المرء فيها سوى ما كان لا يراه فيها أبدا ، بمعنى

(١) ثيوفراست Théophraste فيلسوف يونانى ولد في جزيرة لسبوس ( حوالى  
٢٧٢ - ٢٨٧ ق.م ) ، كتب مؤلفا عنوانه Caractères

انه يرى فيها المزايا المزعومة التي ينسبها اليها «فلان أو علان» ولا يدرك المرء أن التنظيم النباتي يستحق في حد ذاته أن ينال عناية ما ٠٠ ان الأشخاص الذين يقضون حياتهم في ترتيب القواقع ترتيبا علميا يسخرزون من علم النبات كأنما هو دراسة غير ذات نفع وذلك حين لا تلحق بها كما يقولون دراسة الخواص ، أى حين لا يهمل المرء ملاحظة الطبيعة التي لا تكذب أبدا والتي لا تروى لنا شيئا من هذا كله ، ليستسلم فقط لرأى الناس وهم كاذبون ، والذين يؤكدون لنا أشياء كثيرة يجب التسليم بها بناء على قولهم الذى يستند في أغلب الامر على أساس رأى الآخرين . قف فى مرعى مزهر كى تتفحص تباعا الأزهار التي يزدان بها ، فان من يرونك كذلك سيظنونك « حلاق صحة » فيسالونك بعض الاعشاب لشفاء « قوبة الزيتونة » للاطفال أو « جرب » الرجال أو « تنين » الخيل .

ان هذا الاعتقاد قد انهار جانب منه فى البلاد الاخرى وبخاصة فى انجلترا بفضل ليناوس Linnaeus (1) الذى أبطل الى حد ما دراسة النبات فى مدارس الصيدلة ناقلا اياها الى حقل التاريخ الطبيعى وميدان الانتفاع الاقتصادى . أما فى فرنسا حيث كان تغفل هذه الدراسة أقل لدى الطبقة المتمدينة ، فقد ظلوا فى هذه الناحية من البدائية حتى ليصبح متظرف باريس ممتدحا ، حين يشهد فى لندن حديقة فريدة مليئة بالاشجار والنباتات النادرة ، قائلا : « هاكم حديقة بالغة الجمال لصيدلانى » وعلى هذا الاعتبار كان آدم الصيدلى الاول ، ذلك لانه ليس من الميسور أن نتخيل حديقة تجمع شتات النباتات خيرا من جنة عدن . هذه الافكار الطبية ليست بالتأكيد كفيلة بأن تجعل من دراسة النبات دراسة مستحبة ، فهى تذبذب ازدهار المراعى وتآلق الزهور وتجفف نضارة الخمائل وتجعل الخضرة والظلال تافهة ممجوجة . ان كل تلك المركبات الرائعة الرقيقة لا تنهم بحال من لا يود الا أن يجمع ذلك كله فى هاون ، ولن يبحث المرء عن أكاليل للراعيات بين أعشاب لغسيل الامعاء . ان هذه الصيدلة كلها لم تكن تفسد أبدا صور الريف لدى ، فلم يكن هناك ما هو أبعد منها أكثر من « منقوعات الاعشاب » و « اللزقات » وطالما فكرت ، وأنا اتأمل عن كذب الحقول والبساتين والغابات وسكانها العديدين ، أن مملكة النبات كانت مستودعا للمواد الغذائية التي تمنحها

(1) كتاب نظام التقسيم الطبيعى للنباتات System naturae هو من تأليف عالم النبات السويدي لينيه linne ( ١٧٠٧ - ١٧٧٨ ) نشر الكتاب عام ١٧٣٥ ، وكان روسو معجبا به

الطبيعة للانسان والحيوان ، ولكن لم يخطر ببالي مطلقا أن أبحث فيها عن عقاقير وأدوية • ولنسبت أرى شيئا في هذه المخصولات المتباينة يرشدني الى مثل هذا الاستعمال • ولعلها كانت تحدد لنا الاختيار لو أنها املته علينا ، كما فعلت بالنسبة للمواد الغذائية ، بل انني لأحس أن المتبعة التي أنالها بتجولى بين الخماثل قد يفسدها الشعور بالضعف البشرى ان هو أتاح لى التفكير فى الحمى والحصوة والنفرس ومرض الشيفوخة • ومن ثم فلن أناقش البتة النباتات فيما ينسب اليها من مزايا ضخمة ، بل سأكتفى بأن أقول : انه بافتراض أن تلك المزايا حقيقية ، فإنه من الحث المحض أن يظل المرضى غاى مرضهم لانه من بين كل الامراض التي يتعرض الناس لها ليس هناك مرض واحد لا يقطع دابره عشرون نوعا من الاعشاب •

ان اتجاهات الفكر هذه - التي ترجع دائما كل شيء الى مصلحتنا المادية والتي تدعو الى البحث فى كل شيء عن كسب أو دواء ، والتي كانت حرية بأن تدفع الى النظر الى الطبيعة جميعا بغير تحيز لو أن المرء كان دائما فى ضحة طيبة - لم يكن لى منها نصيب مطلقا • وانى لأحس فى ذلك اننى على نقيض الآخرين ، فان كل ما يتصل بالاحساس بحاجاتى يحزن أفكارى ويفسدها ، ولم أجد مطلقا أى سحر حقيقى فى متع الفكر الا اذا أسقطت من حسابى تماما مصلحة جسدى • وهكذا - حتى حين كنت أومن بالطب ، وحتى لو أن الدواء كان مستساغا - فاننى لم أكن لأجد نفسى أشغل مطلقا بهذه المتع يضيفها تأمل خالص مجرد ، ولن تستطيع روحى أن تهلل وتحلق فوق الطبيعة ما دمت أحس بها تشبث بقيود جسدى •

هذا الى اننى برغم انه لم تكن لى مطلقا ثقة كبيرة فى الطب الا انه كان لدى الكثير منها فى أطباء كنت أقدرهم وأحبهم وكنت أترك لهم مطلق الحرية فى التسلط على جسدى بسلطان كامل • أن خمس عشرة سنة من التجربة زودتنى بالعلم على حساب نفسى • أما وقد عدت الآن تحت سلطان قوانين الطبيعة وحدها فقد استعدت عن طريقها سابق صحتى • وحين لا يغدو للأطباء شكاوى أخرى ضدى فمن ذا يستطيع أن يدعش من كراهيتهم ؟ اننى البرهان الحى على تفاهة فنههم وعلى عدم جدوى جهودهم •

كلا •• ليس هناك أمر شخصى ، وليس هناك من شيء يتصل بمصلحة جسدى يستطيع أن يشغل روحى حقا • اننى لا أفكر ولست أحلم مطلقا أحلاما أكثر امتاعا منها الا حين أتناسى نفسى • وانى لأحس انتشاء وسعادة غامرة لا يستطاع التعبير عنهما الى حد أننى أفنى - كما

يقال - في نظام الكائنات حتى امتزج بالطبيعة جمعاء . وطالما كان الناس أخوة لى فقد كنت أشيد مشروعات سعادة دنيوية ، ولما كانت هذه المشروعات دائما متعلقة بالمجموع ، فلم أكن أستطيع أن أكون سعيدا الا بسعادة الجميع ، ولم يحدث أن منست قلبى مطلقا فكرة السعادة الفردية الا حين رأيت اخوانى لا يبحثون عن سعادتهم الا فى شقوتى . وعندئذ كان من الواجب حتما تجنبهم حتى لا أبغضهم وعندئذ - بالتجائى الى أم الجميع - حاولت بين أحضانها أن أفلت مما يصيبنى به أبنائها ، وأصبحت منعزلا ، أو كما يقولون ، غير اجتماعى ، كارها للناس ، ذلك لأن أشد ألوان الوحدة قسوة كان يبدو لى أفضل من مجتمع الاشرار الذى لا يغتذى الا بالخيانة والبغضاء .

أما وأنا مضطر الى الامتناع عن التفكير خشية أن أفكر فيما حل بى من شرور على الرغم منى ، ومضطر أيضا الى اختزن مخفيات خيالى الضاحك - وان كان فاترا - حتى لتستطيع كل تلك المفزعات أن تنفرنى فى نهاية الامر ، ومضطر كذلك الى محاولة نسيان أولئك الذين يهيلون على المهانات والسباب خشية أن يثيرنى الغضب ضدهم ، فأننى لا أملك مع ذلك أن أتركز كلية فى ذاتى، لان روحى الفياضة تسعى - برغم ما بى - الى أن تبسط مشاعرها وكيانها على الكائنات الاخرى ، ولست أستطيع بعد - كما كانت الحال من قبل - أن أنقى بنفسى مطأطء الرأس فى محيط الطبيعة الشاسع هذا ، لان ملكاتى - وقد ضعفت ووهنت - لم تعد تلقى أمورا على قدر من التحديد والثبات ، وفى متناولى كذلك ، بحيث أعلم بها فى عنف، ولا أحس معها بقوة تكفى لتمكننى من السباحة فى هذا الخضم من نشواتى القديمة . أن أفكارى لم تعد تقريبا سوى مشاعر ، وان مجال ادراكى لا يتعدى الامور التى تحيط بى مباشرة .

أما وأنا هارب من الناس وساع وراء العزلة وعاجز عن التخيل ، وعن التفكير أكثر عجزا وموهوب مع ذلك فى الوقت نفسه مزاجا متوقدا يبعدنى عن البلادة المسقمة المحزنة . . . فقد بدأت أشغل بكل ما يحيط بى ، وفضلت بفريزة طبيعية جدا - الاشياء الأكثر امتاعا ، ولم يكن فى المملكة المعرنية فى ذاتها ما يحبب فيها أو يجذب اليها ، ان ثرواتها المدفونة فى باطن الارض تبدو كأنما أبعدت عن أنظار الانسان حتى لا تثير شرهه وهى هناك وكأنما أحتفظ بها لتستخدم يوما لتزود الثروات الحقيقية التى هى أقرب الى متناولها والتى يفقد لذة مذاقها كلما ازداد فسادا ، وعندئذ يجب أن يلجأ الى الصناعة والى الكد والعمل لتنقذه من فاقته . انه ينقب فى باطن الارض ويتوغل باحثا فى صميمها ، مخاطرا بحياته، وعلى حساب

صحته ، عن ثروات خيالية بدلا من الثروات الحقيقية التي كانت تهبها اياه عن طواعية عندما كان يعزف طريقه الى الاستمتاع بها . انه يهرب من الشمس والنهار اللذين لم يعد جديرا برؤيتهما . انه يدفن نفسه حيا ، وخيرا يفعل ، اذ لم يعد يستحق الحياة فى ضوء النهار . . هناك المحاجر والاعوار وورش الحدادة والافران ومعدات من السندانات والمطارق ودخان ونار ، تخلف جميعها الصور الحلوة للعمل فى الحقول . . ان الوجوه المصفرة لاولئك اليوساء الذين يسقمون من جراء الابخرة الكريهة فى المناجم والحدادين السود والمسوخ المنفرين . . كل اولئك هم المشهد الذى تحله معدات المناجم - فى باطن الارض - محل الخضرة والازهار ومحل السماء الزرقاء والرعاة العاشقين والفلاحين الاشداء على سطحها .

اننى اعترف انه ايسر للمرء أن يجمع الرمال والاحجار وأن يملأ بها جيوبه ومكتبه ، وأن يضيف على نفسه بذلك سيماء دارس الطبيعة . أما الذين يتعلقون بهذه الالوان من المجموعات ويقتصرون عليها فهم فى العادة اغنياء جهلة لا يرومون من وراء ذلك سوى غرور المظهر . يجب على المرء أن يكون كيميائيا ومن علماء الطبيعة كى يفيد من دراسة المعادن . يجب القيام بتجارب شاقة باهظة التكاليف ، والعمل فى المعامل وانفاق الكثير من المال والوقت بين الفحم والبواتق والافران والمعوجات ، بين الدخان والابخرة الخائفة ، معرضا حياته للخطر على الدوام على حساب صحته فى اغلب الامر . ومن وراء كل هذا العمل الكثيب المهق يتأتى عادة من المعرفة اقل بكثير مما يتأتى من الضرور . واين هو اقل الكيميائيين شأنا الذى لا يظن أنه قد استطاع أن يتغلغل فى أعماق العمليات الكبرى للطبيعة لانه كشف - ربما عن طريق الصدفة - بعض التركيبات الفنية الصفري ؟

ان مملكة الحيوان اقرب الينا من غيرها وهى تستحق كذلك من غير شك أن تدرس دراسة أوفى . ولكن أليست لهذه الدراسة أيضا فى النهاية صعوباتها ومازقتها ومنفرتها ومتاعبها ولا سيما بالنسبة لمعتزل ليس له أن يأمل فى عون احد فى لهوه أو عمله ؟ كيف يمكن ملاحظة تشریح أو درس أو التعرف على الطيور فى مسارحها والاسماك فى مسابحها والدواب أخف من الريح وأقوى من البشر . . . التى لا يزيد استعدادها لان تتقدم لتعرض نفسها لباحثي عن استعدادى لتتابعها بغية اخضاعها عنوة لدراستها ؟ واذن فستكون مصادرى القواقع والديدان والذباب وسأقضى حياتى لاهثا سعيا وراء الفراشات خائزا للحشرات النعسة ومشرحا للفتران - حين أستطيع الحصول عليها - أو جيف البهائم التى قد أصادفها

ميتة • ان دراسة الحيوان لا تعد شيئاً بغير التشريح إذ به يتعلم الانسان كيف يرتبها ويميز بين أنواعها وفصائلها ، ويجب أن تكون هناك حظائر وأحواض وزرائب كي تدرس من ناحية طبائعيها وخصائصها ، كما يجب أن ترغم بطريقة كائنة ما تكون كي تبقى متجمعة حولي • انه ليس لدى من الميل أو الوسائل ما يمكنني من أن أحتفظ بها حبيسة ، كما انه ليست لدى الخفة اللازمة لتتبعها في مراحها حين تكون طليقة • واذن فمن اللازم أن تدرس وهي ميتة وأن تقطع أوصالها وتنتزع عظامها وينقب بتؤدة في أحشائها النابضة • يا له من جهاز كريبه ، معمل التشريح هذا ! فمن جثث عفنة ولحم رخو وسائل ••• ودم وأمعاء تثير الاشمئزاز وهياكل كريبه وأبخرة وبائية ! أقسم بشرفي أن جان جاك لن يلجأ اليها ليسعى وراء ملهاته فيها •

أيتها الزهور المتألثة ••• يازينة المراعى ! أينها الظلال الرطبة والجدول والاعراش والخضرة ! تقدمن لتطهير خيالي الملوث بكل هذه الامور الكريهة! ان روحي اذ تقضى أمام كل الاحداث الكبار لم تعد تتأثر الا بالمحسوسات • انه لم تبق لي الا أحاسيس ، ولم يعد الالم واللذة في هذه الحياة الدنيا يستطيعان أن ينالاني الا عن طريقها • اننى حين يجتدبنى المبهج مما يحيطنى من أمور أتأملها وأشهدها وأقارن بينها ثم أعرف أخيراً كيف أصنفها • ثم هأنذا فجأة دارس نبات يحتاج الى أن يكونه من لا يود دراسة الطبيعة الا ليجد دائماً أسباباً جديدة لتعشقها •

اننى لا أرمى البتة الى أن أتعلم فقد فات أو ان ذلك ، هذا الى اننى لم أر مطلقاً ان كل ذلك العلم أسهم فى سعادة الحياة ، ولكننى أحاول أن أتزود بالوان من التسلية السارة الميسرة التى أستطيع أن أتذوقها فى غير عناء ، والتى تستطيع أن تلهينى عن متاعى • لن يكلفنى شيئاً أو يسبب لي ألماً أن أتنقل متكاسلاً من عشب الى عشب ومن نبات الى نبات لأتفحصها وأقارن بين خصائصها المتباينة ولأسجل وجوه التشابه والاختلاف بينها ولألاحظ التنظيم النباتى • بحيث أتتبع تطور هذه الادوات الحية والدور الذى تقوم به ، وبحيث أوفق أحياناً للكشف عن قوانينها العامة وسبب اختلاف تركيبها والغرض منه ، وبحيث أستسلم لسحر الاعجاب العارف بالفضل لئيد التى جعلتنى أستمتع بهذا كله •

أن النباتات تبدو وكأنها قد نثرت بوقرة على الارض كما تنتثر النجوم فى السماء لثدعو الانسان - باغراء المتعة والفضول الى دراسة الطبيعة •• أما الكواكب فبعيدة عنا ويتطلب الوصول اليها وتقريبها لنا

معارف أولية وأدوات وآلات وسلالم بالغة الطول • أما النباتات فهي موجودة بالطبيعة هنا • انها تولد تحت أقدامنا وبين أيدينا - كما يقال - ولئن كان صغرى أجزائها الاساسية يحجبها أحيانا عن العين المجردة ، فان الادوات التي تكشف عنها ذات استعمال أيسر بكثير من الآلات علم الفلك . ان علم النبات هو مجال دراسة المعتزل الفارغ الكسول ، وان سنا مذبذبة وعدسة هما كل ما يلزمه من جهاز ليفحص النباتات . انه يتنزه ويتجول بحرية من شيء الى آخر ويستعرض كل زهرة باهتمام وفضول وما ان يبدأ فى ادراك قواعد تركيبها حتى يتذوق فى ملاحظتها لذة بغير ألم • • • شديدة مع ذلك - كما لو كانت قد تكلفت الكثير • ان فى هذا الشاغل الفارغ سحرا لا يحسه المرء الا فى هدوء العواطف الكامل ، ولكنه يكفى وحده عندئذ ليجعل الحياة سعيدة حلوة ، ولكن ، ما ان يخالطه دافع لمصلحة أو غرور اما لشغل وظائف أو لتأليف كتب • • أى أنه عندما لا يرغب المرء فى التعلم الا بقصد التعليم ولا يستعشب الا ليغدو مؤلفا أو معلما حتى يتلاشى ذلك السحر الحلو فلا يعود يرى فى النباتات سوى وسائل الهواية ولا يعود المرء يرى متعة حقة فى دراستها ، فهو لا يريد بعد أن يعرف ولكنه يظهر أنه يعرف • والمرء فى الغاب ، كأنما هو على مسرح الحياة ، مشغول بالعمل على اعجاب الناس به أو هو مقتصر على دراسة النبات فى المكاتب أو الحديقة على الاكثر بدلا من ملاحظة النباتات فى الطبيعة ، ثم لا يشغل نفسه الا بالطريقة والمنهاج وهما مادة خالدة للجدل لا تعرف بنبات جديد ولا تلقى اى ضوء حقيقى على التاريخ الطبيعى أو مملكة النبات . من هنا كانت الكراهية والاحقاد التي يثيرها التنافس على الشهرة لدى المؤلفين من علماء النبات على غرار ما يحدث بين العلماء الآخرين بل اكثر . وبتشويه تلك الدراسة المحببة ينقلونها الى داخل المدن والاكاديميات حيث لا يقل انحطاطها عما تنحط اليه النباتات المجلوبة التي يؤتى بها الى حدائق محبى الاستطلاع •

ولقد أسهمت استعدادات متباينة لتجعل من هذه الدراسة بالنسبة لى نوعا من الهوايات يملأ الفراغ الذى خلفته كل الهوايات التي لم يعد لدى منها شيء • • انى أتسلق الصخور والجبال وأتوغل فى بطون الوديان، وفى الغابات لأتوارى بقدر الامكان عن تفكير الناس وعن اذى الاشرار . وانه ليخيل الى وأنا فى ظلال الغابة أننى منسى ، حر ، هادىء ، كما لو لم يعد لى من أعداء أو كأنما عملت أوراق أشجار الغابة على حمايتى من أذاهم كما تبعدهم عن ذاكرتى • واننى لأتخيل - فى جهالتى اننى حين أقصدهم عن تفكيرى سوف لا يفكرون هم فى أيضا • اننى لأجد لذة كبرى فى هذا



الوهم حتى لا كاد أستسلم له كلية لو أن مركزى وضعفى واحتياجاتى كانت تسمح لى بذلك . وكلما أوغلت العزلة التى أحيأ فيها فى عمقها ، كلما كان من الضرورى أن يملأ فراغها شئ ما ، فكل من يابأه خيالى أو تطرده ذاكرتى تشغل مكانه النباتات التلقائية التى تعرضها لعينى فى كل ناحية الارض التى لم يسخرها الانسان . ان اللذة فى الخروج الى الصحراء للبحث عن نباتات جديدة تطفى على لذة الهروب من مضطهدى ، وما ان أصل الى مواطن لا أرى فيها أى اثر للناس حتى أتشمس الهواء فى حرية أكثر كما لو كنت فى ملجأ لا تلاحقنى فيه بغضاؤهم .

اننى سوف أذكر طيلة حياتى استعشابا قمت به يوما من الايام فى ناحية رويلا Robaila جبل القاضى كلير (Clerc) . لقد كنت وحيدا وتوغلت فى منحنيات الجبل وأخذت أتقل من غابة الى غابة ومن صخرة الى صخرة حتى بلغت ملاذا بلغ من انزوائه أننى لم أشهد فى حياتى من قبل منظرا أكثر استيحاشا منه . كانت أشجار الشوح السوداء تختلط بأشجار الزان الضخمة التى تهاوى العديد منها من الشيوخوخة وتشابكت ببعضها البعض حتى احتجزت هذا الملاذ بحواجز لا يمكن اختراقها ، وكانت بعض الفتحات التى تتخلل هذا الحاجز المظلم لا تعرض للناظر من ورائها سوى صخور قطعت عموديا وسوى هوى مخيفة لم أكن لأجرؤ على النظر اليها الا ان انبطحت على بطنى . وكان البوم والمصاصة وعقاب البحر يتردد صدى نعيقها فى صدع الجبال وكان يخفف مع ذلك من وحشة هذه العزلة قليل جدا من الطيور الصغيرة المعروفة . وقد وجدت هناك حشيشة السنان السباعية Dentaire heptaphyllos وبخور مريم ( سيكلامان ) Ciclamen وعش النحل ( سرخس عش التتر ) Nidus avis وعشبا من الاعشاب الراتنجية والخيمية يشبه البقدونس Grand laserpitium وبعض نباتات أخرى فتننتى وأدخلت السرور الى نفسى طويلا . ولكننى ، وقد سيطر على الطابع القوى لهذه الاشياء دون أن أشعر ، نسيت علم النبات والنباتات وجلست على حشيات من المساكية ( رجل الذئب ) Lycopodium والعشب الندى والطحلب وأخذت أحلم فى مزيد من الراحة ، أرانى وكأنى فى مأوى مجهول من العالم جميعا حيث لا يستطيع مضطهدى أن ينتزعنى منه . وسرعان ما خانطت ذلك الحلم نزعة غرور فكنت أقارن نفسى بأولئك الرحالة الكبار الذين يكتشفون جزيرة مهجورة ، وكنت أحدث نفسى فى اعجاب قائلا : « لا ريب أننى أول كائن وصل الى هذا المكان » . وكتبت أجد فى شخصى (كولومب) آخر . وبينما أنا أختال فى هذا التفكير ، سبغت على مبعدة قليلة منى قرقة ما خيل الى أننى أعرفها . فأصغيت ، وتكررت

الصوت نفسه وتضاعف فحقت من مكاني دهشا يجدوني الفضول ونفدت من خلال أجمة من الاعشاب في اتجاه مصدر الصوت ولاحظت وجود مصنع للجوارب في منخفض يبعد عشرين خطوة من المكان نفسه الذي كنت أحسبني أول من ارتاده .

ولست أستطيع أن أعبر عن الاضطراب الغامض المتناقض الذي أحسسته في قلبي عند هذا الاكتشاف ، كان أول ما انتابني شعور بالفرح حين وجدتني بين آدميين في مكان كنت أحسبني وحيدا فيه . ولكن هذا الاحساس - في أسرع من البرق - سرعان ما أفسح مكانا لشعور أليم أطول مدى كما لو كنت لا أستطيع في مغاور جبال الألب نفسها أن أفلت من القبضة القاسية لأولئك المتجسسين لتعديبي ، ذلك لانني كنت واثقا تماما أنه ربما لم يكن هناك رجلان في هذا المصنع لم يسهما جديا في المؤامرة التي كان يتزعمها الواعظ ( مونمولين ) Montmolin (١٧) والتي كان يحرك من بعيد دوافعها الأولى ، وسرعان ما أبعدت هذا الحاطر الكئيب وانتهى الامر بي الى أن أضحك في سريرتي وأضحك من غروري الصبباني ومن الطريقة الهزلية التي عوقبت بها من أجله .

ولكن في الواقع من ذا الذي كان يتوقع أن يجد مصنعا في هوة سحيقة ؟ انه ليست هناك في العالم سوى سويسرا التي تستطيع أن تعرض هذا الخليط من الطبيعة البرية والصناعة الانسانية . وليست سويسرا بأكملها - على حد القول - سوى مدينة كبيرة ، شوارعها أكبر وأطول من شوارع سانت أنطوان Saint-Antoine تنتشر فيها الغابات وتتخللها الجبال وتصل الحدائق الانجليزية ما بين بيوتها المتناثرة المنعزلة عن بعضها وبهذه المناسبة تذكرت استشعابا آخر كان دييرو du Peyrou وديشرني d'Escherny والكولونيل بيوري colonel Pury والقاضي كلير justicier Clere وأنا ، قد قمنا به منذ وقت على جبل Chasseron شاسيرون(٢) الذي يكشف المرء من قمته سبع بحيرات . وقد قيل لنا انه لم يكن هناك فوق هذا الجبل سوى بيت واحد ولم يكن في استطاعتنا التكهّن على وجه الدقة بمهنة ساكنه لو لم يصف الى ذلك القول بأنه كان

---

(١) كانت خطبة الواعظ مونمولين Montmolin ضد روسو سببا في خروج اهل موتيه Môtiers مغاضبين فالتقوا بالحجارة على نوافذ بيت روسو في اليوم الاول من سبتمبر عام ١٧٦٥ .

(٢) لا يقصد هنا جبل شاسيرون Chasseron بل شاسرال Chasseral ومن هذا الجبل يمكن مشاهدة البحيرات السبع .

كتيبا وأنه كان يباشر أعماله كذلك بنجاح كبير في الاقليم . ويخيل الى أن واقعة واحدة من هذا النوع تعرفنا بسويسرا أكثر من كل ما يقدمه المسافرون من أوصاف .

وهناك واقعة أخرى من هذا النوع - أو تكاد - ليست أقل تعريفا لنا بشعب مختلف عنا تماما : ذلك أنه خلال اقامتي في جنوبل Grenoble كثيرا ما كنت أقوم باستشعابات صغيرة خارج المدينة مع السيد بوفيه Bovier (1) المحامي بذلك الاقليم لا لأنه كان يحب علم النباتات أو كان على دراية به ، ولكن لأنه نصب من نفسه حارسا لي وآلى على نفسه ألا يتركني خطوة واحدة ما استطاع الى ذلك سبيلا . وذات يوم كنا نتنزه على ضفة نهر الازير L'Isère في منطقة خافتة بالصفصاف الابرى ورأيت على هذه الشجيرات فاكهة ناضجة ، وتملكني الفضول لتذوقها ، ولما وجدت بها بعض الحموضة التي راقت لي جدا ، أخذت أكل من هذه الثمار لانعش نفسي . وكان السيد بوفيه واقفا الي جوارى دون أن يقلدني ودون ان يقول شيئا . وفجأة أقبل أحد اصدقائه الذي ما أن رأيته ألتقط هذه الثمار حتى قال : ايه يا سيدى ! ما هذا الذي تفعله ؟ الا تدري أن هذه الفاكهة سامة ؟ فصحت دهشا جدا : هذه الفاكهة سامة ! فأجاب : ما في ذلك من ريب ، وكل الناس يعلمون ذلك تماما حتى ان واحدا من الاقليم لم يفكر في تذوقها. فنظرت الى السيد بوفيه وقلت له : لم اذن لم تنبهني الى ذلك ؟ فأجابني باحترام قائلا : آه يا سيدى ! اننى لم أكن أجرو لأسمح لِنفسى بهذه الحرية . فأخذت أضحك من هذا التواضع الخاص بمقاطعة دوفينيه Dauphiné وأنا أتوقف مع ذلك عن الاستمرار في تناول هذه الوجبة الصغيرة . وكنت مقتنعا - كما لا ازال - أن كل انتاج للطبيعة مستساغ الطعم لا يمكن أن يسبب أذى للجسم ، أو هو - على الاقل - لا يؤذيه الا بالافراط فيه. ومع ذلك فأعترف أنني طاوعت نفسي قليلا ببقية اليوم وان خالط ذلك بعض القلق وتناولت وجبة عشاء في شهية كبيرة ونمت خيرا من ذلك وصحوت في الصباح وأنا أكمل ما أكون صحة بعد أن التهمت في اليوم السابق خمس عشرة أو عشرين ثمرة من ذلك الغاسول الرومى hippophoe الذى تكفى منه كمية ضئيلة جدا للتسمم ، على نحو ما قاله لي

(1) رواية المحامى بوفيه Bovier حوالى عام 1802 تخلف عن رواية روسو ، وذلك في A. Jevy : Un document inédit sur le séjour de J.J. Rousseau à Grenoble en 1768 Vitry — le — Français, 1898, p.p. 42 - 8, اذ يقول فيها انه لم يقرأ تفسير روسو لتلك الحادثة الا بعد نشر « الاعترافات » التى تلتها « أحلام اليقظة » .

الجميع في جرنوبل في اليوم التالي . وقد بدت لي تلك المغامرة من الطرافة بحيث لا أذكرها أبدا دون أن أضحك من الحذر المستغرب الذي أبداه السيد بوفيه المغامى .

كانت كل جولاتي لدراسة النبات والانطباعات المختلفة لمواطن الاشياء التي أثرت في ، والأفكار التي بعثتها في نفسى ، والاحداث التي خالطتها، كل ذلك خلف في نفسى انطباعات تتجدد بمشاهدة النباتات التي تستعشب من تلك المواطن نفسها .

اننى سوف لا ارى مطلقا هذه المناظر الريفية الرائعة وهذه الغابات وهذه البحيرات وهذه الاعراش وهذه الصخور وهذه الجبال التي طالما مست رؤيتها شغاف قلبي . أما الآن وأنا لا أستطيع بعد أن أجوب هذه البقاع السعيدة فلست أملك سوى أن أفتح معشبي وسرعان ما ينقلني اليها . ان أجزاء النباتات التي جمعتها منها تكفى لتذكرنى بذلك المشهد الرائع . ان هذا المعشب بالنسبة لى بمثابة يوميات استعشاب تجعلنى أعاوده بسحر جديد ، ولها من الاثر ما هو بمثابة المنظار الذي يعيد تصويرها أمام عيني .

هذه هي سلسلة الافكار الثانوية التي تربطني بعلم النبات . انها تجمع وتعيد الى خيالى كل تلك الافكار التي تزيد من ارضائه . فالراعى والامواه والغابات والعزلة ثم السلام بصفة خاصة والراحة التي يلقاها المرء خلال هذا كله . . انها جميعا تعاد الى ذاكرتى باستمرار عن طريق هذه السلسلة من الافكار الثانوية . . وهي تجعلنى أنسى اضطهادات الناس وكراهيتهم واحتقارهم وامتهاناتهم وكل الآلام التي قدموها ثمنا لتعلقى الحنون الصادق بهم . . انها تنقلنى الى ديار هادئة بين قوم بسطاء طيبين كأولئك الذين عشت معهم فى سائف الزمان . . انها تذكرنى بأيام شبابهى ومتعنى اليرثية ، وتجعلنى أستمتع بها من جديد ، وهي غالبا كذلك ما تجعلنى سعيدا فى ثنايا قدر أشد ما يكون نكدا يمكن أن يكون قد ابتلى به انسان .

## الجلوة الثامنة

كلما أمعنيت الفكر في حالات نفسي وفي كل مواقف حياتي ، أدهشني للغاية أن أرى مبلغ ضالة التناسب بين تدابير قدرى المختلفة وبين مشاعري المعتادة - من هناء أو شقاء - التي اعترتني بسبب تلك المواقف . ان الفترات المختلفة لهنائي القصير لم تترك لي تقريبا أية ذكرى حلوة للاحساس الكامن المقيم الذي كانت تؤثر على به ، بل وعلى العكس من ذلك كنت أحسنى على الدوام ، خلال ما انتاب حياتي من مكاره ، مفعما بمشاعر رقيقة مثيرة حلوة ، كانت تبدو - وهي تسكب بلسما شافيا على جراح قلبي المظنى - وكأنما تحول الالم الى لذة تعاودني ذكراها المحببة وحدها مجردة من ذكرى الآلام التي كنت أستشعرها في الوقت نفسه . انه يخيل الى أنني تذوقت من حلاوة الوجود أكثر مما عشت حقيقة ، وذلك حين صحت يد القدر - كما يقال - مشاعري حول قلبي . فلم تكن لتبدد خارجة حول أمور هي موضع تقدير الناس لا تستحق لذاتها منه سوى القليل وهي الشغل الشاغل لاناس يظن أنهم سعداء .

حين كانت الامور منتظمة من حولي ، وحين كنت راضيا عن كل ما يحيط بي وعن الوسط الذي كان على أن أعيش فيه ، كنت أملؤه بمحبتتي . وكانت روحي الفياضة ترفرف فوق أشياء أخرى . ولما كان يباعد بيني وبين ذاتي ألف لون من الميول عن طريق روابط الود التي كانت تحتل قلبي على الدوام ، كنت أتناسى نفسي بصورة ما وكنت أفرغ كلية لكل ما استغرب من أمر على ، وكنت أحس في اضطراب قلبي المستمر بكل تقلبات الامور الانسانية . ان هذه الحياة العاصفة لم تدع لي سلاما في الداخل أو راحة في الخارج . كنت سعيدا في مظهرى ولم تكن لدى عاطفة تقوى على احتمال محنة التفكير أستطيع بها حقا أن أرضى عن نفسي . أنني لم أستشعر قط رضا كاملا عن الآخرين أو عن نفسي ، كان صخب الناس يطمش صوابي وكنت أضيق بالعزلة . كنت دائما في حاجة الى تفكير المكان ولم أكن أحس بالراحة في أي مكان . ومع ذلك فقد كنت موضع الترحيب وكان الناس يودونني ويحسنون استقبالى ويدلونوني في كل

مكان ٠٠٠٠ لم يكن لى من عدو أو حقود أو حسود ، ولما كان الناس لا يسعون الا لاسداء المعروف لى ، فانى غالبا ما كنت احسن بلذة اسداء المعروف لكثير من الناس . كنت بغير مال او وظيفة ولم يكن هناك من يرعاني ولم تكن لدى مواهب كبيرة احسنت تسميتها أو التعرف عليها ، وكنت أستمتع بالمزايا المتصلة بذلك كله ولم أك أرى أحدا فى أية حال له من الحظ أفضل من حظى ، واذن فماذا كان ينقصنى لأكون سعيدا ؟ اننى لاجهل ذلك ، ولكننى اعلم اننى لم اكن سعيدا . ماذا ينقصنى اليوم لاكون أتعس الخلق طرا ؟ لا شىء من كل ما استبطاع البشر اضافته من عنده للوصول الى ذلك . واذن فى هذه الحالة التى تستحق الرثاء لن اغير كذلك من حالى أو قدرى مقابل أسعدهم حظا بل اننى أفضل أكثر من ذلك لو ظلمت أنا نفسى بكل شقوتى على أن أكون أيا من أولئك الناس بكل هنائهم . . وباقتصادى على نفسى وحدى ، فانى أعتدى حقا على الغذاء الخاص بى . . . ولكن هذا الغذاء لا ينفد . . . اننى أكفى نفسى بنفسى ولو اننى اجتر - كما يقال - على لا شىء ، وان خيالى الذى نصب وأفكارى التى خدمت لم تعد تمد قلبى بزاد . . ان روجى المثقلة التى تعطلها أعضائى تنهار يوما بعد يوم ولم يعد لها - تحت وطأة هذه الاثقال - من قوة تستطيع معها ان تنطق ، كما كان العهد من قبل ، خارج رداها البالى .

ان هذا الرجوع الى أنفسنا هو ما تضطرننا اليه الشدائد ولعل ذلك ما يجعلها أقل ماتكون احتمالا لدى معظم الناس . أما بالنسبة لى - أنا من لأجد فى لوم نفسى سوى هفوات - فانى أتهم ضعفى من أجلها ، وأتعزى لان شرا مدبرا لم يخامر قلبى قط .

ومع ذلك - فما لم أكن غيبا - انى لى أن أتأمل موقفى لحظة واحدة دون أن أراه كذلك مرعبا كما شاء لهم أن يجعلوه ، ودون أن أفضى حزنا وبأسا ؟ اننى بدلا من ذلك ، وأنا أشد الناس حساسية ، أتأمله ولا أتأثر له ، كما اننى بغير صراع او مجاهدة مع ذاتى أرى نفسى بغير مبالاة تقريبا فى حال قد لا يستطيع أى انسان آخر ان يحتمل مشهدها دون فزع .

كيف وصل بى ذلك الى هذا المدى ؟ لقد كنت أبعد ما أكون عن هذه الحالة الامنة لدى أول شك فى المؤامرة التى حيكت خيوطها من حولى منذ امد بعيد دون أن أنتبه اليها مطلقا . لقد قلب هذا الاكتشاف الجديده كيانى رأسا على عقب ، وفاجأتنى النذالة والحيانة على حين غرة . ترى أية نفس فاضلة هيئت لهذه الالوان من العذاب ؟ انه كان يجب أن تستحقها

حتى تتنبأ بها . لقد سقطت في كل الشرك التي حفرت تحت أقدامى ، واستحوذ على الغيظ والغضب والهديان ففقدت اتزانى . لقد اضطرب عقلى ، ومن خلال غياهب الظلمات الموحشة التى لم يكفوا عن ابقائى مفرقا فيها . . لم أعد المح بصيصا من النور أهتدى به أو سندا أو متنفسا أستطيع بهما أن اظل ثابتا وأن اقاوم اليأس الذى كان يشدنى اليه .

كيف يستطيع المرء أن يعيش سعيدا وهادئا في مثل هذه الحالة البشعة ؟ اننى لا أزال اعانيها ولازال غارقا أكثر من ذى قبل . ولقد وجدت فيها الهدوء والسلام وهانذا أعيش فيها سعيدا آمنا وهانذا أسخر مما يسببه مضطهدى لانفسهم من عذاب مقيم ، لا يستطيع تصديقه . في حين أنا احيا في سلام مشغولا بالازهار ونصالها واللهو البريء . بل ولا أفكر فيهم .

فكيف تم هذا الانتقال ؟ لقد تم ذلك طبيعيا ، دون أن أشعر وبغير مشقة . لقد كانت المفاجأة الاولى مروعة ، لقد وجدتنى أنا الذى كنت أحسب نفسى جديرا بالحب والتقدير ، أنا الذى كنت أعتقد اننى مبعجل معزز لاننى كنت أستحق ذلك . . لقد وجدتنى فجأة في اهاب وحش مرعب لم يك له من قبل ضريب .

اننى لأرى جيلا كاملا يندفع بأسره نحو اعتناق هذا الرأى العجيب دون تفسير أو شك أو خجل ، ودون أن أستطيع أن أصل قط . إلى معرفة علة هذا الانقلاب الغريب . لقد ناضت في عنف ، وكأنما تم عمل الا على احكام قيدي . لقد أردت أن أضطر مضطهدى الى التفاهم معى ، ولكنهم لم يأبهوا ، وبعد أن طال تعذيبى دون نتيجة كان لابد لى من أن استرد أنفاسى ، ومع ذلك فقد ظل الامل يراودنى دائما . وكنت أحدث نفسى قائلا : « ان خبلا على هذا القدر من التبلىد ، وتمنعا على هذا القدر من السخف ، لا يستطيع أن يشتمل الجنس البشرى قاطبة ، فهناك ذوو عقول لا يسبهمون في هذا البنيان ، وهناك نفوس عدول تمقت المخاتلة والخونة . فلأبحث على القمى في نهاية المطاف انسانا فان وجدته فقسد . أفجموا » لقد بحثت عبثا ولكننى لم أجده مطلقا . ان التحالف شامل بغير استثناء أو رجعة واننى لوائق من أننى سأختتم حياتى في هذا المعزل المخيف دون أن أنفذ أبدا الى خفائه .

اننى في هذه الحالة التى تستحق الرثاء ، بعد مخاوف طويلة ، وجدت بدلا من اليأس الذى كانا كان يجب أن يكون نصيبى في نهاية الامر ، وجدت من جديد الصفاء والأمن والسلام بل السعادة ما دام كل يوم من

أيام حياتي يذكرني في غبطة بالامس الدابر حتى لاأطعم في غدى في أكثر من ذلك .

من أين يأتي هذا الاختلاف ؟ من أمر واحد : ذلك انني تعلمت كيف أحمل نير الحاجة دون تدمر ، ذلك انني كنت أجهد في أن أظل متعلقا كذلك بألف شيء ، وانه حين أفلتت مني تلك الدعائم تباعا واقتصرت على نفسي وحدي لقيت الاستقرار أخيرا . أما وقد ضيق على الخناق من كل جانب فانني أحتفظ بتوازني لانني لاأتعلق بشيء بعد ولا أعتمد على غير ذاتي .

انني حين كنت أثور في كثير من الحماس ضد الرأي العام كنت أحمل كذلك نيره دون أن أفطن الى ذلك . ان المرء ليود أن ينال التقدير ممن يقدرهم ، وكلما استطعت أن أظن بالناس ، أو ببعضهم على الاقل خيرا لم يكن ممكنا أن أهمل آراءهم كذلك بالنسبة لي . لقد كنت أرى أن حكم الرأي العام عادل في أغلب الامر ، ولكنني لم أكن أرى أن تلك العدالة نفسها كانت نتيجة مصادفة ، وأن الأسس التي يقيم عليها الناس آراءهم ليست مستمدة الا من أهوائهم أو من معتقداتهم التي هي ثمرتها ( أرى الآهواء ) ، وانه حتى عندما يصيبون في أحكامهم فانه غالبا ما تصدر كذلك هذه الاحكام الصائبة عن مبدأ فاسد كما يحدث عندما يتظاهرون بتشريف قدر امرئ لنجاح وصل اليه ، لا بروح من العدالة ولكن ليتخذوا مظهر عدم التحيز وهم يفتابون نفس الشخص من نواح أخرى كما يروق لهم .

ولكنني حين رأيتهم - بعد كل هذا البحث الطويل العقيم - يظنون جميعا بغير استثناء في أشد النظم ظلما وسخفا استطاعت روح الشر أن تنشق عنها . . . وحين رأيت انه عندما يتعلق الامر بى يطرد العقل من الرءوس والعدالة من القلوب جميعا ، وحين رأيت جيلا متهورا يستسلم بأسره لغضبة قادته العمياء ضد تعس لم يرتكب أبدا ، ولم يرد ، ولم يسبب أذى لانسان ، وحين - بعد أن جهدت عشا في البحث عن انسان ، كان من الواجب على في نهاية الامر أن اطفئ سراجي وأصيح قائلا : لم يعد هناك بعد من انسان . عندئذ بدأت أراني وحيدا على الارض وأدركت ان معاصري لم يكونوا بالنسبة لى سوى كائنات آلية لاتصرف الا بقوة الاندفاع التي لم أكن بمستطيع أن أقوم بعملية حسابية لحركتها الا عن طريق «قوانين الحركة» . ان أية نية أو أية عاطفة كنت أستطيع افتراضها في نفوسهم لم تك أبدا لتفسر لى مسلكهم نحوى في صورة أستطيع أن أدركها ، ومن ثم توقفت دخائل نفوسهم عن أن تكون شيئا ما بالنسبة لى . اننى لم أعد أرى فيهم سوى كتل متفساوتة الحركة مجردة أمامى من كل قيمة خلقية .



اننا ننظر أكثر ماننظر حين يصيبنا الأذى الى النية أكثر من نظرنا الى الأثر . ان قطعة من القرميد تسقط من سقف قد تكون أصابتها أشد ، ولكنها لاتسبب من الايلام ما تسببه قطعة من الحجر تسدد عن قصد بيد شريرة . ان الضربة قد لاتصيب الهدف أحيانا ولكن القصد لا يخطيء مرماه ابدا . فالإلم الحسى هو أقل ما يحسه المرء من أصابات القدر . وحين لايعرف الاشقياء الى من يعزون مايحسون من شقاء فانهم ينسبون الى القدر الذى يمثله شخصاً ، والذى يعبرونه عيوناً وادراكاً يستطيع بها أنلامهم عن قصد . وهكذا يستشيط اللاعب غيظاً حين يصيبه الغم من جراء الخسارة دون أن يدري على من يصب جام غضبه . انه يتخيل قدراً يعتمد التحرش به عامداً لايلامه ، وحين يجد ما يغذى غضبه ، يحتد وتشتعل ثورته ضد العدو الذى توهمه . أما الرجل العاقل الذى لايرى فى كل ما يحل به من رزايا سوى ضربات الضرورة العمياء فانه لاتعتبره هذه الاهتياجات المجنونة . انه يصرخ فى ألمه ولكن دون هياج وبغير غضب ، وهو لا يحس من الإلم الذى غدا فريسة له بغير الإصابة المادية ، أما الضربات التى يتلقاها فمهما أصابت جسده فانها لا تصل قط الى قلبه .

انه لكثير أن يصل الامر فى ذلك الى هذا الحد ، ولكن ليس هذا كل شيء ان توقف عنده . ان فى هذا ايقافاً للالم ولكن ذلك يعنى ترك الجذور ذلك لان هذه الجذور ليست فى الكائنات الغريبة عنا بل هى فى ذاتنا وهنا يتحتم العمل على اقتلاعها نهائياً . ان ذلك هو ما استشعرته جلياً منذ بدأت اعود الى نفسى . ان عقلى لايرى سوى سخافات فى كل التفسيرات التى كنت أحاول أن أرجع اليها كل ما يحل بى . اننى أدركت أن أسباب هذا كله وأدواته ووسائله كان يجب أن تكون عدما بالنسبة لى ما دامت مجهولة لدى ولا يستطاع تفسيرها ، وانه كان يتعين على أن أعد تفاصيل ماحل بى كما لو كانت من فعل القدر وحسده ، وما كان على أن افترض توجيهها أو قصداً أو دافعا خلقياً، وانه كان يجب على أن أخضع لها دون تفكير ودون تمرد لان ذلك لم يكن مجدياً ، وان كل ما كان على كذلك أن أقوم بعمله فى هذه الدنيا ، اذ اعتبر نفسى فيها ككائن سلبى سلبية مطلقة ، هو اننى يجب ألا أستنفذ فى مقاومة غير مجدوية لقدرى ما كان باقياً الى من قوة تعينى على احتمالها . ذلك ماكنت أحدث نفسى به وكان عقلى وقلبى يؤمنان عليه ، ومع ذلك فقد كنت أحس بهذا القلب لايزال يتذمر . من أين جاء هذا التذمر ؟ لقد بحثت عنه ووجدته ، ان مصدره عزة النفس التى - بعد ان استثيرت ضد الناس - ظلت تقاوم العقل .

ان هذا الكشف لم يكن من السهولة بالقدر الذي قد يظنه المرء لان بريننا مضطهدا يظل طويلا ينظر الى زهو فرديته الضئيلة كأنما هي حب مجرد للعدالة . ولكن ما أن يعرف كذلك النبع الحقيقي معرفة تامة حتى يغدو من اليسير انضابه أو - على الأقل - تحويله . ان احترام المرء لنفسه هو أكبر محرك للنفوس العزيزة، كما أن حب الذات - الغزير في أوهامه - يتخفى ليتبدى للبرء وكأنما هو هذا الاحترام للنفس ، ولكن بما أن ينكشف ذلك الغش في نهاية الامر ، ولا يعود حب الذات يستطيع أن يستخفى ، حتى لا يعود هناك اذ ذاك ما يخشى منه ، ومع أن المرء يقضى عليه في صعوبة الا أنه يقهره على الأقل في يسر .

انه لم يكن لدى أبدا ميل كبير للاعتداد بالنفس ولكن هذه العاطفة المصطنعة كانت تتوقد في نفسى حينما كنت في المجتمع وبخاصة حين غدوت مؤلفا . ربما كان حظي منها لا يزال أقل مما لدى غيري ومع ذلك فقد كان لدى منها قدر هائل .

ان الدروس القاسية التي تلقيتها سرعان ما احتجزته في حدوده الاولى انه (أى الاعتداد بالنفس) ابتداء بالثورة ضد الظلم ولكنه انتهى بأن احتقره . وهو بانعكاسه على روحى وبقطعه للعلاقات الخارجية التي تجعله كثير المطالب وبعزوفى عن المقارنات والمفاضلات قنع بأن أكون طيبا بالنسبة لنفسى ، وعندئذ - وقد أصبح ( الاعتداد بالنفس ) حبا لذاتى - انتظم فى سلك الطبيعة ثانية وخلصنى من نير عرف المجتمع .

منذ ذلك الوقت استعدت سلام الروح بل وما يكاد يكون الهناء بعينه ، ذلك لانه فى أى موقف يجد المرء نفسه ، فانه لا يشقى دائما الا بسببه (الاعتداد بالنفس) وحين يصمت ، والعقل يتكلم ، فان العقل يعزينا فى نهاية الامر عن كل الآلام التي كان تجنبها يتوقف علينا بل وانه يقضى مادامت لا تؤثر علينا فورا ، ذلك انه من المؤكد عندئذ أن المرء يستطيع أن يتجنب أشد أصاباتها ابلا ما بالكف عن الاهتمام بها . أنها لا شىء بالنسبة لمن لا يفكر فيها . ان الاساءات والاحن وهضم الحقوق والاهانات والمظالم ليست شيئا لمن لا يرى فى الآلام التي يقاسمها سوى الألم نفسه ، لا النية فيه ، ولن لا تعتمد مكانته فى تقديره الشخصى على ما يروق للآخرين أن يأذنوا له به . وكيفما يود الناس رؤيتى فانهم سوف لا يستطيعون تغيير ذاتى . اننى برغم قوتهم وبرغم كل دسائسهم الدفينة سأظل - مهما فعلوا - كما انا ، بالرغم منهم . حقا ان ميولهم من ناحيتى تؤثر على مركزى الفعلى . ان الحاجز الذى أقاموه بينهم وبينى بسببى كافة موارد القوت والمعونة فى شيخوختى وعوزى . انه يجعل

من المال نفسه شيئاً غير ذى نفع مادام لا يقوى على ان يوفر لى المطالب  
الضرورية . انه لم تعد هناك صلات ولا مساعدات متبادلة ولا مراسلات بينهم  
وبيني . أما وقد غدوت وحيدا بينهم فانه لم يعد لى من مورد سوى ذاتى فقط .  
وهذا المورد شحيح فى سنى هذه وفى الحالة التى أنا عليها . ان هذه  
الآلام بالغة ولكنها فقدت كل وطأتها على منذ عرفت كيف أحتملها دون ان  
أثور بسببها . ان النواحي التى نستشعر فيها الحاجة الملحة نادرة دائما ،  
ويضاغف منها التبصر والخيال ، وان المرء يستشعر القلق ويشقى نفسه  
بسبب استمرار هذا الاحساس . وأما بالنسبة لى فمهما أعلم أننى سأقاسى  
فى الغد فانه يكفى ، لأكون هادئا ، ألا أقاسى اليوم . اننى لا أثار اطلاقا  
مما أتوقه من شر ولكن فقط . مما أحس ، وذلك ما يجعله أمرا تافها ، ومادمت  
وحيدا ومرضا ومهمل على سريرى ، فاننى أستطيع أن أموت فوقه . فإقة  
وبردا وجوعا دون ان يشق ذلك على أحد . ولكن ما أهمية ذلك ان لم  
يشق على أنا نفسى ، وكان اهتمامى بمصيرى ، مهما يكن ، أقل من اهتمام  
الآخرين به ! أليس هذا عبثا ، وعلى الاخص فى سنى هذه ؟ اننى تعلمت  
أن أرى بغير اكتراث الحياة والموت والمرض والصحة ، والغنى والفقر ،  
والمجد والعار على السواء . ان الشيوخ الآخرين جميعا يتوجسون من كل  
شئ ، وأما أنا فلا يقلقنى أى شئ ، اذ يستوى لى كل ما يستطيع أن يحل  
بى ، وليس عدم المبالاة هذا ثمرة حكمتى ولكنه من عمل أعدائى اذ هو  
يصبح تعويضا عن الآلام التى يسببونها لى ، أما وقد جعلونى لا أثار  
بالشدائد فانهم أحسنوا الى أكثر مما لو أنهم جنبونى رمياتها ، فقد كنت  
سأظل أتهيئها مادمت لم أجربها بدلا من أن أقهرها فلا أعود أخشأها .

ان هذا الميل يسلمنى ، وانا بين ما يعترض حياتى من صعاب ، الى  
اهمال ذاتى اهمالا يكاد يكون مطلقا كما لو كنت أحيأ أحيانا حياة رضية  
تماما . وفيما عدا اللحظات القصار التى يردنى فيها وجود الاشياء الى أشد  
ألوان الحيرة الموحجة ، فانه فيما بقى من زمن - وقد أسلمتنى ميولى الى  
المواظف التى تجتذبنى - يغتذى قلبى كذلك على المشاعر التى كان محلوقا  
من أجلها فأستمتع بها مع الكائنات الخيالية التى تخلقها ، التى تتقاسمها  
كما لو كانت تلك الكائنات موجودة فعلا . انها كائنة بالنسبة لى أنا من  
خلقتها ، فأنا لا أخشى أن تخوننى أو تهجرنى ، انها ستظل قائمة ، مادامت  
شقتوى ، وستكون كفيفة . بأن تنسينى اياها .

ان كل شئ يعود بى الى حياتى السعيدة الحلوة التى ولدت من أجلها :  
اننى أقضى ثلاثة أرباع حياتى اما مشغولا بأمر ثقافية ، لطيفة مع ذلك ،  
أسلم لها فى لذة فكرى وحواسى ، أو فى صحبة بنات خيالى التى خلقتها

وفق رغبة قلبي ، والتي يفدى اتصالى بها مشاعره ، أو مع نفسى فقط راضيا عن ذاتى وقد أفعمت هناء أحس اننى أستحقه . كان حبي لذاتى فى هذه الامور جميعا يقوم بكل المهمة ، أما عزة النفس فليس لها دخل فى ذلك . وليس الامر كذلك فى اللحظات الكثيرة التي أفضيها كذلك بين الناس العوبة للاطفاتهم الخداعة ومجاملاتهم المنتفخة الفارغة ومكرهم المعسول . وعلى أى وجه تلقيتها فانه كان للكرامة عندئذ دورها . فالكراهية والضغينة اللتان أشهدهما فى قلوبهم من خلال هذا الغلاف الغليظ تمزقان قلبى أسى ، هذا الى أن انسياقهم فى غباء وراء فكرة اعتبارى مغفلا تضيف الى هذا الاسى كذلك قدرا تافها من الغم هو ثمرة اعتداد بالنفس ابله ، أحس بكل حماقته وان كنت لأستطيع التغلب عليه . ان الجهود التي بذلتها لأتجلد أمام نظراتهم الشامتة والهازئة لا يمكن تصورها . لقد مررت مائة مرة بالمتنزهاة العامة وبالأماكن التي يكثر تردد الناس عليها وليس لى من هدف سوى رياضة نفسى على هذه المعارك المريرة ولكننى لم أعجز عن الوصول الى ذلك فحسب بل اننى لم أتقدم البتة كذلك ، وقد خلقتنى كل جهودى المضنية ، الفاشلة مع ذلك أيضا ، وقد أصبحت كما كنت من قبل من السهل ازعاجى واغاضتى واثارتى .

وحيث كانت تسيطر على حواسى لم أكن أستطيع اطلاقا - مهما فعلت - ان أقاوم انطباعاتها ، ولطالما أثر الشيء عليها (على الحواس) فان قلبى لايفتأ يتأثر بها ، ولكن تلك العواطف العابرة لاتدوم الا بقدر مايدوم الاحساس الذى يسببها . ان وجود الرجل الحقود يؤثر فى تأثيرا عنيفا ، ولكن ما أن يخفى حتى تتوقف الانطباعة ، وحالما لا أعود أراه . . لا أفكر فيه بعد ، ومهما أعلم انه سيشغل بى فلن أستطيع أن أشغل به .

ان الألم الذى لأحسه الآن مطلقا لا يؤثر فى على أى وجه ، وان مضطهدا لأراه مطلقا ، هو لاشيء بالنسبة لى . اننى أحس فضل ما يضيفه هذا الموقف على من يتصرفون فى مصيرى . فليتصرفوا اذن كما يروق لهم بل اننى أفضل كذلك أن يعذبونى دون مقاومة على أن أكره على التفكير فيهم لأحتمى من ضرباتهم .

ان تأثير حواسى هذا على قلبى يسبب العذاب الوحيد فى حياتى . اننى حيث لايقع نظرى على انسان لأفكر البتة فى مصيرى فلا أعود أحس بهذا المصير ولا أعود أتألم . اننى سعيد وراض حين لا يكون هناك شاغل أو عقبة ، ولكننى نادرا ماأفقت من ضربة محسوسة ، وحين يكون تفكيرى فيه ضئيلا فانه تكفى لأزعاجى ايماءة أو نظرة حقد الملحها أو كلمة مسمومة تلتقطها أذنى أو خبيث ألفاه ، وكل ما أستطيع عمله فى مثل هذه الحالة

أن أنسى سريعا جدا وأن أهرب . ان اضطراب قلبي يختفى باختفاء دافع الاضطراب وأعود الى السكينة حالما أكون وحيدا . ولئن أقلقنى أمر ما فهنا الخوف من أن ألقى فى طريقى أمرا جديدا موجعا ، وعندئذ يكون عذابى الوحيد ، ولكنه يكفى ليبدل من سعادتى . اننى أقطن فى وسط باريس ، وعند خروجى من منزلى أتحسر على الريف والوحدة ، ولكن ، على أن أبحث عنهما بعيدا حتى انه قبل أن أستطيع أن أتفلسف كما أشاء أجد فى طريقى الف شيء يعتمر قلبي . وينقضى نصف النهار فى هموم قبل أن أصل الى الملاذ الذى أسعى اليه وأكون سعيدا على الاقل اذا ما تركت أكمل طريقى . ان اللحظة التى أفلت فيها من موكب الاشرار لى لحظة ممتعة ، وحالما أجد نفسى تحت الاشجار وسط الخضرة أحسب اننى فى جنة على الارض وأتذوق متعة داخلية قوية كما لو كنت أسعد الاحياء طرا .

اننى لأذكر تماما أنه خلال فترات هنائى القصار كانت هذه الجولات الانفرادية نفسها التى أجدها اليوم بهذه المتعة ، لأطعم لها بل وتثير ضيقي وحين كنت فى زيارة أحد الناس بالريف كانت تدفعنى الحاجة الى القيام بشيء من الرياضة وتنفس الهواء الطلق الى الخروج وحيدا فى أغلب الامر فكنت أخرج للتنزه - هاربا كلس - منطلقا الى الحدائق أو الريف . ولكن بدلا من أن أجد فيها الهدوء الممتع الذى أتذوقه فيها اليوم كنت أحمل اليها ثورة الافكار التافهة التى كنت أشغل بها فى المجتمع ، وكانت تلاحقنى هناك ذكري الرفاق الذين خلفتهم ورائى . وفى عزلتى كانت عنجهية عزة النفس وصخب الناس تطفئ فى ناظرى نضارة الأعراش وتزعج أمن الانعزال . ومهما كنت أوغل هاربا فى أعماق الغابة كانت تلاحقنى حيثما ذهبت جماعة ثقيلة فتجذب عنى الطبيعة جميعا . ولم يحدث اننى عدت فوجدتها بكل مفاتها الا بعد أن تخلصت من العواطف الاجتماعية ومن موكبها التعس .

ولما كنت مقنعا باستحالة اشتمالى لهذه الحركات البدائية غير الارادية ، فقد كفت عن بذل جهودى فى هذا المضمار . اننى أدع دمي يتقد ، والغضب والاستنكار يستحوذان على حواسى لدى كل لطة . اننى أترك للطبيعة هذا الانفجار الاول الذى لم تكن قواى جميعا لتستطيع ايقافه أو تعطيله . اننى أحاول فقط ايقاف ما يستتبعه ذلك قبل أن يكون له أى أثر . ان العيون التى يتطير منها الشرر ، واحتقان الوجه ، وارتعاش الاطراف ، والخفقان الحائق . . كل هذا يرجع الى الحس وحده ولا يملك التعقل حيالها شيئا . ولكن بعد أن يترك للسجية أن تطلق انفجاراتها الاولى لتعمل عملها ، يستطيع المرء أن يصبح مرة أخرى سيد نفسه الحقيقى

رهو يستعيد حواسه شيئاً فشيئاً . ان ذلك هو ما حاولت عمله دهرًا طويلًا  
 دون أن أنجح ، ولكن وفقت إليه في نهاية الأمر . وبعسد أن توقفت عن  
 استخدام قوتي في مقاومة غير مجدية ، أراني أنتظر لحظة الانتظار تاركًا  
 التصرف لعقلي ، ذلك لأنه لا يتحدث إلى الا حينما يستطيع أن يجعلني أصغى  
 إليه . ايه ماذا أقول ؟ وأسفاه . . عتلى ؟ اننى لأكون جد مخطيء كذلك  
 ان أنا نسبت إليه شرف هذا الانتصار . ذلك لأنه لانصيب له فيه : ان تكن  
 شىء يصدر كذلك عن مزاج متقلب تهزه ريح عاتية ولكنه يعود إلى الهدوء  
 في اللحظة التي تكف فيها الريح عن الهبوب . انه طبعى المتوقد الذي  
 يثيرني ، وانه لطبعى المتراخي الذي يهدئني . اننى لأستسلم لكل الحوافر  
 الحالية ان كل صدمة تمنحني حركة قوية وقصيرة ، وما ألا تعود هناك  
 صدمة حتى تتوقف الحركة ، ولا يمكن أن يطول أمد أى من آثارها في نفسى  
 ان كل احداث القدر وكل مؤامرات البشر قانما تستطيع أن تنال من امرىء  
 بهذا التكوين . كان من الواجب أن تتجدد الانطباعة في كل لحظة كى يدوم  
 احساسى بالآلام ، ذلك لان الفترات مهما قصرت تكفى لتعيدنى الى نفسى .  
 اننى مايرضاه الناس طالما استطاعوا التأثير على حواسى ، ولكننى أصبح  
 نانية ماأرادته الطبيعة بمجرد تراخيهم ، وتلك - مهما كان فى مقدورهم أن  
 يفعلوا - حالى الأكثر استقرارا التى أتذوق عن طريقها - برغم القدر -  
 سعادة أحس اننى خلقت لها . لقد وصفت تلك الحالة فى واحد من أحلام  
 يقظتى (١) وانه ليروقنى جدا حتى اننى لا أرغب فى أمر آخر سوى دوامها  
 ولا أخشى الا ان أراها تتكرر . أما الألم الذى سببه الناس لى فلا يؤثر فى  
 بآية حال . ان الخوف وحده من الألم الذى لايزال فى امكانهم أن يسببوه  
 لى هو الكفيل وحده بأن يثيرنى ، وأما وقد غدوت على ثقة من أنهم لم تعد  
 نديهم من وسيلة جديدة للنيل منى يستطيعون عن طريقها أن يؤثروا فى  
 باحساس مقيم ، فاننى لأسخر من كل مكائدهم وأستمتع بذاتى بالرغم  
 منهم .

(١) يقصد روسو هنا ماكتبه في معنى السعادة في الجولة الخامسة .

## الجولة التاسعة

السعادة حالة مقيمة لا تبدو وكأنها هيئت للانسان في الحياة الدنيا .  
ان كل ما على الارض في مد متواصل لا يسميح لشيء بأن يتخذ سمة ثابتة .  
أن كل شيء يتغير من حولنا . اننا انفسنا نتغير وليس هناك من يستطيع  
أن يطمنن الى أنه سيحب في الغد ما يحبسه اليوم ، ومن ثم كانت كل  
مشروعات الهناء لهذه الحياة أوهاما . فلنغتنم رضا النفس حين يقبل  
ولنحذر من أن نباعد فيما بيننا وبينه بخطئنا ، ولكن لا ينبغي أن نقدم على  
مشروعات تقيده لان تلك المشروعات محض جنون . اننى قلما رأيت قوما  
سعداء بل ربما لم ألتق بانسان سعيد ، ولكننى طالما شهدت قلوبا راضية .  
ومن بين كل ما أثر فى كان ذلك الذى أرضانى شخصيا أكثر الرضا اننى  
أعتقد أن هذا تناجح طبيعى لسلطان الاحاسيس على مشاعرى الداخلية . ان  
السعادة ليست لها دلالة خارجية ، ولكي نتعرف عليها يجب أن نطالع  
قلب الانسان السعيد . أما الرضا فيقرأ فى العينين وفى المظهر وفى  
اللهجة وفى السلوك ويبدو وكأنما ينتقل الى من يلاحظه . أهناك فرحة  
أحلى من أن نرى شعبا بأكمله ينغمس فى المرح يوم عيد ، ومن أن نرى  
كُل القلوب تتفتح للأشعة المنتشرة ، للمتعة التى تمر سريعة ، ولكن قوية ،  
فى ثنايا سحائب الحياة ؟

حدث منذ ثلاثة أيام ان جاء م.ب. M.P. فى عجلة غير عادية ليرينى  
هاكتبه السيد دلامبير M. d'Alembert (١) فى مديح مدام جيوفرين  
L'Eloge de Mme Geoffrin

(١) دالامبير D'Alembert (١٧١٧ - ١٧٨٣) ، كاتب وفيلسوف فرنسي أحد  
مؤسسي دائرة المعارف الفرنسية L'Encyclopédie وعضو باكاديمية العلوم .  
والمقصود هنا خطابان أرسلهما الى كوندورسيه Condorcet نشر عام ١٧٧٧ .  
( كوندورسه فيلسوف فرنسي كان سكرتيرا دائما لجمع العلوم ) .  
( Oeuvres postumes de l'Alembert, Paris. T.I. p.p. 132 - 271. )  
واما مدام جيوفرين Mme Geoffrin فهى سيدة صديقة للفلاسفة كانت تستقبلهم  
فى « سالونها » =

وقد سبقت المطالعة قهقهات طويلة مدوية على الجديد المضحك مما جاء في هذه القطعة ، وعلى التلاعب الهازل بالألفاظ الذى قال انها زخرت به . وقد بدأ القراءة وهو لا يزال يضحك وكنت أصغى اليه فى جد ساخرا منه وحين رأى اننى لأجاريه مطلقا توقف فى نهاية الامر عن الضحك . وكانت الفقرة الأطول والاكثر تكلفا من هذه القطعة تدور حول المتعة التى كانت تحسها مدام جيوفرين عند رؤيتها للاطفال ودفعهم للحديث . وقد استقى الكاتب - عن وجه حق - دليلا على كرم الطبع من وراء هذا الميل . ولكنه لم يكن يقف عند هذا الحد فكان يتهم فى اضرار بلؤم الطبع والشر كل من لم تكن لهم نفس الميول حتى انه قال ان المرء لو سأل من يقادون الى المشنقة أو عجلة التعذيب فانهم جميعا سيجمعون على انهم لم يكونوا يحبون الاطفال . كان لهذه المزاعم أثر فريد فى المكان الذى جاءت به . وعلى فرض أن ذلك كله صحيح أفكانت تلك مناسبة قوله ؟ أو كان من الواجب أن يفسد مديح امرأة لها تقديرها بصور عن الاعداء والمدننين ؟ لقد أدركت فى سر سبب ذلك التصنع القبيح ، وحين انتهى م.ب. M.P. من القراءة كاشفا عما ظهر لى طيبا فى المديح ، علقت بأن الكاتب حين كان يسطر ماكتب كان يحمل فى قلبه من الود أقل مما يحمل من الكراهية . وفى اليوم التالى ، وكان الجو لطيفا - ولو أنه كان باردا - قمت بجولة حتى المدرسة الحربية (1) وفى حسابانى أن أجد هناك طحالب

= وهذا بعض ما كتبه دالامير :

« كان لمدام جيوفرين كل ميول روح حساسة حلوة . لقد كانت تحب الاطفال بشغف ولم تكن ترى من بينهم واحدا دون أن ترق له . كانت تهتم ببراة وضعف هذه السن . وكانت تحب أن تلحظ فيهم الطبيعة التى - بفضل عاداتنا - أصبحت لا ترى الا فى الطفولة . كانت تسر من التحدث معهم ومن توجيه الأسئلة اليهم وكانت تضيق بالمرربات اللواتى كن يوحين اليهم بالاجابة . وكانت تقول لهم : « اننى أفضل اجاباتهم الساذجة عما تملين عليهم » . وتضيف قائلة « وددت لو وجه هذا السؤال الى كل من التمساء الذين سيلقون الموت بسبب جرائمهم : هل أحببتم الاطفال ؟ واننى لواقفة ان الاجابة ستكون نفيا » .

ويستطيع المرء أن يحكم من ذلك بأنها كانت تنظر الى الابوة كألد متعة فى الطبيعة ولكن كلما ازدادت قداسة هذه المتعة لديها ودت لو كانت ظاهرة خالية من المنفصات . ومن أجل ذلك كانت ترجو من لم يكن لديهم مال من بين أصدقائها الا ينزوجوا وكانت تقول لهم « ماذا سيكون مصير اطفالكم للقراءة ان فقدوكم فى سن مبكرة ؟ فكروا فى الرعب الذى يستولى عليكم فى ساعاتكم الاخيرة حين تتركونهم اشتباهاً من بعدكم ... أولئك الذين كانوا أمز الناس لديكم » .

(1) المدرسة الحربية فى وسط باريس وتمتد منها الى «شان دومارس Champ de Mars

مروج خضراء لا يزال معظمها موجودا الى الآن .



مزهرة ، وأثناء ذهابي ، استغرقت في حلم موضوعه زيارة الامس وما كتبه مسيو دامبير M. d'Alembert حيث كنت أعتقد تماما أن التركيبات الإضافية لم توضع بغير هدف ، وان مجرد التكلف لاحضار هذه الجزارة (الملزمة) لي - لي أنا من يخفون كل شيء عنه - عرفني تماما ماذا كان الهدف منها . لقد كنت وضعت صغاري في ملجأ اللقطاء (١٦) وكان هذا كافيا كي أبدو في صورة أب فاسد ، ومن ثم - فبالتمادي في هذه الفكرة واحتضانها - يستطيع المرء أن ينتزع منها تدريجيا نتيجة بديهية هي أنني كنت أكره الاطفال . وبتتبع سلسلة هذه المراحل عن طريق الفكر ، كنت معجبا بالفن الذي تستطيع به الصناعة الانسانية أن تحول الأشنساء من الأبيض الى الأسود . ذلك لانني لاأعتقد مطلقا أن هناك انسانا أحب أكثر مني رؤية الصغار يمزحون ويلعبون معا ، وغالبا ماتوقفت في الطريق وفي نزواتي لأشهد مداعباتهم وألعابهم الصغيرة في شغف لا أرى غيري يشاركني فيه وفي اليوم نفسه الذي قدم فيه م.ب. M.P. - قبل زيارته بساعة - كان في زيارتي صغيران من أبناء سوسوا Sousoi هما أصغر اولاد مضيبي ، وكان اكبرهما يناهز السابعة من عمره ، وقد قدما لتقبيلي في اخلاص . وبادلتها بحنان كبير ملاطفتها حتى بدأ عليهما - رغم فارق السن - سرور صادق بصحبتى . وأما بالنسبة لي فقد طرت فرحا حين أدركت أن شكلي العجوز لم ينفرهما ، بل ان الاصغر بدا وكأنما تقدم نحوى مختارا حتى أنني احسست في طفولة تزيد عن طفولتهما باننى قد تعلقت به مفضلا اياه ونظرت اليه وهو يبرح المكان في أسف وكأنما كان ابنا لي . اننى أدرك أن اللوم على وضع أطفالي في ملجأ اللقطاء ، انحدر في يسر مع قليل من التحوير ، الى لوم على أنني أب فاسد وعلى كراهية للاطفال ، ومع ذلك فمن المؤكد أن الخوف من مصير أسوأ ألف مرة بالنسبة لهم - ويكاد لايمكن تحاشيه بأية وسيلة أخرى - هو أشد ماجعلنى اصر على اتخاذ هذه الخطوة . وما دام لا يعيننى ماذا كان يمكن أن يصبحوا :

(١) ملجأ اللقطاء Les Enfants Trouvés مؤسسة يرجع انشاؤها الى القرن السابع عشر ، أودع فيه روسو كما يقول اولاده الخمسة وظل ضميره يؤنبه على فعلته طيلة حياته . وقد اثار روسو بنفسه تلك المسألة الهامة عدة مرات : مرة في الجولة الرابعة في « احلام اليقظة » ، وأخرى في الاضرافات « الكتاب السابع والثامن » ، وفي كتابه « اميل » ( الجزء الاول ) . . وفي خطاب الى مدام دوفرانكى Mme de Francueil في ٢٠ من ابريل ١٧٥١ . وكذا في خطاب الى مدام دوشوفنسوه Mme de Chenonceau في ٧١ من يناير ١٧٧٠ والى المسسيو دوسانجرمان Mr. de Saint-Germain في ٢٦ من فبراير ١٧٧٠ وفيها جميعا يحكم روسو على نفسه بناء على احساساته ومشارهه لا على إغلاله .

ومادمت غير قادر على تنشئتهم بنفسى ، فانه كان من الواجب فى موقفى أن ادع أمر تنشئتهم لاهمهم ، التى ربما أفسدتهم ، ولأسرتها التى ربما جعلت منهم شياطين . اننى لا أزال أرتعد كلما فكرت فى ذلك . ان ما صنعه محمد بسعيد (١) ليس شيئا بجانب ما كان يمكن أن يصنع بهم حياىلى وان الشراك التى نصبت لى فيما يتصل بذلك الأمر فيما بعد تؤكد لى الى حد كبير أن الخطة كانت معدة من قبل . والحقيقة أننى كنت أبعد من أن أتكهن حينئذ بهذه الدسائس الفظيعة ، ولكننى كنت أعرف أن أقل أنواع التربية خطيرة بالنسبة لهم هى تربية ملجأ اللقطاء فأودعتهم اياه . وربما كنت أعاود فعل ذلك وبقدر من التردد أقل بكثير أيضا اذا ما استوجب الامر ذلك . وانى لأعلم تمام العلم أنه ما من أب أشد حنانا منا كان من الممكن أن أكونه بالنسبة لهم مهما ضمؤل عون الاعتياد للطبيعة .

لئن كنت قد أحرزت بعض النجاح فى معرفة القلب الانسانى فإن السرور الذى كنت أحسه لدى رؤية الاطفال وملاحظتهم هو ما أكسبني هذه المعرفة ، ونفس هذا السرور فى شبابى هو الذى وضع فى طريقها نوعا من العقبات ، ذلك لاننى كنت ألهو مع الاطفال فى مرح شديد وبنفس خالصة حتى لم أكن أفكر مطلقا فى أن أدرسهم . ولكن حين تقدمت بى السن ولاحظت أن شكلى المتهدم يزعجهم امتنعت عن مضايقتهم ، وفضلت أن أحرم من متعة عن أن أكرر عليهم صفوهم . وأما وقد قنعت بارضاء نفسى بمشاهدة ألعابهم وكل تصرفاتهم الصغيرة ، فقد وجدت التعويض عن تضحيتى فى الأضواء التى يسرت لى الحصول عليها هذه الملاحظات عن الحركات الاولى والحقيقية للطبيعة ، هذه الحركات التى لايعرف كل علمائنا عنها شيئا . ولقد ضمننت كتاباتى الدليل على أننى قمت بهذا البحث فى عناية بالغه لايمكن معها أن أكون قد قمت به بغير لذة . ومن المؤكد أنه سيكون من أبعد الأمور تصديقا أن ال «هلويز» Heloise و «اميل» Emile كانا من عمل رجل لم يحب الاطفال .

انه لم يكن لى أبدا حضور البديهة ولا زلاقة اللسان ، ولكن منذ أن حلت بى المصائب تزايد ارتباك لسانى وعقلى . ان الفكرة واللفظ المناسب يضيمان منى على السواء ، فما من شيء يتطلب تمييزا أفضل ، أو اختيارا لتعبيرات أدق ، أكثر من الاحاديث التى نتبادلها مع الاطفال ، ومما يزيد أيضا من هذا الارتباك لدى هو اصفاء المستمعين ، وما يصفونه من تأويلات

(١) نحن لاندرى مايقصده روسو هنا بما صنعه النبى محمد بشخص يدعى سعيد ، وربما كان ذلك مثلا يتداول فى ذلك للوقت دلالة على نوع من التعصب الدينى ولو أن الديانة الاسلامية تخلو تماما من مثل ذلك .

ووزن لكل ما يصدر عن شخص يفترض فيه ، وقد كتب خصيصا للاطفال ،  
الا يخاطبهم الا وحيًا . ان هذا الحرج البالغ وما أستشعره من عجز .  
يربكني ويحيرني وربما كنت أروح نفسا أمام أحد ملوك آسيا منى أمام  
طفل على أن أستدرجه الى الثرثرة !

وهناك عائق آخر يقينى الآن أكثر بعدا عنهم . اننى منذ حلت بى  
المصائب أراهم بنفس السرور دائما ، ولكن لم تعد لى بهم نفس الألفة . ان  
الاطفال لا يحبون الشيخوخة . ان منظر الطبيعة الأفلة كرية فى عيونهم .  
ان نفورهم الذى لحظه يحزننى ، واننى لأفضل أن أمتنع عن ملاطفاتهم عن  
أن أسبب لهم ضيقا أو اشمئزا .

ان هذا الدافع الذى لا يؤثر الا فى النفوس المحبة حقا لا قيمة له لدى  
كل علمائنا وعالماتنا . ولم تكن مدام جيوفرين لتضيق الا أقل القليل بأن  
يجد الاطفال متعة فى صحبتها مادامت تجد هى هذه المتعة معهم ، وأما  
بالنسبة لى فان هذه المتعة تكون أسوأ من عدما . انها سلبية حينما  
تعوزها المشاركة ، فانا لم أعد بعد فى مركز أو سن أرى فيهما القلب  
الصغير لطفل يتفتح مع قلبى . لئن أمكن حدوث ذلك لى أيضا فان هذه  
المتعة - التى أضحت أشد ندرة - لاتصبح بالنسبة لى الا أكثر قوة وكنت  
أحسها تماما ذلك الصباح بسبب ما لقيته من ملاطفة صغار عائلة سوسوا  
Soussoi لا لان الحادمة التى كانت تصحبهم لم تثر احترامى ، واننى لم أكن  
أحس بالحاجة الى أن يصغى الى أمامها ، بل كذلك لان الروح المرحة التى  
صاحبت اقتراحهم منى لم تبرحهم قط ، ولانهم لم يظهروا استياء أو ضيقا  
وهم فى صحبتى .

آه لو كانت لاتزال لى بضع لحظات من ملاطفات بريئة صادرة عن  
القلب قد لاتصدر الا عن طفل لا يزال صغيرا ! لو أمكننى أن أرى أيضا فى  
بعض العيون الفرحة والرضا بوجودها معى فكم اذا من سرور وآلام كانت  
تعوضنى عنها انفصاحات قلبى القصيرة ، الحلوة مع ذلك ! آه اننى لن  
أكون مضطرا الى البحث بين البهائم عن نظرة العطف التى أباهها على الآدميون  
منذ الآن . اننى أستطيع أن أدلل على ذلك بقليل جدا من الامثلة التى هى  
دائما عزيزة بين ذكرياتى . وهالك مثلا كان حريا أن أنساه تقريبا فى أية مناسبة  
أخرى يصور الأثر الذى خلفه فى كل ما أعانيه من شقاء . حدث منذ عامين  
وأنا ذاهب لأنتزه فى ناحية نوفيل فرانس Nouvelle France أن توغلت  
مبعدا ثم إنعطفت يسارا . مستهدفا الدوران حول مونمارتر Montmartre  
فاخترقت قرية « كلينيانكور Clignancourt وكنت أسير لاهيا وحالما ، دون

أن انظر الى ما حولي ، حتى أحسست فجأة بركبتي وقد أمسك بهما ، ونظرت فوجدت طفلا صغيرا بين الخامسة والسادسة يحيط بركبتي بكل قوته وهو يتطلع الى في ألفة وحنان حتى تحركت جوائحي ، فأخذت أقول لنفسي : انه كان من الممكن أن أعامل على هذا النحو من صغاري . وأخذت الطفل بين ذراعي وقبلته مرات في فرح شديد ثم تابعت مسيرى . وأحسست خلال ذلك انني أفتقد شيئا ما ، وردتني على أعقابى حاجة طارئة . لقد كنت ألزم نفسى على تركى الطفل فجأة على هذه الصورة واعتقدت اننى أرى فى عمله - بغير سبب ظاهر - نوعا من الوحي لا تجدر الاستهانة به . وأخيرا وقد استسلمت للأغراء ، ارتددت على أعقابى وركضت نحو الطفل وعاودت تقبيله ومنحته ما يشترى به من قطائر نانثير Nanterre التي كان يمر بائعها هناك مصادفة . وبدأت أدفعه للثرثرة ، فسألته عن مكان أبيه فدلنتني على أنه هو ذلك الذي يحزم البراميل ، وكنت أتهدى لترك الطفل لأتوجه للتحديث معه عندما وجدت أنه قد سبقني اليه رجل عابس الوجه بدا لي وكأنما هو احدي تلك الحشرات التي يطلقها الناس في أعقابى .

وبينما كان هذا الرجل يسر اليه شيئا في أذنه إذ شاهدت عيني حازم البراميل تستقران على في انتباه بنظرة ليس فيها شيء من الود . وقد اعتصر قلبي هذا الامر على الفور . فتركت الأب والطفل في سرعة تزيد عما استغرقته فترة ارتدادى على أعقابى اليه من قبل ، ولكن في قلق - أقل بعثا للرضا - غير من مشاعري جميعا . ومع ذلك فغالبا ما أحسست بها تبعث في نفسى من جديد منذ ذلك الحين . لقد عاودت المرور كثيرا ب « كلينيانكور Clignancourt بأمل معاودة رؤية ذلك الطفل ، ولكن لم أجد أراه لا هو ولا أباه ولم يبق لي من تلك المقابلة سوى ذكرى حية تختلط دائما بالخلوة والمرارة ككل الانفعالات التي لا تزال تنفذ أحيانا حتى قلبي .

ان هناك عزاء عن كل شيء : لئن كانت لحظات سرورى نادرة وقصيرة فاننى أتذوقها - حين تمر بي - في لذة أشد مما لو كانت مألوفة لدى . اننى أجترها - كما يقسمال - عن طريق الذكريات الكثيرة ، ومهما تبلغ ندرتها فربما أكون أكثر سعادة - اذا كانت نقية خالصة - متى في أسعد أوقاتي . ان المرء يحسن الخنى في القليل حين تبلغ الفاقة به أشدها ، واز الصعلوك الذي يعثر على قطعة écu (١) من العملة يتأثر بذلك أكثر من تأثر غنى يعثر على كيس من الذهب . ان المرء ليضحك ان شهد في نفسى

(١) l'écu قطعة من العملة الفضية القديمة .

الانطباعة التى تخلفها أقل المسرات من ذلك النوع ، والتى أستطيع أن  
اختلفها برغم يقظة مضطهدى . وقد عرضت واحدة من أمتها منذ أربع  
أو خمس سنوات لا أكاد أذكرها الا وأحس بنشوة الراحة لأننى قد  
استمتعت بها تماما .

لقد توجهنا - زوجتى وأنا - ذات أحد لتناول طعام الغذاء عند بوابة  
مايو Maillot واخترقنا بعد الغذاء غابة بولونى Bologne حتى لامنييت  
La Muette وهناك اقتعدنا الاعشاب فى الظل فى انتظار مغيب الشمس  
حتى نعود بعد ذلك الهويينا عن طريق باسى Passy . وجاءت عشرون فتاة  
تشرف عليهن راهبة وجلس بعضهن وأخذ البعض الآخر يمرحن على مقربة  
منا . وفى أثناء لعبهن مر بائع حلوى يحمل « طبلته واسطوانته ودولابه »  
باحثا عن مشترين ، وقد لاحظت أن الفتيات الصغيرات كن يشتتهن كثيرا  
قراطيسه ، ويبدو أن اثنتين أو ثلاثة منهن كن يحملن معهن بعض الـ  
« ليارات liards (١) » فسألن الاذن باللعب ، وفى حين كانت المشرفة  
تتردد وتناقش . ناديت بائع الحلوى وقلت له : دع كلا من هاته الأنسات  
تسحب بدورها ويسأدفع لك عن الجميع . وقد أشاعت هذه الكلمة الفرحة  
فى الجماعة كلها ، هذه الفرحة التى كانت وحدها تعدل أكثر مما فى كيس  
نقودى لو اننى استخدمت كل ما به للحصول عليها . ولما رأيت كل واحدة  
منهن تتعجل دورها باستعمال شىء من الفوضى ، رتبتهن جميعا - بعد  
موافقة المشرفة - فى صف فى ناحية واحدة ، ثم أمرتهن الى الناحية المقابلة  
الواحدة بعد الاخرى بمجرد أن يقمن بالسحب . وبرغم أنه لم تكن هناك  
تذكرة بيضاء وأنه كان من نصيب كل منهن قرطاس على الاقل اذا لم يقدر  
لبعضهن الفوز حتى لا تعود واحدة منهن غير راضية تماما ، فقد أسررت  
الى بائع الحلوى - مستهدفا أن أزيد من فرحة المناسبة - أن يستخدم  
مهارته المعتادة فى اتجاهها المضاد ، وذلك بأن يسقط بقدر المستطاع أكثر  
ما يمكن من الأنصبة الطيبة ، واننى سأراعى ذلك عند محاسبته . وقد  
وزع من طريق هذا التدبير ، ما يقرب من مائة قرطاس بالرغم من أن  
واحدة من الفتيات لم تسحب أكثر من مرة واحدة، ذلك لأننى كنت اذ ذاك  
حازما بحيث لم أكن أود تحبيذ الافراط أو اظهار مفاضلات قد تبعث على  
الاستياء . وقد أوحى زوجتى الى من كان من حظهن أنصبة طيبة أن يشركن  
فيها زميلاتهن حتى تكون الأنصبة شبه متساوية وحتى تكون الفرحة أعم .  
وقد رجوت الراهبة أن تسحب بدورها ، وأنا شديد الخشية أن  
ترفض عرضى باحتقار ، ووافقت فى رقة وسحبت ، كما فعلت الطالبات ،

(١) Le Hard قطعة من العملة النحاسية القديمة .

وأخذت من غير كلفة ما جاءها ، واعترفت لها بفضل بالغ ووجدت في ذلك نوعا من التهذيب شد مراقني ، وأعتقد انه يفوق أدب تكلف الرفض .  
وخلال كل هذه العملية وقعت منازعات عرضت على محكمتي وجاءت هذه الفتيات تدافع كل بدورها عن قضيتها وأعطينني بذلك فرصة للالاحظ انه برغم عدم وجود واجدة جميلة يتنهن فان رقة بعضهن كانت تنسى المرء قبهن .

وأخيرا افترقنا وكل راض جدا عن صاحبه . وكان عصر ذلك اليوم واحدا من تلك الايام في حياتي التي أستعيد ذكرها بأكثر قدر من الارتياح . فضلا على ذلك فان الاحتفال لم يفلسني اذ انه مقابل ثلاثين « صلديا sols (١) » على أكثر تقدير حصلت على ما يساوي أكثر من مائة « ليار » liards من السرور ولو أن المتعة في الواقع لا تقاس بما ينفق في سبيلها ، والفرحة أشد صداقة لد « ليار » منها للجنيه . لقد عدت مرات كثيرة الى المكان نفسه في الساعة نفسها أملا أن ألقى هناك مرة أخرى المجموعة الصغيرة ولكن هذا لم يحدث أبدا .

ان هذا يذكرني بتسلية أخرى من النوع نفسه تقريبا ظلت ذكرها مقيمة أمدا أطول من هذه : كان ذلك في العهد المنكود عندما كنت ، وأنا أخالط الاغنياء والادباء ، مضطرا الى مشاركتهم متعهم الكثيرة . كنت في « لاشفريت La Chevette (٢) » في وقت عيد رب الدار وكانت أسرته بأكملها مجتمعة لحياته واستخدمت لهذه المناسبة كل مظاهر السرور الصاخب فلم يدخر شيء من تمثيل الى مادب الى صواريخ نارية ، ولم يكن هناك فراغ ليلتقط المرء أنفاسه بل انه كان يسلي نفسه بدلا من أن يتمتعها . وبعد الغذاء خرجنا لاستنشاق الهواء في الطريق حيث أقيم نوع من السوق هناك . وكان رقص ، وتنازل السادة فراقصوا الفلاحات ، أما السيدات فقد احتفظن بوقارهن وكانت تباع هناك فطائر حلوى des pains d'épice وخطر لشباب من الجماعة أن يشتري منها ليقذف بها الواحدة بعد الأخرى في وسط الحفل ، وقد سر الناس كل السرور برؤية كل هؤلاء الاجلاف يتدافعون ويتضاربون وينقلبون ليحصلوا عليها ، حتى ود الجميع لو ينغمسون في المتعة نفسها . واستمرت الفطائر تتطاير يمنا ويسرة ، وظلت الفتيات والصبية يجرون ويتساقطون فوق بعضهم البعض ويتداهسون وكان هذا يبدو رائعا للجميع . وفعلت مثلما فعل الآخرون بدافع الاستحياء وان كنت - في قرارة نفسي - لم أتسل بقدر ما فعلوا ،

(١) الصلدي le sol عملة قديمة تعول ٥ سنتيم او واحد على مشرين من الفرنك .  
(٢) لاشفريت La Chevette هو قصر مدام ديبيناي d'Épinay بالقرب من مونوروني .

ولكن حالما تضايقت بسبب نفاد مالى فى سبيل دهس الناس ، خلفت هناك الصحاب وذهبت لأتجول وحيدا فى السوق . وقد أدخل تنوع المعروضات السرور فى نفسى طويلا ، ولاحظت من بين الموجودين خمسة أو ستة من أهل سفوا Savoyards يتحلقون فتاة صغيرة كان لا يزال على سفطها دستة من التفاح الضامر كانت تود لو أنها تخلصت منها . وكان السفواثيون من جانبهم يودون لو أنهم خلصوها منها . ولكن لم يكونوا يملكون جميعا سوى « ليارين » أو ثلاثة وهذه لم تكن مخرجا كبيرا لاستخلاص التفاح كان هذا السفط بالنسبة لهم حديقة هسبريد Hespérides (١) وكانت الفتاة هى التين الذى يحرسها . وقد تسليت طويلا بهذه المزحة ووضعت خاتمة لها فى نهاية الامر ، وذلك بأن دفعت ثمن التفاح للفتاة الصغيرة وجعلتها توزعه على الصبية الصغار . وعندئذ شهدت واحدا من أحلى المناظر التى تستطيع أن تبهج قلب المرء ، هو رؤية الفرحة بمزوجة ببراءة السن تنتشر من حولى . ذلك لأن الشهود أنفسهم شاركوا فيها حين رأوها ، وأما أنا الذى شاركت فى هذه الفرحة بهذا الثمن الضئيل فقد زادت عليها لدى فرحة الاحساس بأنها كانت من صنيعى .

عند مقارنة هذه التسلية بنظائرها التى خلفتها للتو أحسست فى رضا بالفارق بين الميول السليمة والمتع الطبيعية وبين تلك التى تكون وليدة الشراء التى ليست سوى متع ساخرة وميتول خاصة هى ثمرة الاحتقار . ذلك لأن أى نوع من السرور ذلك الذى يستطيع المرء أن يجده فى مشاهدة قطعان من البشر أذلهم البؤس ساقطين فوق بعضهم البعض ويختنقون ويتداهسون فى خشونة لينتزعوا فى نهم بضع لقيمات من الفطائر وطثتها الاقدام وغطاها الوحل ؟

وأما من ناحيتى فانتى حين فكرت جيدا فى نوع اللذة التى كنت أتذوقها فى هذه الانواع من المناسبات ، وجدت أنها تكمن فى عاطفة عمل الخير. أقل منها فى متعة التطلع الى وجوه راضية . ان لهذا المشهد فى نفسى سحرا - برغم نفاذه الى قلبى - يبدو كأنما هو صادر عن الحس وحده . ولئن لم أر الرضا الذى أكون مبعثه - حتى ولو كنت مستوثقا منه - فانبى لا أستمتع به الا نصف استمتاع . بل هو كذلك بالنسبة لى متعة غير مغرضة لا تتوقف على مبلغ نصيبى منها ، ذلك أنه من بين الاحتفالات الشعبية ، كان دائما أشد ما يجذبني بقوة اليها هو الاحتفال الذى أشهد فيه وجوها مستبشرة . ومع ذلك فإن هذه البغية طالما حرمت من تحقيقها

(١) هسبريد Hespérides هن ثلاث بنات لملك خرافي يدعى أطلس Atlas من بلكن حديقة تنتج اشجارها ثمار تفاح من الذهب كان يحرسها تين له مائة راس .

فى فرنسا ، ذلك لان هذا الشعب الذى يدعى المرح قلما يبرزه فى العابه .  
اننى غالباً ما كنت أذهب فيما مضى الى المراقص الماجنة لأشهد هناك أفراد  
الطبقات الدنيا من الشعب يرقصون ، ولكن رقصاتهم كانت من الكآبة ،  
كما كان مظهرهم من الذبول والارتباك ، بحيث كنت أخرج محزوناً أكثر  
منى مستمتعاً . ولكن فى جنيف وفى سويسرا حيث لا يتصاعد الضحك  
باستمرار فى خبث شديد فان كل شىء يعبر عن الرضا والمرح فى الأعياد .  
ان الشقاء لا يظهر هناك مطلقاً بمظهره البشع كما أن التعاطف لا يبين عن  
محبة . فالامن والاخوة والترابط تهيبء القلوب للفتوح وكثيراً ما نشهد  
فى غمرة المرح البريء الاغراب يجلسون متجاورين متعانقين داعين بعضهم  
النبعض الى الاستمتاع سوياً بمباهج اليوم . ولم أكن فى حاجة الى أن  
أكون واحداً منهم لأستمتع بهذه الأحفلات اللطيفة ، بل كان حسبى أن  
أشهدهم فأشارك فيها بمشاهدتى اياهم ، واننى لشديد الثقة بأنه من بين  
كل الوجوه الضاحكة ليس هناك قلب أشد سعادة من قلبى .  
وبالرغم من أن هذه ليست سوى متعة حسية فان لها من المؤكد علة  
روحية ، والدليل على ذلك أن هذا المشهد نفسه بدلا من أن يطربنى ويعجبنى  
يستطيع أن يمزقنى ألماً وغضباً حين أدرك أن دلائل السرور والفرح هذه  
على وجوه الاشرار ليست سوى علامات على أنهم أشبعوا ما بنفوسهم من  
خبث .

إن المرح البريء هو الذى تطرب دلائله قلبى ، أما دلائل المرح  
الوحشى الساخر فانها تمزقه وتحزنه برغم أنه قد لا تربطنى به أية صلة  
مطلقاً . ولا شك أن هذه الدلائل قد لا تكون هى نفسها تماماً اذا ما صدرت  
عن مبادئ على هذا النحو من التباين : ولكن على أية حال . . . سواء . . .  
فى دلالتها على المرح ، وما من شك أن ما فيها من تباين محسوس لا يتناسب  
وتباين الانتفاضات التى تثيرها فى نفسى :

أما دلائل الألم والعذاب فانا أشد حساسية بالنسبة لها كذلك ، حتى  
انه يستحيل على أن أتحملاً دون أن أهتز أنا نفسى بانفعالات قد تكون  
كذلك أكثر حرارة من تلك التى ترمز اليها . ان الخيال بتدعيمه للحس ،  
يوجد ما بينى وبين المعذب من الناس ويسبب لى غالباً رعباً أشد مما يحس  
به هو نفسه . ان وجهها ساخظاً هو كذلك منظر يستحيل على احتمالها  
وبخاصة ان كان هناك ما يحدونى الى الظن أن هذا السخظ يتعلق بى .  
اننى لن أستطيع أن أقول كم من نقود ابتز منى الغلمان الذين يلوح على  
سيماهم التذمر والاكتئاب وهم يقومون بالخدمة متهجمين فى المنازل التى  
بلغت منى الحماقة فيما مضى حد الاستسلام لمن يقودوننى اليها ، وحيث  
جعلنى الخدم دائماً أدفع غالباً جداً ثمن ضيافة السادة . ولما كنت دائماً



شديد التأثير بالامور الحساسة ، وبخاصة ما يحمل منها دلالة اللذة أو الألم ، العطف أو البغضاء ، فاننى أنقاد لهذه الانطباعات الخارجية دون أن أستطيع مطلقا أن أنحاشاها بغير طريق الهرب . ان اشارة أو ايماءة أو نظرة من مجهول تكفى لتعكر على صفو سرورى أو تسكن من آلامى اننى لا أكون ملك نفسى الا حين أكون وحيدا ، وأما فيما عدا ذلك فانا العوبة فى يد كل من يحيطون بى .

كنت فيما مضى أعيش مسرورا بين الناس حين كنت لا أرى فى كل العيون سوى عطف أو - على أسوأ احتمال - عدم مبالاة فى عيون أولئك الذين كنت مجهولا منهم . أما اليوم ، وهم لا يجدون مشقة فى تنبيه الناس الى وجهى أقل مما يجدون فى وضع قناع على طبعى ، فانى لا أستطيع أن أخطو بقدمى فى الطريق دون أن أرانى محوطا بأشياء موجهة . اننى أتعجل الوصول الى الريف بخطا واسعة وحالما أرى الحضرة أبدا فى التنفس . أمن عجب بعد ، اننى أحب العزلة ؟ اننى لا أرى على وجوه الناس سوى الضغن ، أما الطبيعة فانها تضحك لى دائما . واننى أشعر مع ذلك أيضا - ويجب أن أعترف بهذا - بمتعة فى الحياة بين الناس طالما كان وجهى مجهولا لديهم ، ولكنها متعة لا تتاح لى مطلقا . لقد كنت منذ بضع سنوات ما أزال أحب أن أجول فى القرى وأن أشهد فى الصباح المزارعين يصلحون مدقاتهم والنساء على أبوابهن مع أطفالهن . ولست أدرى ماذا كان يمس شغاف قلبى فى ذلك المنظر كنت أتوقف أحيانا دون أن أنتبه لذلك لا تطلع الى ما يقوم به هؤلاء القوم من أعمال صغيرة . وكنت أجدنى أتهدد دون أن أعرف لذلك سببا . وما أعلم اذا كان أحد قد رأى شغفى بهذه المتعة المتواضعة واذا كان أحد ود لحرمنى منها كذلك ، ولكنى من التغير الذى ألحظه على الوجوه عند مرورى ومن الطريقة التى ينظر الى بها ، أرانى مضطرا أن أدرك أنهم حرصوا جد الحرص على حرمانى من هذا التخفى . ولقد حدث نفس الامر لى ، وفى صسبورة أكثر وضوحا ، فى الانفصاليين Invalides (١) . ان هذه المؤسسة الجميلة كانت دائما محل اهتمامى واننى لا أشهد دائما إلا بحنان وتوقير تلك الجماعات من المسنين الطبيين الذين يستطيعون أن يرددوا ما ردهه شنسبونج لاسيديمون Lacédémone (٢) .

(١) الانفصاليين Les Invalides مبنى اثرى لى باريس من عهد لويس الرابع عشر كان قد أقاله لأيواء مشوهى الحرب عام ١٦٧٠ م ، وقد حول فيما بعد (متد ١٨٤٠ م ) الى مكان يضم زفات كبار قواد فرنسا وعلى رأسهم نابليون ؛  
(٢) لاسيديمون La cédémone ( أو اسبرطه eapete ) مدينة قديمة من مدن اليونان .

## لقد كنا فى سالف الزمان

شيانا شجعبانا جيسوريل

كانت واحدة من جولاتى المفضلة جولتى المفضلة حول المدرسة الحربية وكنت أقابل مسرورا هنا وهناك بعض مشوهى الحرب وقد احتفظوا بشهامتهم العسكرية القديمة فكانوا يخوننى أئساء مروهم . كانت هذه التحية التى يردھا قلبى مضاعفة مائة مرة تطربنى وتزيد من السرور الذى كنت أحسه لدى رؤيتهم ، ولما كنت لا أعرف كيف أخفى شيئا مما يؤثر فى فانتى غالبا ما كنت أتحدث عنهم ، وعن كيفية تأثير منظرهم فى نفسى ، ولم يكن الامر يتطلب أكثر من ذلك . وبعد فترة من الزمان لاحظت اننى لم أعد مجهولا لديهم ، أو بالاحرى اننى غدوت أكثر من ذلك بالنسبة لهم ماداموا كانوا ينظرون الى بنفس العين التى ينظر عامة الناس الى بها فلم تعد هناك لا شهامة ولا تحايا . وقد حل محل ما كانوا عليه من تهذيب فى أول الامر روح جفاء ونظرة شزراء ، ولما كانت الصراحة القديمة التى تتسم بها مهنتهم لا تسمح لهم - كالأخرين - بأن يعجبوا ضغنهم بقناع هازىء خداع فانهم أظهروا لى بوضوح مبین أعنف كراهية ، وهذه هى قمة شدائى ، حتى لأجدنى مكرها على أن أمين ، فى تقديرى ، أولئك الذين يخفون غنى سخطهم أقل من غيرهم .

منذ ذلك الحين وأنا أنتزه ، فى متعصبة أقل ، بناحية الانفاليد ، وضع ذلك فما دامت مشاعرى نحوهم لا تعتمد على مشاعرهم نحوى فانى لا أنظر أبدا بغير احترام وبغير اهتمام الى هؤلاء القدامى من الذائدين عن أوطانهم ، ولكن من أقتنى الامور على أن أجزى من ناحيتهم أسوأ الجزاء مقابل انصافى اياهم ، ولئن حدث مصادفة أن لقيت من بينهم واحدا خرج على التعليمات المشتركة ، أو أنه لعدم معرفته صورتي لم يظهر نحوى اية بغضاء ، فإن التحية الصادقة من هذا وحده تعوضتى عن مسلك الآخرين الخشن ، اننى لأنسأهم حتى لا أشغل بسواه واننى الأتخيل أن له واحدة من هذه النفوس التى تشنبه نفسى حيث لا تستطيع الكراهية أن تنفذ اليها .

وقد سعدت كذلك بهذه المتعة فى العام الماضى حين كنت أعبر الماء لأذهب للتنزه فى جزيرة البجع وكان هناك محسارب فقير مسن فى قارب ينتظر مراقبا للعبور ، فتقدمت وطلبت الى صاحب القارب أن يرتحل . وكان التيار شديدا واستغرق العبور زمنا طويلا ، ولم أجد فى نفسى جرأة كافية للتحدث الى هذا المحارب ، وربما كان ذلك خوفا من أن

أرجو وأصد كما هي العادة . ولكن هيئته النبيلة طمأننتي فتجاذبنا  
أطراف الحديث ، وقد بدا لي رجلا على عقل وخلق ، ودهشت وفتنت  
بلهجنه الصريحة الودية ولم أكن معتادا على مثل هذا العطف . ولكن  
دهشتي توقفت حين علمت أنه وصل حديثا من الاقاليم ، فهدمت منه أن  
أحدا لم يرشده بعد عنى ، أو يعطيه تعليماته . فاعتنمت هذا التخفى  
لا تحدث بضع لحظات مع انسان ، وأحسنت من وراء العذوبة التي لقيتها  
كم تكون ندرة المتع الاكثر شيوعا قادرة على رفع قيمتها . وأثناء مبارحة  
القارب كان يعد « لياريه » البائسين ولكننى دفعت أجرة العبور ورجوته  
أن يعيد صر نقوده وأنا أرتعد خوفا من أن أستفزه . ولكن هذا لم يحدث،  
بل بالعكس فانه بدا متأثرا من لفتتى هذه ، ثم بجاصة من لفتة أخرى ،  
ذلك أنه لما كان أكبر منى بسنا ، فقد عاونته على مغادرة القارب . من ذا  
يصدق أننى تصرفت كطفل حتى بكيت من الهناء ؟ لقد كنت شديد الرغبة  
فى أن أضع فى يده قطعة من ذات الاربعة والعشرين « صلديا » ليشترى  
تبغا ولكننى لم أجرؤ أبدا . كان نفس الخجل الذى ردنى هو الذى كثيرا  
ما كان يذودنى عن القيام بأطيب الاعمال التى كانت كفيلة بأن تغمرنى  
بالبهجة التى لم أمتنع عنها الا وأنا أندب غبائى . وفى هذه المرة - بعد أن  
تركت محاربي القديم - سرعان ما تعزيت وأنا أفكر فى أننى - كما يقال -  
ربما كنت أتصرف ضد مبادئى الخاصة وأنا أخلط بالشريف من الامور  
ثمنا من المال يحط من نبلها ويدنس من نزاهتها . انه من الواجب أن  
يتعجل المرء مد يد المساعدة الى أولئك الذين هم فى حاجة اليها . ولكن  
لندع فى اتصالات الحياة العادية العطف الطبيعى والتهديب يقوم كل  
بعمله دون أن يكون هناك مطلقا نهاز أو جشع يجرو أن يقترب من منبع  
بهذا الصفاء ليفسده أو يشوهه . انه يقال ان القوم فى هولندة يتقاضون  
ثمن اخطارك بالوقت أو ارشادك الى الطريق ، ولا بد أنه شععب يستحق  
بالغ الاحتقار ذلك الشعب الذى يتجر على هذا النحو بأبسط الواجبات  
الانسانية . لقد لاحظت أنه ليست هناك سوى أوروبا وحدها التى يباع  
فيها كرم الضيافة . أما فى كل آسيا فانهم يستضيفونك بدون مقابل .  
واننى أدرك أن المرء لا يجد هناك كل راحته ، ولكن أليس هذا الا كما لو  
قال المرء لنفسه اننى انسان وهأنذا أستقبل من ذوى الانسانية ، انها  
الانسانية الخالصة التى تمنحنى القوى ؟ ان الحرمان القليل يحتمل دون  
عناء اذا ما عومل القلب خيرا مما يعامل الجسد .



## الجملة العاشرة

اليوم - يوم عيد الفصح المزهر - مرت خمسون سنة منذ أول معرفة نى بمدام دوفواران Mme de Warens (١) وكانت فى ذلك الوقت فى الثامنة والعشرين اذ أنها ولدت مع مولد هذا القرن (٢) ، ولم أكن شارفت عندئذ السابعة عشرة ، وكان ميلى الوليد - وان كنت لا أزال أجهله مع ذلك - يمد بحرارة جديدة قلبا مليئا بطبيعته بالحياة . ولئن لم يكن عجيبا أنها أحست بعطف نحو شاب ملء بالحياة ، وديع حينى ذى طلعة حسنة مع ذلك ، فانه كان أقل عجباً أن امرأة فاتنة ذكية رقيقة توحى الى - الى جانب اعترافى بفضلها - بمشاعر أكثر حنانا لم أكن أميزها . ولكن ما ليس طبيعيا أيضا ، هو أن هذه اللحظة الأولى كانت حاسمة فى حياتى كلها وأنها خطت - بسحر لا يمكن الفكك منه - مصيرا بقية أيامى . ان روحى التى لم تكن أعضائى البتة قد أنمت أعلى ملكاتها ، لم تكن لها بعد أية صورة واضحة الحدود . انها كانت تنتظر فى نوع من القلق اللحظة التى يجب أن تعطىها اياها . وهذه اللحظة ، وقد عجلت بها هذه المقابلة ، لم تأت مبكرة برغم ذلك . ولقد لاحظت لأمد طويل - وأنا فى بساطة الطباغ التى منحتنى اياها تربيتى - هذه الجال الهانئة ، السريعة مع ذلك ، حيث يستقر الحب والبراءة فى القلب نفسه . كانت قد أبعدتنى ، وكان كل شىء يذكرنى بها فكان من الضرورى أن أعود إليها ، وقد حددت مصيرى هذه العودة . وقبل أن تكون لى بزمى طويل كذلك لم أكن أعيش الا بها ومن أجلها . أه لو اننى أشبعت قلبها كما أشبعت هى قلبى ! كم من أيام أمنة حلوة كان من الممكن أن نمضيها معا ! لقد قضينا أمثالها ولكنها كانت قصيرة سريعة ، وأى قدر

(١) التقى روسو بمدام دو فواران de Warens فى انسى Ancey فى عام ١٧٢٨ ،  
وإذن بتاريخ كتابه الجملة العاشرة الثانى من ابريل عام ١٧٧٨ وهى بذلك ترد  
ما نجاء بالكتيب الثالث الى السادس من « الاعترافات » .  
(٢) ولدت مدام دوفواران عام ١٦٩٩ .

ذلك الذى تبعها ! ما من يوم لا أتذكر فيه بنشوة وحنان هذه المرحلة الوحيدة القصيرة من عمرى التى كنت فيها بكل كيانى خالصا لذاتى بغير شائبة أو عائق ، وحيث أستطيع أن أقول اننى عشت ، اننى أستطيع أن أقول تقريبا كما قال مدير المحكمة الذى عزل فى عهد فسبازيان (١) **Vespasien** وذهب يختم أيامه فى سلام فى الريف ، « لقد قضيت فوق الأرض سبعين سنة عشت منها سبعا » اننى بغير هذه الفترة القصيرة الثمينة مع ذلك ، ربما بقيت غير مستوثق من نفسى ، ذلك لأننى فى كل بقية حياتى ، وقد كنت ضعيفا لا أقاوم ، كانت أهواء الآخرين تهيجنى وتتقاذبنى وتتجاذبنى حتى أننى وقد غدوت شبه سلبي فى حياة عاصفة على هذه الصورة كان من الصعب أن أميز ما هو ذاتى فى سلوكى الشخصى ، من فرط ما ظلت الحاجة القاسية تبهظنى . ولكن خلال هذا العدد القليل من السنين وقد أحببتنى امرأة مليئة باللطف والركة فعلت ما كنت أريد فعله وكنت ما أريد أن أكون ، وعرفت - عن طريق استخدام أوقات فراغى ، تعاوننى فى ذلك دروسها والمثل الذى تقدمه - كيف أعطى لروحي التى كانت لا تزال بريئة جديدة الصورة التى كانت تناسبها أكثر من غيرها والتى احتفظت بها دائما . لقد ولد فى قلبى الميل الى العزلة والتأمل مع مولد المشاعر الفياضة الحنون التى خلقت لتكون غذاء له . ان الصخب والضجيج تحصرها وتقضى عليها أما الهدوء والسلام فيبعثان فيها الحياة وينعشانها . اننى فى حاجة الى أن أعتكف كى أحب . لقد حدثت « أمسى » (٢) الى أن تعيش فى الريف ، وكان مأوانا بيت منعزل فى سفح واد ، وهنالك - مدى أربع أو خمس سنوات - استمتعت بقرن من الحياة والهناء الصافى المطلق الذى يسبغ فتنته على كل ما لحظى الحالى من بشاعة . كنت فى حاجة الى صديقة توائم قلبى ، وقد كانت لى . كنت راغبا فى الريف وقد حصلت عليه . اننى لم أكن أستطيع أن أحتمل الخضوع وقد كنت حرا تماما ، وأكثر من حر ، ذلك لأننى وقد خضعت لاهوائى وحدها لم أكن أعمل سوى ماكنت أريد عمله . كان وقتى كله مفعما برعاية تزخر بالحب أو بشواغل فى الحقول . اننى لم أكن أريد شيئا سوى استمرار حالى بهذه الهناء ، ولكن ألى الوحيد كان الخوف من ألا تستمر طويلا ، وهذا الخوف الناشئ

(١) فسبازيان **Vespasien** أحد اباطرة الرومان حكم من ٦٩ - ٧٦ م .  
(٢) لما رأى روسو مدام دوڤواران غارقة فى الدين فكر فى مورد يعينها عن طريقه فوضع طريقة جديدة لرقم الموسيقى بدلا من السلم الموسيقى المعتاد ثم سافر الى باريس ليعرض مشرومه على أكاديمية الفنون .

عن حرج موقفنا لم يكن بغير أساس . وقد فكرت منذ ذلك الحين لى أن  
أمنح نفسى فى الوقت نفسه ألوانا من التسلية تلهينى عن هذا القلق ،  
وموارد تعيننى على تفادى أثره . لقد فكرت فى أن رصييدا من المواهب هو  
أكثر الموارد أجانا ضد البؤس فعزمت على أن أستغل أوقات فراغى فى  
اعداد نشى لآكون قادرا . ان كان ذلك ممكنا - على أن أرد يوما من الايام  
الى أكرم النساء ما تقبلت منها من معونة .

# الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	تمهيد
١١	مقدمة وتعليق
٣٥	تقديم للجولات
٣٩	الجولة الاولى
٤٢	الجولة الثانية ..
٤٥	الجولة الثالثة .. ..
٥٠	الجولة الرابعة ..
٥٣	الجولة الخامسة
٥٧	الجولة السادسة
٦١	الجولة السابعة
٦٥	الجولة الثامنة .. ..
٦٨ ..	الجولة التاسعة
٧٣	الجولة العاشرة
٧٧ .. ..	طباع روسو وحالته النفسية فى آخر حياته .. ..
٨٣ .. .. ..	أحلام اليقظة بين مؤلفات الكاتب الاخرى .. .. ..
٨٧	أصالتها وأثرها الادبى ..
٩٥	الجولة الاولى ..
١٠٣	الجولة الثانية ..



**الصفحة**

**الموضوع**

١١٣

الجولة الثالثة

١٢٧

الجولة الرابعة

١٤٣

الجولة الخامسة

١٥٣

الجولة السادسة

١٦٣

الجولة السابعة

١٧٧

الجولة الثامنة

١٨٧

الجولة التاسعة

٢٠٦

الجولة العاشرة

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز  
الإشراف الفنى : حسن كامل



چان چاك روسو

أحلام يقظة

جوال منفرد

منذ أكثر من مائة وثمانين عاما كتب چان چاك روسو الجولة العاشرة من "أحلام يقظة جوال منفرد"، ولم يقدر له أن يكملها، كان ذلك في الثاني عشر من أبريل عام 1778 في يوم "عيد الفصح المزهر"، أي قبل وفاته بما يقل عن ثلاثة شهور؛ إذ إنه قضى في شهر يوليو من العام نفسه. هذه الجولات إذن هي مؤلفه الأخير، وآخر ما سجل من خواطر وخلجات سجلها ابتداء من ربيع عام 1776.